محمد الطيب العلوي

مظاهر المقاومة الجزائرية

من عام 1830

حتى ثورة نوفمبر 1954

نشر



محمد الطيب العلوي

مظاهر المقاومة الجزائرية

من عام 1830 حتى ثورة نوفمبر 1954

الطبعة الأولى

1406 هـ - 1985 م

نشر





رقم الايداع القانوني

39530

1986

و. قسنطينة

بسم الله الرحمن الرحیم

الإهداء

إلى الشهداء الخالدين الذين

لم ينصفهم إخوانهم الأحياء!

المقدمــة

الصفحات التي بين يديك أيها القاريء الكريم ، ليست في الأصل إلا أحاديث أذيعت بالإذاعة الوطنيـة الجزائريـة طوال شهر أكتوبر 1984 ، وقـد نظم هـذه الأحـاديث معي الأخ عبـد القـادر نـور مـدير الإذاعـة الجزائرية ، وذلك بمناسبـة الـذكرى الثلاثين للثورة الجزائريـة المجيـدة .. وهي ذكرى رائعة احتفل بها الشعب الجزائري احتفـالا رائعـا ، كان في مستوى الثورة الخالدة .. وقـد لاقت هـذه الأحـاديث ـ على إيجـازهـا ـ صدًى طيبـا ، وصـادفت إعجـابـا من المستمعين والمستمعـات ، فألحُّوا علي جمعهـا ونشرهـا في كتـاب ، حتى لاتضيع في خضمّ الأحـاديث المهملـة .. وقـد تمكنت بفضل التشجيع والاهتمام من تسجيلهـا ، وصـوغهـا صيـاغـة مناسبة للنشر وللقراءة بعد إدخال تعديلات طفيفـة على الأصل .. أرجو أن يسدَّ هذا الكتاب بعض الفراغ ، وأن يلبّي حاجة الشبيبة الجزائريـة المتشوقة لمعرفة تـاريخ بلادهـا بصفـة عـامـة ، وتـاريخ المقـاومـة بصفـة خاصة ، وقد لاحظت هذا التعطش في مختلف المناسبات التي أتيحت لي لإلقاء المحاضرات في بعض المعاهد الجزائريـة .. وأملي في الأخير أن تُسهم هـذه الصفحـات في إثراء المكتبـة التـاريخيـة الجـزائريـة التي تحتـاج إلى مساهمة كل جزائري وجزائرية بما يتوفر لديه ولديها من معلومات ..

لقد قصرنا كثيرا في كتابـة تـاريخنـا ، وهو تـاريخ نـاصع حـافل .. فتـولاه الأجـانب ، وحللـوه من وجهـات نظرهم ، وشـوّهـوا الكثير من

الحقائق أحيانا عن « عمد وسبق إصرار » ، وأحيانا عن جهل وبدون قصد .. حتى أن بعض المتعصبين من الأجانب ، أنكروا تماما وجود شعب جزائري !. ووجود وطن جزائري !. بل هناك بعض السياسيين التقدميّين تجرأوا على التصريح فوق الأرض الجزائرية ، بأن الشعب الجزائري غير موجود ، وإنما هو شعب في طريق التكوين !. وتجرأ آخرون على الادّعاء بأن فرنسا وجدت القطر الجزائري أرضا مهملة ، « فعمّرتها » وأطلقت عليها اسم « الجزائر » !. فالجزائر إذن في نظر هؤلاء وأولئك ، إنما هي « صنع فرنسي » ، ولا وجود لها قبل الوجود الفرنسي !. ومعنى ذلك أنه لا ماضي لهذه البلاد .. ومن لا ماضي له ، لا حاضر ولا مستقبل له .. وانطلاقا من هذا الفهم الخاطيء ، والتفكير المنحرف ، راحوا يستهينون بالفرد الجزائري ، فاعتبروه طوال القرن والربع من الاستعمار « أهليا » « متخلفا » « غير قابل للتطور » « لا استعداد له للاندماج في العالم المتحضر » « ليست له مقومات ولا تقاليد » « عاجز عن القيام بأي عمل رائع » وإذا صدر عنه عمل رائع ، فإنه لم يصدر إلا بإيعاز وإيحاء .. ومن هذه الحقائق الزائفة التي رسّخوها في أذهانهم ، وأذهان غيرهم ، عارضوا كل المطالب والمواقف الجزائرية ، على أنها مطالب أو مواقف أوحت بها عناصر أجنبية .. وهذا ما جعلهم أيضا لايعترفون بثورة نوفمبر 1954 كثورة جزائرية بحتة ، فجّرتها الطاقة الوطنية الجزائرية ، واحتضنها الشعب الجزائري ، وضحى في سبيلها بالنفس والنفيس .. ودفعهم التعصب الأعمى إلى اتهام جهات أجنبية ، ودول أجنبية .. أحيانا شرقية ، وأحيانا غربية .. لولا أن الثورة فرضت نفسها ، وأثبتت وجودها وقوّتها ، واستطاعت أن تفسد كل المخططات ، وأن تقضي على كل المناورات ..

فهل من حقنا أن نحتج على ما كتبه الأجانب عن تاريخنا وثورتنا ؟ أعتقد أنه بدل الاحتجاج ، والرد على ما كتبوه ، يتعين علينا أن نتوجه مباشرة إلى تسجيل تاريخنا بأنفسنا ، فالمثل يقول : « ما حك جلدك ، مثل ظفرك » .. لأن كل مؤرخ أجنبي عندما يحلل الأحداث التاريخية ، يحللها بمنظاره الذي أعده مسبقا لتحقيق غرض ما ، معتمدا في تحليلاته وبحوثه على الوثائق المتوفرة لديه ، وهي وثائق معروفة المصدر .. لا توجد بينها الوثائق الوطنية ، لأن هذه اختفت وأحرقت منذ الساعات الأولى من الاحتلال ، واستمرّ الحرقُ لآخر ساعة منه .

لهذا ركّزتُ في أحاديثي على بعض الجوانب من المقاومة الطويلة الواسعة ، للتأكيد على عراقة وأصالة الشعب الجزائري .. إذ لولا الجذور التاريخية لهذا الشعب ، ولولا ماضيه الحافل العريق ، لَمَا تمادى في مقاومته للاحتلال قرنا وربعاً .. ولَما ضحّى بالملايين من خيرة أبنائه .. وهنا لا يفوتني أن أذكر بأنّنا تعوّدْنا - منذ الاستقلال - أن نُردِّدَ : « بأن الجزائر أرض مليون ونصف مليون شهيد » - بينما هي أرض الملايين من الشهداء !. أرْضُ المقاومة التي لم تتوقف أبدا !. وتاريخ المقاومة تاريخ مشرِّف للجزائر .. وكل مرحلة منها تحتاج في الحقيقة إلى وقفة خاصة ، وإلى حديث خاص ، لا تتحمله مثل هذه الأحاديث العابرة ..

ومن تأمُّلِ الأحاديث التي ركّزتُ عليها يُدرك المرء سبب صلابة الجزائريين وتشدُّدَهم في مواقفهم ضد سياسات : المراحل . الإدماج . التجنيس . الاتحاد الفرنسي . الإصلاحات . تصنيف السكان .. ويدرك

تشدد الجزائريّين في المفاوضات الجزائرية ـ الفرنسية أثناء حرب التحرير ، لأنهم علّقوا مصير الثورة بثلاثة أهداف :

- الاستقلال التام .
- السيادة الوطنية الكاملة .
- الوحدة الترابية الوطنية غير المنقوصة .

لكن الأحداث مرتبطة دائما بالأفراد ، والجمعيات ، والأحزاب ، لأنهم الذين حدّدوا الأهداف ، وأشرفوا على التنفيذ .. وهنا يجب علينا أن نتحدث عن تاريخنا بدون عقدة ، فتاريخنا كتاريخ أي شعب ، فيه صفحات مشرقة ، وصفحات مظلمة ، ولكنها جميعا حلقة من حلقات التاريخ الوطني .. والعقدة تباعد بيننا وبين الموضوعية ، وتجرنا إلى كتابة تاريخ « حسب المقاس » ، نقدس من نقدس ، ونذم من نذم بدون موضوعية .. وقد حاولت ـ ما أمكن ـ أن أتجنب تشخيص التاريخ أي حصره في أشخاص ، وإن أوردت بعض الأسماء لأشخاص ينتمون لتنظيمات وطنية ، أو يتزعمون تنظيمات وطنية ، وفي نظري أن هؤلاء الأشخاص ليسوا إلا بشرا .. اجتهدوا أحيانا وأصابوا .. واجتهدوا أحيانا وأخطأوا .. ويشفع لهم إخلاصهم وحبهم لأمتهم ووطنهم ، سواء أصابوا أو أخطأوا ..

نعم لقد اندسّت في صفوف الأحزاب والهيآت الوطنية عناصر انتهازية ، تسلّقت إلى كراسي المسؤولية بطرق ملتوية ، وحاولت أن تجر تنظيماتها إلى انحراف خطير .. غير أن الروح الوطنية المتمكنة في النفوس كانت يقظة !. ولم يسعني في خلال أحاديثي هذه إلاّ أن أُشيد بهذه الروح الوطنية التي كانت تستمد قوتها من الإسلام والعربية

والجـزائر ، وهي المبـادىء التي اعتنقهـا الشّعب وآمن بهـا ، وتقبّـل التّضحيات في سبيلها ، وأرغم بعض الأحزاب والزعامات على اعتنـاقهـا ، وخاض المعارك السياسيـة والمسلحـة على هـذه الأسس .. وبـذلـك تعتبر المقـاومـة الجزائريـة مقـاومـة شعبيـة .. قـد تبتـدىء ببعض الأفراد ، أو بحزب ، إلا أنه لا يكتب لها البقاء ، إلا إذا التفّ حولها الشعب .. وقـد كان الإقبال الشعبي على ثورة نوفمبر أهم رصيد تمتلكه الثورة ، خاصة وأن رواد الثورة اختـاروا عنوانـا يـوحّـد ولا يفرّق ، وهـو « جبهـة التحرير الوطني » ، ووجهوا نداءهم الأول إلى الشعب بصفة عامة ، وإلى المناضلين بصفة خاصة .. وهؤلاء هم الذين كانوا بجانب الأمير عبد القـادر ، وأحمـد بـاي .. وكانـوا في كل الظروف مستعـدين لمـواصلـة مسيرة المقـاومـة الطويلـة .. حتى النصر النهـائي .. وقـد مكّن الله الشعب الجـزائري من النصر المبين بعد أن دفع الثمن غاليا .. فهو بالاستقلال جدير ، وبالحيـاة قمين .. وللحديث عن الثورة المظفرة مناسبة أخرى ـ إن شاء الله ـ

أوت 1985



المقاومة

المقاومة وأشكالها

المقاومة هي رد الفعل ، ومواجهة العناصر الدخيلة ، ورفض تقبلها ، والتصدّي للاعتداآت التي تقعُ من طرف أيِّ أجنبي . وما دام الجزائريون لم يتقبلوا الأمر الواقع ، فهم من عام 1830 حتى عام 1962 في مقارمة .. عُرِفت بنبالتها وإصرارها وروحِها الوطنية طوال القرن والثلث من الوجود الفرنسي ، اتّسمَتْ بالرفض المطلق للوجود الاستعماري ، ولمحاولات فرضه بشتى المناورات ، والأساليب ، والإغراآت .. واتخذ هذا الرفض في بعض الاحيان مظهر التحدي المتصلّب لكلِّ انقرارات والاجراآت الاستعمارية ، سواء كانت قانونية أو إدارية أو عسكرية ، بل حتى لو كانت حضارية ثقافية .

من المعلوم أن الجزائر قاومت كل دخيل ، ولم يستطع أيٌّ من الدخلاء أن يُثبِّت أقدامه ، ويفرض وجوده بقوته العسكرية ، إلا أن مقاومتها للاحتلال الفرنسي كانتْ أشدّ وأشرس ، وأطول وأعنف ، وذلك لأن الفرنسِيِّين لم يتوقفوا في احتلالهم عند حد معين ، ولم يقتصروا في أطماعهم على جانب واحد ، واستعملوا في تحقيق مطامعهم ومطامحهم الاستعمارية الاستيطانية وسائل وحشية ، كانت لها انعكاساتها على نفسيات الجزائريين ، مِمّا أضْفَى على المقاومة أحيانا حِدَّةً تُساوي وتُضاهي حِدَّةَ قادة الاحتلال ، واستمرّت متسلسلةً تسَلْسُلَ مشاريع الاستيطان .. إذ كلما قررتِ الإدارة الفرنسية مشروعاً ، إلا وتصدّى له الجزائريون بمشروع مضاد ، وكلما قامتْ بعمل ما ، تحدّيها بموقف معاكس ، واستعملوا في ذلك نوعين من المقاومة :

1 ـ المقاومة الإيجابية : فخاضوا المعارِكَ المسلحة منذ 1830 حتى الحرب العالمية الأولى ، ثمّ اتّجهوا إلى استعمال السلاح السياسي ، وخاضوا به المعارك السياسية ، والدينية ، والثقافية .

2 ـ المقاومة السلبية : إذ قاطعوا المشاريع التي اشتمّوا منها أنها وُضعت بهدف القَضاء على الكيان الجزائري ومقوماته ، أو بهدف تشويهه وتحريفه ، حتى أنّهم رفضوا التحضّر والحضارة ، لأنها في نظرهم مرحلة من مراحل الابتلاع والاندماج ، وقاطعوا اللغة الفرنسية ، لا لأنها لغة ، ولكن لأن المحتلّ ينوي من وراء استخدامها ونشرها القضاء على الثقافة الأصلية ، واللغة الوطنية ، وكوّنوا لأنفسهم مساجدهم ، وأنشأوا مدارسهم وفِرَقَهم الرياضية والفنية محافظة على شخصيتهم الجزائرية ، وشنّعوا بالعادات والتقاليد ، وأنواع السلوك التي حاول الفرنسيون غرسها في الأوساط .

لهذا ، لم تخل فترةٌ من فترات التاريخ الجزائري المعاصر من مقاومة مسلّحةٍ ، أو انتفاضة في منطقة من مناطق البلاد ، أو من نضال سياسي ، وديني ، وثقافي ، مما أحرج الإدارة الاستعمارية ، وأربك مخطّطاتها ، وقامت نتيجة ذلك الإحراج ـ مع قلة التبصّر ـ ، بأعمالِ قمعٍ فظيعة ، أدّتْ إلى إبادة قبائل بأكملها ، وإلى حرق مداشر بما فيها ومن فيها ، وإلى الاستحواذ على الأراضي والممتلكات وتوزيعها على المعمّرين القادمين من مختلف أنحاء أوروبا ، وأدتْ أيضا إلى وضع قوانين خاصة بالسكان تُشرّع الاعتداء ، والاضطهاد ، والاغتصاب ، وتزوير الانتخابات ، والحيلولة دون تمثيل السُكّان على جميع المستويات ، وفي كل المجالس ، والهدف من ذلك كُلّهِ إضعاف الروح الوطنية لدى السكان ، وتشجيعُ الجنود الفرنسيّين والعناصر الغازية على الاستيطان ..

وإلى جانب هذا ، قامت الإدارة الفرنسية باستخدام وسائل الإغراء ، ببَذْل الأموال على من تلمّست فيهم استعداداً للخيانة والتعاون ، وبعرض

المناصب والمراكز العالية عليهم ، وبمنْحِهِم ألقاباً فخمةً ، ونياشين متنوّعة .. إلا أن النتيجة لم تكن كما كانت السياسة الفرنسية تتوقّعها ، إذ تراجعتْ بعض هذه العناصر ، واستيقظتْ .. وتخلّتْ عن معسكر التواطؤ مع جيش الاحتلال وإدارته ، إلى معسكر المقاومة في كثير من الأوقات ، لأن الذين استمرّوا في التواطؤ لم يلقوا أيّ ترحيب أو ارتياح من طرف المواطنين الذين اعتبروهم دائما خونةً ، جديرين بالاحتقار والمقتِ .

وبمراجعة سجل الكفاح الذي خاضه الشعب الجزائري ، نلاحظ أنّ هذا الكفاح مرّ بمراحل :

أولا : مرحلة المقاومة (Résistance) ، وهي المرحلة الأولى التي تصدّى فيها الشعب الجزائري للاحتلال الفرنسي منذ الساعة الأولى التي تواجدَتْ فيها وحَداتُ الجيش الفرنسيّ على شاطيء سيدي فرج عام 1830 ، وأبرزُ الذين حملوا لواء المقاومة الأمير عبد القادر بغرب البلاد منذ عام 1833 حتّى عام 1847 ، والباي أحمد باي بشرق البلاد منذ عام 1830 إلى عام 1848 .

ثانيا : مرحلة الانتفاضات : (Soulèvement) ، وقد امتدّت من عام 1848 حتى عام 1916 بقيام الحرب العالمية الأولى ، وشملَتْ كل أنحاء البلاد ، وقادها العديد من رؤساء القبائل ، ومشائخ الزوايا ، ولم يُكتبْ لها النجاح لافتقارها إلى التنظيم ، والتعبئة العامة ، وإلى تحديد الهدف من القيام بها .

ثالثا : النضال السياسي : (La lutte politique) وغطّتْ فترة ما بين عامي 1919 ـ 1954 افتتَحها الأمير خالد بخوضه معارك الانتخابات ، وعَقْدِهِ لاجتماعات ، وتقديمِه لعرائض ولوائح ومطالب انتهتْ بنفْيه من البلاد . تلاه ظهور الأحزاب السياسية ، والهيآت

الدينية ، والجمعيات الثقافية والرياضية ، وعلى رأس الأحزاب والهيآت الشهيرة : نجم شمال إفريقيا الذي تحوّل إلى حزب الشعب الجزائري ثم إلى حركة الانتصار للحريات الديمقراطية . وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، والحزب الشيوعي الجزائري ، وحزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري .

وفي هذه الفترة ظهرت الصحافة الجزائرية ، واشترك الجزائريّون في الانتخابات للمجالس ، وتأسّست النوادي والمدارس الحرة ، وعُقِدتِ المؤتمراتُ ، ووقفتْ بعضُ الأحداث التي كانت لها انعكاساتُها على الحياة الجزائرية ، وعلى تطوّرات الأوضاع السياسية خاصّةً منها ما تعلَّق بالإعداد والتعبئة لثورة نوفمبر عام 1954 .. وخلال هذه الفترة أيضا عرفت الجزائر قوانين الأنديجينا ، ومحاولات التجنيس ، ومساعي التبشير المسيحي ، والاحتمالات بمرور القرن على الاحتلال ، وعاشت قمع العناصر الوطنية الجزائرية بالنفي والسّجن والإعدام ، وتزييفِ الانتخابات .

كما برزت خلالها شعارات : المطالب الجزائرية . الاصلاحات . الاندماج . المساواة . الأمة الجزائرية . الاستقلال . البرلمان الجزائري . السيادة الوطنية .

رابعا : الثورة : (La révolution) وتمتاز بوضوح أهدافها ، والتفاف الجماهير حولها ، وتعميمها في كامل القطر ، وصمودها في سبيل تحقيق الاهداف المسطرة من البداية : الاستقلال . السيادة . وحدة التراب .. ولهذا تعتبر ثورة نوفمبر 1954 تتويجا للمقاومة الشعبية الطويلة .

الاحتــلال

الاحتـلال

هل كان في نية فرنسا احتلال الجزائر أم لا ؟

إن الـذي يراجع كتب المؤرخين الفرنسيين ، ويراجع المـذكرات التي كتبها الضبـاط الفرنسيون الـذين اشتركوا في عمليـات الاحتلال الأولى ، يلاحظ تناقضات بين تصريحات رجال الحكومـة الفرنسيـة من نـاحيـة ، وتصريحـات الضبـاط العسكريين من نـاحيـة أخرى ، وبين التصريحـات وواقع عدوان الجيش الفرنسي ، وهذا العـدوان يؤكّـد بـأن نيـة العـدوان قائمة من زمن ، وبأن الرغبة في احتلال الجزائر ليست رغبـة طـارئـة .. وليْستْ قضية « المروحة » أو موضوع « القرصنة » إلا تعلة وسببا .

فما هي الدوافع والأسباب إذن ؟

أولا : لقد كانتْ فرنسا مهتمّةً بالقطر الجزائري اهتماماً خاصًّا ، يبْـدو ذلـك في كتـابـات وأحـاديث بعض الأوسـاط الفرنسيـة في مجـامعهم الخاصة .. ويبدُو في المساومات التي قـامت بهـا فرنسـا قبل الاحتلال مع بعض الدايات والبايات ، عساها تتحصّل على امتيازات خاصـة بهـا على الشريط السّاحلي للقـالـة وعنـابـة حتى سكيكـدة ، بل قـامت بعمليـات تسْليل بعض العنـاصر إلى الشـواطيء البحريّـة لهـاتـه المـدن السـاحليـة بغَرَضِ التجسّس ، والتعرُّف على المنطقة .

ثانيا : لقد كانت المنطقـة كلهـا ، بمـا في ذلـك المغرب وتونس محلّ أطماع الـدول الأوروبيـة التي تفتَّحَتْ شهيَّتُهـا في ذلـك العهـد للتـوسّـع

وتكوين الامبراطوريات ، لاسيا بعد أن بدأ الضعف يتسرَّب إلى الخلافة العثمانية ، وتقلَّصتْ رُقْعتها ، ولم تعد ذاتَ وزن أو نفوذ في العالَميْن الشرقي والغربي .

ثالثا : موقف الجزائر وأسطولها البحري في الدفاع وحماية المسلمين .. فقد ساهم في السابق في إنقاذ المسلمين المضطهدين بأسبانيا ، وها هو يُساهم في إنقاذ الخلافة العثمانية بعد أن تألَّبَتْ ضِدَّها الدول الأوروبية .. فاستغَلّتْ فرنسا تواجد الأسطول الجزائري في حالة الدفاع عن تركيا بعيدا عن شواطئه ، وسواحل الجزائر ، وقد أكَّد المؤرخ هانري تشاو هذه الحقيقة بقوله : « إن الحكومة الفرنسيةَ أرادتْ أن تنتهزَ فُرصةَ انشغال أحْسن الوحداتِ من الأسطول الجزائري في الشرق ، وأن تخلَق مُبرِّرا لتدخُّلِها العسكري ، فأرسلَتْ تعليماتٍ خاصةً إلى قنصلها في الجزائر ، وأمرَتْه أن يَغتنِم فُرْصةً قد تسنح لإساءة العلاقات مع حكومة الداي » .

رابعا : ظهور التنافس الاستعماري الاقتصادي بين فرنسا وأنجلترا إذ كانتْ كل منهما تُحاول التوسُّع وتمدِيدَ رقعة سيطرتها وتجارتها ، باحتلالها لمناطق وأخرى تُمكِّنُها من الاستيلاء على ثروات الأقطار المحتلّة ، وعلى تحسين أوضاعها الاقتصادية على حساب الشعوب المستعمرة ، كَمَا عَبَّر عن ذلك الجنرال جيرارفورد بمناسبة نزول الجيوش الفرنسية بالسّاحل الجزائري إذ قال : « إن هذا الاحتلال يَستند إلى ضرورات هامة جدا ، ويرمي إلى فتحِ منفذٍ واسع لتصريف بضائعنا » (أحمد الخطيب . الثورة الجزائرية . ص 39) .

خامسا : أقرضَت الجزائر فرنسا عام 1797 ديونا بدون فوائد ، تراكَمَتْ عليها بسبب تَزْويد الجزائر لها بالحبوب من قمْح وشعير لمواجهة المجاعة التي عانتْ منها فرنسا مرارا ، إلا أن هذه تماطلت في تسديد

الديون ، وراوغَتْ متنصّلة من مسؤوليتها بتحميلها للتاجرين اليهوديّين الوسيطين ، وكانتْ تتقدم في كل مرة بأعذارٍ واهية ، أدّتْ في النهاية إلى استياء الداي حسين باشا من المماطلة المستمرة ، ومن اللامبالاة واستخفاف ممثل فرنسا بالجزائر .

سادسا : تدهور الوضع الداخلي بفرنسا تدهورا أثار نقمة الشعب الفرنسي ضد الملك شارل العاشر ، ولم يجد هذا منفذا لتصريف النقمة الشعبية أحسن من صرف الاهتمام إلى خارج البلاد ، وإلهاء الشعب بمشروع احتلال الجزائر الإقليم الغني ، لفائدة فرنسا ، وتحسين اقتصادها ، وأيضا لصالح المسيحية الناقمة على القوة البحرية الاسلامية المتبقية في البحر الأبيض المتوسط .

سابعا : أن فرنسا في ذلك العهد لم تتقبَّل أبدا أن تسبِقها دولة أخرى في أوروبا ، في التخلص من هيمنة القوات البحرية الجزائرية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، خاصة وأن الدول الأوروبية كانتْ تُجري تشاوراتٍ فيما بينها ، بلَغَتْ في بعض الأوقات إلى عقد اتفاقات للحدّ من « قرصنة البحرية الجزائرية » : « في هذه الأثناء كانت الدول الأوروبية مجتمعة في مؤتمر فيينا ، فاستغل ممثل بريطانيا هذا الهجوم لإثارة الدول الأوروبية ضد الجزائر ، وقرّر مؤتمر فيينا بالفعل وضعَ حدٍّ نهائي لتصرفات القراصنة في حوض البحر الأبيض المتوسّط ، ولاسترقاق المسيحيين » (مبارك بن محمد الهلالي الميلي . تاريخ الجزائر في القديم والحديث . ج 3 . ص 262) .

ذلك لأنّ البحرية الجزائرية استطاعتْ أن تردّ بحزم على القرصنة الأوروبية ، جعل الدّول الأوروبية ترهبُ جانبَها ، كما استطاعَتْ أن تساعد دول البحر الأبيض المتوسط الاسلامية في أوقات المحن .. أيضا قامتْ بعملية حضارية إنسانية نبيلة حين تولّت إنقاذ المسلمين

المضطهدين من طرف الإسبانيين ومن محاكم التفتيش التي نصبوها .. كل هذا جعل الفرنسيين يستعملون في تصريحاتهم ذريعةَ « الدين » لتصفية حساباتهم مع الجزائر ، وتحقيق رغبتهم في احتلالها ، وتأديب الداي ، وتحطيم البحرية الجزائرية .

ظهرت نوايا فرنسا منذ الشروع في الاستعداد لغزو الجزائر عام 1827 ، ولو أن التفكير في ذلك ظهر من فترة طويلة ، « والملاحظ أن القنصل الفِرنسي كيريسي ، بدأ يفكر في ضبط مشروعٍ لاحتلال الجزائر منذ عام 1782 ، وظل يفكر في ذلك طيلة تسع سنوات ، إلى أن قدّم مذكّرته هذه إلى الخارجية الفرنسية في عام 1791 ، وقدْ حدّد في هذا المشروع حتى النقطة التي يتسرّب منها الفرنسيّون إلى برّ الجزائر » (مبارك الميلي . تاريخ الجزائر في القديم والحديث . ج 3 . ص 276) .

كتب وزير الخارجية تاليران إلى القنصل الفرنسي طارحاً عليه بعض الأسئلة ويرجوه الجواب عنها ، وهي :

« أولا : ما هي تعزيزات الجزائر من ناحية البحر ؟

ثانيا : لوْ كنّا في حرب مع الجزائريين ، فما هي التدابير الّتي يجبُ اتّخاذها لعدم إلحاق الضرر بنا ؟

ثالثا : ما هي الوحدات البحرية الّتي يَجب إعدادها ؟

رابعا : ما هي التدابير اللأّزمة لإلحاق أكبر نِسبةٍ مُمكنةٍ من الضّرر بِهم بواسطة الوسائل البحرية وحدها ؟

خامسا : في حالة ما إذا قرّرْنا عند نُشوب الحرب مع الجزائر استِعمالَ جيش بري ضدّ هذه النيابة ، فكيف يكون تشكيله ، وما هي القوة التي يَنبغي أن يكون عليها ؟

سادسا : كيف تنزل هذه القوة إلى البر ، وفي أيّ مكان ؟
سابعا : ما هي الخطة الواجب اتباعها للاستيلاء على الجزائر ؟
ثامنا : ما هي قوة جيش الداي ؟ وما هو تركيبها ؟
تاسعا : من هم سكان النيابة ؟ ومن هم سكان مدينة الجزائر ؟

عاشرا : فيما إذا حوصِرت مدينة الجزائر وقاوَمتْ فمِنْ أين يُمكن للجيش أن يجلبَ الماء والقمحَ واللحوم والخشب ؟ ما هي القُرى التي يُمكن أن تُموّن الجيش ، وما هو عددُها ؟

حادي عشر : هل هناك رحَوَات تسِيرُ بالماء في ضواحي الجزائر ، وأخرى يُسيِّرها الريح ؟

ثاني عشر : هل يوجدُ الخشبُ والأعشاب للطبخ وللمهامّ الأخرى ؟

ثالث عشر : وصف محلي للمنطقة على امتداد ثمانية عشر ميلاً في كل الاتّجاهَات ؟

رابع عشر : فيما إذا كُنَّا نريدُ عِوض مهاجمة مدينة الجزائر إلحاق أكبر نسبةٍ مُمكنةٍ من الضرر بالدّاي ، وفيما إذا أردْنا تخريبَ بعض ولاياته أو بعض مُدُنِه في نفس الوقت الذي تنظم فيه - بحرا - حربٌ لا هوادة فيها ضده ، فما هي العمليّات الثانوية التي يُمكن تنظيمها ؟

خامس عشر : ما هي عقلية الداي الحالي ؟

سادس عشر : ما هو تفكير رجال الدين الذين يحيطون به ويُؤثرون عليه ؟

سابع عشر : أية صورة يحملها عن قوة فرنسا ؟

ثامن عشر : إلى أيّ حدٍّ يُمكن أن يؤثّر فيه التهديد بإعلان الحرب من طرفنا ؟ » (مبارك الميلي . تاريخ الجزائر في القديم والحديث .ج 3 . ص 279) .

وهي أسئلة - كما تبدو - مضبوطة ، واضحة النوايا ، والأهداف .

ومما يؤكّدُ بأن نيةَ العدوان كانتْ مبيّتة ، هو أن فرنسا بعثت بالضابط بوتان (Boutin) من سلاح المهندسين عام 1808 ، حيثُ تمكّن هذا من التسلُّل إلى الجزائر متنكرًا في زيٍّ مدنيٍّ ، استطاع أن يتجول في عِدَّة جهات من القطر ، قام خلالها بدراسة المواقع الاستراتيجية الجزائرية ، وَتعرَّف على وسائل الدفاع الجزائرية ، والأماكن الحصينة بالبلاد ، وهو « الذي حدَّد ثغر سيدي فرج كأفضل موقِع لإنزال الوحدات الفرنسية التي تقوم بالاحتلال ، واعتَمِد في تقريره بعد ذلك باثنين وعشرين عاما » . (كلود مارتان(Claude Martin) . تاريخ الجزائر الفرنسية . ج 1 . ص 67) .

من هنا نُدرك بأن قصة المروحة اتُّخِذتْ ذريعةً ومبرِّرا من طرف فرنسا ، خاصّة وأنها لا تجهلُ تورُّطَ قُنصلها دوفال (Le Cansul Déval) في قضايا مالية ، ورشاوي متنوعة : « هذا الدبلوماسي لا يتمتع بسمعةٍ حسنة » (كلود مارتان (Claude Martin) . تاريخ الجزائر الفرنسية . ج 1 . ص 66) .

لقد كانت فرنسا قبل عام 1830 من انشط البلدان الأوروبية سعْياً لتشويه سمعة الجزائر ، باعتبار القوة البحرية الجزائرية قرْصنةً يَجب التصدّي لها وتحطيمها .. حتى أنها لجأتْ عدة مراتٍ إلى تهديد الدّاي ، ومحاصرة البلاد بحريا .. ولم تقصِّر في تأليب الرأي العام الأوروبي والمسيحي ضد الجزائر ، وعملتْ على تحريض بايات تونس ، وحثّ محمد علي باشا مصر على احتلال الجزائر .

إذن ، فالتفكير والتخطيط للغزو قديم « منذ بداية القرن الثامن عشر ، ومشروع الاحتلال أعِدّ حسب خطط متدرِّجة ، ولم تسمح الظروف بتنفيذها إلا عام 1830 ، غير أن المسؤولين الفرنسيين لم يعلنوا في تصريحاتهم عن النوايا الحقيقية لاحتلال البلاد أو التوغل فيها ، مخافة

أن يؤلبوا ضدهم الدول الأوروبية الأخرى المنافسة لها ، أو التي لها مصالح في المنطقة ، وتخوُّفاً من عواقب التوغّل في أرض مجهولة لديهم من ناحية ، ومعروفة من ناحية أخرى بمقاومتها منذ العصور القديمة ، بحُكم تعرُّضِها لهجَاتٍ وحَملات كثيرة من دول أجنبية ، وقد يتمُّ احتلال بعض المدن الساحلية ، إلا أن الاحتلال الكامل لا يتمُّ ، والمقاومةُ الداخلية تُفسِدُ دائماً مخططات الغزاة .

لهذا كان التردّدُ والغموض واضطراب الرأي السِّمة المميّزة للسياسة الفرنسية منذ نزول قواتِها في سيدي فرج حتى 22 يوليو 1834 . فخلال عام 1833 كلِّفتْ لجنة فرنسية « بالإجابة عن الأسئلة التالية » :

1) هل يجبُ الاحتفاظ بالأراضي المحتلة ؟

2) إذا كان الاحتلال مفيدا ، فما هو النظام الذي ينبغي اعتماده ؟

3) هل يجب الاقتصار على إخضاع الأهالي ؟

4) هل يجبُ تدعيم الاحتلال بالاستعمار ؟

5) ما هو أكثر النظم الإدارية ملاءمة ؟

6) ما هي الحالة العامة في هذه البلاد من جميع النواحي ؟ »

(إسماعيل العربي . المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر . ص 79)

وبالتأملِ في التقرير الذي أعدّتْه اللجنة العليا الّتي أنشئت بمرسوم ملكي في 12 ديسمبر 1833 يبدو أن اللجنة استعملتْ كلمة « مؤقتا » في قضية الاحتلال العسكري بإيرادها الفقرة التالية : « 2 ـ لكي تحتفظ فرنسا بحقّها في السيادة على جميع الأراضي الجزائرية ، من الملائم أن تقتصر مؤقتاً على الاحتلال العسكري لمدينتي الجزائر وعنابة اللتين تقام تحصينات للدفاع عنها ، وكذلك مدينة بجاية ، ومدينة وهران » (المرجع السابق ص 80) .

إذ أنه بالرغم مما يبدو من تردّد ، فإن كلمة « مؤقتا » تدلّ على أن نية « مؤبداً » واردة في الذهن الفرنسي .

نعم ، هناك تردُّدٌ كان الفرنسيون يتخبطون فيه ، سواء على مستوى الحكومة ، أو مستوى البرلمان ، وخاصة بعد التّحقيقات التي قامتْ بها اللجان الموفدة ، فقدْ كتبتْ إحدى اللجان في تقريرها : « كنا نعتقد أنّنا جئنا إلى هؤلاء البرْبَر بمحاسِنِ المدنية ، والحال أنّه ظهر على أيدينا ما يُشين » « إن مبادىء الاحتلال الفرنسيّ بالجزائر كانتْ مرتكزة على ما يخالف العقل ، ويُناقض القانون ، ويُهاجم حقوق الانسانية » .
(من تقرير اللجنة التي زارت الجزائر يوم 7 جوليت 1833) كما ندّد وشهّر بعض النواب الفرنسيين في برلمانهم بالوحشية التي ارتكبها الجيش الفرنسيّ ، ومنهم النائب دوصاد الذي قال : « هدّمنا بعاصمة الجزائر تسعمائة دار من غير مخابرة أهلِها وإعلامِهم ، ومن غير دفع تعويض لهم على ذلك ، واستحوذنا على ستّين مسجدا جامعا ، استعملناها كلها لحركة جيش الاحتلال الفرنسي ، وهدمنا منها عشرة ، يعني في تلك السنة ، أما بعد ذلك فلا تسأل !. وانتهكْنا حرمة المقابر بنبشها ، وبعْثرتها » كما صرّح قايطان دولار وشفوكولد في نفس البرلمان : « كانت مدينةُ وهران متاسكة العمارة ، بها بنايات وقصور عظيمة ، فلمّا احتلّها الفرنسيون أصبحتْ خراباً بلقعا بسبب أعمالهم الوحشية التي فاقتْ خراب الزلزال الهائل الذي أعقبه جلاء الإسبان عنها » « إن الفرنسيين أحرقوا بوهران من شجر الزيتون عددا وافرا بلغ مآت الآلاف من الأشجار عَدا غيرها » .

*

المرحلة الأولى

الأمـيـر
عبد القادر

الأمير عبد القادر

بعد سقوط الجزائر ، عاصمة البلاد في أيدي الجيش الفرنسي خُيِّل للدولة الفرنسية أن بقيةَ المدن الجزائرية ستسقُط كأوراقِ الخريف بمجرّد أن تهُبَّ عليها رياح الموسم ، إلا أن المقاومة التي أبداها سكّان متيجة جعلتْها تراجع حساباتها ، فلجأتْ إلى المراوغةِ والتظاهر بأنها لا تريد من وراء غَزْوِهَا العسكريِّ التأديبي احتلال البلاد أو التمرْكُزَ فيها ، ودعَّمَتْ تظاهرها هذا بعرض الإقليمين القسنطيني والوهراني على باي تونس ، وأجْرت اتصالات به ، لم تسفِرْ عن نتيجة ، لتَرَدُّد هذا من ناحية ، ولاعتراض بعضِ المسؤولين الفرنسيين على الفكرة .. وهذه المناورات والمراوغات نبَّهتْ سكّان كل من قسنطينة ووهران ، ولذلك أخذوا احتياطاتهم حتَّى لا يؤخذوا على غِرةٍ ، أو حتى لا يحدُث لهم ما حدث لسكّان العاصمة ، فاستعدُّوا للمقاومة بما يمتلكونه من روح وطنية عالية ، لم يحسب لها الفرنسيون حسابا ، حين راحوا يهاجمون مدينة قسنطينة على أمل أنّهم يقومون بنزهة ، وراحوا يغزون وهران على أساس أنها منطقة مُنْهَكَةٌ من جرَّاء تصديها للغارات الإسبانية ، ولم يدركوا بأن الروح الوطنية طاقة لا تعرف العياء ولا المَلَل ، وإنما تحتاج من حين لحين إلى التعبئة والتنظيم ، ووهران في مثل هذه الظروف في حاجة إلى زعيم يقودها ، ويُنَظم مقاومتَها ، وجدَتْ رغبتَها في شخص محيي الدين الذي اشتهر بسمعته الحسنة في قريته القيطنة القريبة من مدينة معسكر ، وفي كل إقليم وهران ، وتولَّى في مناسبات عدّة فضّ النزاعات بين القبائل ، وتوسّط لدى باي وهران في قضايا تهمُّ الرعية ،

وإن كان هو نفسه عانى من تعسُّفِ الباي التركي حسن .. أيضـا لم يَتَوان منـذ حلول الفرنسيين بمـدينـة وهران في تنظيم هجمات من وقتٍ لآخر ، وفي محـاصرة المـدينـة ، وكاد في فترةٍ مـا أن يـؤتيَ حصـارُه ثمـاره ، لـولا خذلان الخونة له !.

وبمـا أنـه الشخص الجـديـر بـالثقــة والتقــديـر ، فقــد اتّجهتْ نحـوهُ الانظارُ ، وتعلقَت بـه الآمـال ، واتفقَتْ حول صلاحِـه ومقـدرتـه ـ على تحمُّل مسؤوليـة الجهـاد ـ كلمـة العلمـاء والأعيـان ، ولـذلـك بـادر هؤلاء بـالتوجّـه إليـه يعرضون عليـه الإمـارة التي لا يستطيع رفضهـا في مثـل الظروف التي تجتـازهـا البـلاد ، غير أنّ سنّـهُ لا تسمحُ لـه بـذلـك رغمَ نشاطِه ، وهمّتِه ، ورغبته في مواصلة الجهاد ، فأشـارَ على مجموعـة العلمـاء والأعيان بابنـه عبـد القـادر الـذي يتحلّى بصفـات القـائـد ، من أهليـة وكفاءة وأخلاق .. وحظِي اقتراحه بالرضا من طرف الحـاضرين . وقَـدْ وصف هـذه الحـادثـة محمود بن حوّا المجاهري : « لمـا انقرضتِ الحكـومـة الجزائريـة من سـائر المغرب الأوسط استوْلى العـدو على مـدينـة الجـزائر ومـدينـة وهران ، وطمَحَتْ نفسُـه العـاتيــةُ إلى الاستيـلاء على السهـول والجبـال ، والفـدافـد والتـلال ، وصـار النـاس في هرج ومرج ، وحيص بيص ، قـام من وفّقهم الله الهـدايــة من رؤســاء القبــائـل وكبرائهــا ، وصناديدها وزعمائها ، فتفـاوضوا في نصب إمـام يبـايعونـه على الكتـاب والسنة ، فلم يَجِدوا لذلك المنصب الجليل إلا ذا النسب الطاهر ، والكمال الباهر ، ابن مولانا السيد محيي الدين ، فبايعوه على كتـاب الله العظيم ، وسنة نبيّه الكريم » .

وقد تّمت بيعـة عبـد القـادر أميراً ، وحـامل لواء الجهـاد ، من طرف القبائل على هذه الصيغة : « ... بايعناه على السمع والطـاعـة ، وامتثـال الأوامر ، ولو في الواحد منّـا أو في نفسـه ، وقـدّمنـا نفسـه على أنفسنـا ، وحقّه على حقوقنا » .

ما إن انتصب عبد القادر أميرا ، حتى بادر بتنظيم أمور الدولة ، فأسس مجلسا للوزراء ، ومجلسا للشورى ، وشرع في تكوين جيش وطني ، وفي إنشاء المؤسسات ، وفي وضع قوانين مستمدةٍ من الشريعة الإسلامية ، وسكّ عُملة باسمه ، وقسّم البلاد إلى ولايات ، ونصّب على رأس كل ولاية خليفة ، كما حدّد الأهداف من المقاومة ، ومن تأسيس الدولة ، وحصرها في :

1) نشرِ الأمن ، وتأديب الخونة العصاة .
2) توحيد القبائل حول مبدإ الجهاد .
3) مقاومة الفرنسيين بكل الوسائل .
4) دفع الفرنسيّين إلى الاعتراف بالجزائر كدولة ، وبعبد القادر أميرا للبلاد .

وفي رسالته الّتي وجّهها إلى القبائل يدعوها إلى مبايعته ، ويحدّد الخُطوط الرئيسية التي يعتزم الالتزام بها ، جاء فيها بعد أن استعرض القبائل التي بايعته ! « قد وافقوا (أي القبائل) بالإجماع على تعييني ، وبناء عليه انتخبوني لإدارة حكومة بلادنا ، وقدْ تعهّدوا أن يطيعوني في السّرّاء والضرّاء ، وفي الرِضا والشدّة ، وأن يُقَدّموا حياتَهم وحياةَ أبنائهم وأملاكِهم فداء للقضية المقدسة .

« ومن أجل ذلك ، إذن تولّينا هذه المسؤولية الهامة (على مضض شديد) آملين أن يكون ذلك وسيلة لتوحيد المسلمين ، ومنع الفرقة بينهم ، وتوفير الأمن العام إلى كل أهالي البلاد ، ووقف كل الأعمال غير القانونية التي يقوم بها الفوضويّون ضِد المسلمين ، وصد وطرد العدو الذي اعتدى على بلادنا يريد أن يغل أعناقنا بقيوده .

ولقبول هذه المسؤولية ، اشترطنا على كل أولئك الذين منحونا السلطات العليا ، أن عليهم دائما واجب الخضوع في كل أعمالهم إلى

نصوص وتعاليم كتاب الله ، وإلى الحكم بالعدل في مختلف مناطقهم ، طبقا لسنة النبيّ ، وأن يعاملوا القوي والضعيف ، النبيل والمحترم ، باخلاص ودون محاباة ، وقد قبلوا هذا الشرط .. إن هدفي الأساسي هو الإصلاح وفعلُ الخير ما دمتُ حيا ، إن ثقتي في الله ، ومنه أرجو الجزاء والنجاح » (شارل هنري تشوشل . حياة الأمير عبد القادر . ترجمة د . أبو القاسم سعد الله . ص 60) .

وقد تمكّن فعلاً من نشر الأمن في ربوع البلاد بمعاقبة المجرمين والعُصاة ، وتكوين محاكم قضائية ، وقام بتأديب الخونة الذين تعاونوا مع الجيش الفرنسي ، واستطاع توحيد القبائل المشتتة ، واعتنى بصفة خاصة بالخروج من دائرة التطوع الفوضوي ، إلى دائرة التجنيد المنظم ، وهي عملية ليستْ بالبسيطة في ذلك العهد ، كما تحدّث عنها شارل هنري تشرشل حين قال : « وكانتْ قواتُ عبد القادر غير النظامية ، خلال الفترة الأولى من عمله ، قد بلغتْ حوالي 60000 جندي ، وكان هذا العدد يشمل جميع الوحدات التي كانت القبائل تُمِدُّهُ في حالة الطواريء ، ولكن من النادر أن اجتمع ثلث ذلك العدد في وقت واحد بغرض القيام بحمْلة عسكرية ، أما الفرسان غيرُ النظاميين الأكثر تفوقاً ، فلم يتوفّرُوا لديه .

ولكن عبد القادر سرعان ما اكتشف عدم كفاءة هؤلاء المحاربين ، أمام جيش منضبط لدولة عسكرية كبرى ، كان عليه أن يواجهها ، وتجنيد جيش نظامي من بين شعب لم يعرف التجنيد الإجباري حتى أيام الحكم التركي ، شعب تثور طبيعته حتى من مجرّد فكرة التجنيد الإجباري ، هو تجربة خطيرة تحتاج إلى حنكة ، وحذر كبير ، وإن خُطةً من هذا النوع لا يُمكن إعلانُها في شكل أمر صريح ، ولكن فقط في شكل اقتراح وتلميح » (شارل هنري تشرشل ، حياة الأمير عبد القادر . ترجمة د . أبو القاسم سعد الله ص 140) .

وبذلك يعتبر الأمير عبد القادر أول من كوّن جيشا وطنيًّا منظّما وموحّدا ، بناه من العدم ، وهيّأ له الوسائل ، وأنشأ له مصانع تنتج الأسلحة الملائمة ، مستعينا بخبرة الإسبانيين والفرنسيين وغيرهم ، واختار لهذه المصانع المواقع الاستراتيجية الحصينة ، كاختياره لمليانة التي بنى بإحدى ضواحيها مصنعاً هاما لصنع الأسلحة والذخيرة الحربية نظرا لما تتمّع به هذه المدينة وضواحيها من موقع حصين ، ومن توفّر المناجم المعدنية بها ، بالإضافة إلى صلابة سكّانها ، وبلائهم في الجهاد ، والدفاع عن الوطن .. وإلى جانب هذا اهتمّ بتعليم الصغار ، وتوجيه الكبار عن طريق دروس الوعظ والإرشاد ، بإنشاء المدارس المتنقّلة ، والمكتبات ، والمساجد ، والمستشفيات .

وقد امتاز الأمير بكونه الشخص الدءوب الذي لا يضيع فرصة أو مناسبة . كان يستغل الاتفاقيات التي يَعْقدها مع الفرنسيين في دعم الاستعْدادِ العسكري ، والتنظيم الإداري ، وبناء الدولة ، على أسس وطنية ، تختلف عن الإدارة العثمانية ، كما وصف ذلك شارل هنري تشرشل في كتابه السابق ص 23 بقوله : « ولعل النظام الإداري التصاعدي الذي سنّه ضاربا صفحاً عن النظام الاداري العثماني الذي كان قبله ، يكشف عن تفهُّمه لحاجة قومه لنظام يكفُل لهم الارتقاء من عهد الإقطاع والقبيلة ، إلى عهد التعايش الاجتماعي ، والالتزام نحو بعضهم ونحو الدولة » .

وتمتاز مقاومة الأمير عبد القادر بمفهومها الواسع ، وأبعادها المستقبلية ، لأنها لم تقتصر على تعبئة المواطنين لردّ العدوان ، أو للقيام بمناوشات هنا وهناك ضد العدو ، بل وسّع مجالات المقاومة ، واعتبر كل مجال جزءا من المقاومة ، وحلقة أساسية فيها ، ومن هذه المجالات : الإدارة . الثقافة . التكوين العقائدي والعسكري ، الصحة . الاقتصاد .

الخ .. وبذلك عرفت الجزائر في شخصه مقاوما عنيدا ، ومحاربا شهما ، ودبلوماسيا محنكا ، ومثقفا غزير المعارف ، ومُنظِّما بارعا .

ومن الصعب التطرق إلى كل جوانب العظمة لدى الأمير . وإنما نكتفي هنا بالجانب الذي اشتهر به ، وبرز فيه ، وهو جانب الجهاد الذي أبلى فيه البلاء الحسن ، لأن الجزائريين لم يبايعوه لانتسابه إلى أسرة معروفة ، أو لثقافته الواسعة ، أو من أجل أن يُكوّن دولة ، وينظم إدارة ، وينشيء جيشا ، بقدر ما اختاروه وبايعوه من أجل الجهاد .. ومقدرته في ميدان الجهاد .. المقاومةُ هي التي تدعّمُ مركزهُ لدى الجماهير ، وعجزه في القيام بها يُضعف جانبه ، وقد شعر الأمير بهذا ، فلم يتأخر ـ وهو يبني الدولة ، وينظم الإدارة ـ في القيام بالهجمات ضد الفرنسيين ، ومواجهتهم بين الحين والآخر ، وإن كان غير واثق من جيشه الذي يتكوّن من فلاحين متطوعين ، يستجيبون لنداء الجهاد في وقت الخطر ، وينصرفون لأشغالهم بانتهاء المعركة .

ومن أهمّ الميزات الخاصة بالأمير عبد القادر ، أنه المقاوم الوحيد منذ الاحتلال حتى عام 1954 الذي ربط الجهاد ، وتحرير الأرض بمبدأين ضَحّى في سبيلهما حتى النهاية وهما :

- وحدة التراب الوطني
- السيادة الوطنية الجزائرية .

في حين لم يتجاوز غيره من رجال المقاومة حدود القبيلة ، والمنطقة ، ولهذا الغرض استخدم كل الوسائل ، واستعان بكل الإمكانات التي أتيحتْ له في تلك الظروف ، فتفاوض مع العدو ، ووقّع المعاهدات التي مكّنتْه من استعادة الأنفاس ، وتنظيم الجيش ، وترسيخ المقاومة ، ولاَحَق الخونة ، واستفتى العلماء ، ونبّه الرأي العامّ العالمي ، وهكذا أيضا استفاد من المعاهدة التي وقّعها مع ديميشال وملك فرنسا ، والتي

اعتبِرت اعترافا رسميًّا بـه جرَّ إلى اعتراف السلطـان المغربي عبـد الرحمن بن هشام به أيضا ، إلاَّ أن هـذه المعـاهـدة كانتْ محلَّ نقـاش لـدى عـدة أطراف في الأوساط الحاكمة الفرنسية ، وخاصـة لـدى البرلمـان ، وضبـاط الجيش ، حيث كان البعض منهم لا ينظر إلى المعاهـدة بعين الارتيـاح ، ويناور في الكواليس ، والمحـافل ، في نطـاق التحـول الجـديـد في الرأي العام الفرنسي الذي بدأتْ رغبتُه تنزع نحو التوسع ، وهذا يقتضي التشدُّد مع الأمير ، والتعابُث بفحوى البنودِ الواردةِ في المعـاهـدة ، والتشكُّكَ في رسمية التوقيعات .. ومن الذين نشطوا ضد المعاهدة ، وأبـدوْا معـارضتهم لهـا الجنرال تريزل الـذي كان يتحين الفرص ، ويتتبع تحركات الأمير .. وحين تصدى الأمير لموسى بن الحسين (أبي حمـار) الـذي هـاجم مـدينـة المدية ، واستولى عليها ، مـدعيـا بـأنـه « المهـدي » ، وبـأن رصاص أي محارب ضدّه لا يؤثِّر فيه ، ولا في أتباعه ، هاجمه الأمير ، وحرّر مـدينـة المدية من شروره ، ثارت ثائرة تريزل ، واعتبر ذلك خرْقـا للمعـاهـدة ، وحاول دفع الوالي العام إلى اتِّخاذ موقف عسكري يعلن فيـه الحرب على الأمير ، ولمَّا لم يجدْ تجاوبـا من الوالي انقلب ضـده يتحـدّاه في الكثير من المناسبات ، ويُقرِّر بنفسه ما ارتـآه ، معتمـدا في ذلـك على توصيـة لجنـة التحقيق التي تدعو إلى الاحتلال الدائم .

في مثل هذه الظروف ، وفي هذا الجوّ من التوتُّر الـذي سـاهم تريزل كثيرا في إيجاده ، قرّر هذا مهاجمة الأمير ، معتقدا بـأن عبـد القـادر قـد أنهكه التصدي لخيانات بعض العشائر والزعمـاء .. اختـار تريزل منطقـة سيق كمكان لمواجهة الأمير ، وهي منطقـة يعرفهـا الأميرُ وجُنـده معرفـة جيـدة ، وهـذا مـا دفعـه إلى ترك تريزل يتنقل بجيـوشـه حيث شـاء ، مكتفيا بمراقبة التحركات ، وفي الوقتِ نفسه كان يُعِـدُّ تكتيكا لاصطيـاد تريـزل وتطـويقـه ، وفعـلا ، ذلـك مــا حصـل ، حين وصلَتْ جيـوش

تريزل إلى الحميان ، ومُسْتَنقعاتِ المقطع ، والتي سماها الفرنسيون فيما بعد « مأساة المقطع » لِمَا لحِق جيش تريزل من هزيمة ثقيلة ، قضتْ على رُبع الجيش ، وعلى سُمْعة تريزل ، وزادتْ من سمعة وشهرة الأمير .

كانت نتائج هذه المعركة باهرة ، لأنها :

1 ـ لقّنت الجنرال تريزل درسا لا ينساه ، عبَّر عنه في رسالته إلى الوالي العام ، جاء فيها : « لقد أضعتُ هذه المعركة المُهلِكة ، وأضَعتُ آمالا كانتْ تبدو لي معقولة ، ولكنّه كان من الضروري الحصول على النّصر لكي تتحقَّق ، ليس من شَكٍّ في أنّي بالغتُ في تقديرِ قوّتي ، كما بالغْتُ في عدم تقديرِ قوةِ العرب ، ومهما يكُن من شيء ، فإنّي أرزح تحتَ ثِقل المسؤولية التي أقدمْتُ على تحمُّلها ، وأنا على استعداد لأنْ أتقبلَ اللوم دون أن أنبس ببنت شفة ، وكذلك كل إجْراءٍ صارم ترى حكومة الملك أن من الضروري اتخاذه في حقّي » .

(اسماعيل العربي . المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر . ص 99) .

أما في رسالته الثانية إلى وزير الحربية ، فإنه يرغبُ في إعفائه من مسؤولية القيادة حين كتب : « إن هذا الفشل يجْعَلني أرغبُ في عدم الاحتفاظ بالقيادة التي أسْنِدَتْ إليَّ ، وإنه لَمِن واجبي أن أتحمَّل كلَّ المسؤوليةِ وحْدِي في العملية التي قُمْتُ بها ، بدون أمرٍ من الوالي العام ، ولكنَّ الحملة التي قُمْتُ بها ، فرضتْها علي الظروف ، والآمال التي عقدْتُها عليها لا تزال تبدو لي معقولة ، وسواء كان الأمر راجعاً إلى غلطةٍ في التقدير ، أو إلى الحظ العاثر ، فإنَّ العملية قد انتهت بالفشل » (إسماعيل العربي . المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر . ص 99) .

2 ـ أن المعركـة حـدثتْ بعـد استفـزازات متكرّرة ، وتحـديـات متعدِّدة ، من طرف الجنرال تريزل ، إلى درجة خَرْقِه معاهدة ديميشال ، بحمايته لقبيلتي الـدوائر والزمـالـة ، رغم معـارضـة الوالي العـام وتحْـذيره بضرورة تجنب « كلمـا يمكن أن يُعكّر صفْـو السـلام » ورغمَ أن الأمير حذّره أيضا من مغبّة ذلك ، وأكّد له بأنّـه لا يرغبُ إلا في السلام ، غير أن عنجهيـة تريزل جعلتْـه يعتقـد بـأن الأمير في مـوقِف ضعف ، فراحَ يُملي شروطه كجنرال على الأمير بأن يعترف هـذا بـالسيـادة الفرنسيـة ، وأن يدفع ضريبة سنويـة .. وأدّى الغرور بـالجنرال إلى محـاولـة القضـاء على الأمير وجيشـه ، وكان ذلـك سببـا في حـدوث معركـة المقطـع عـام 1835 .

3 ـ معركة المقطع أفْسدَتْ أيضاً على الوالي العام خطته التي أعدَّها ، فقد كان يستعدُّ لفتحِ مفاوضات مع الأمير عبـد القـادر من موقف قوة ، لأنه وجّه رسالـة للجنرال تريزل جـاء فيهـا : « كم يؤلمني أن أعرف أنـك قمتَ بحركة هجومية ، بعد أن أوصيتُك مرارا وتكرارا ، بـأن تتجنَّب كلّ مـا من شـأنـه أن يعكِّر صفو السـلام ، وأنـا لا أفهَمُ كيف تسرَّعْتَ بهذا الشكل ، واغتنمت أول فرصة للتـدخُّل بـالسِّلاح ، وأمَّـا عروض مصطفى والكلوغليين فقد تكون ذات فائدة في حالة ما إذا واجهنا ضرورة قصوى لقطع العلاقات مع عبد القادر ، ولكِنِّي سأنتظر نتيجة المفـاوضـات التي سيُجْريها الكوماندان لاموريسيار بـالنيـابـة عنِّي مع الأمير ، وسيحـاول هـذا الضـابـط الحصول على تنـازلـه على القبـائـل الّتِي تُقيم في ضـواحي وهران ، ولكنّـه إذا وقـع مـا لا أنتظره ، وأصبحَتْ كلُّ محـاولـةٍ للصلـح مستحيلة ، فإنِّي أفضِّلُ أن تقوم بهجوم خاطف على العدو ، وتضطره إلى الـدخـول في ترتيبـات معنـا ، بـدلاً مِنْ أن تعسْكِرَ في مكان بعيـد عن وهران ، حيث يُمكن أن تتعرض مـواصـلاتُـك لـلانقطـاع » (إسماعيـل العربي . المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر . ص 96) .

4 ـ انهيار معنويات الجيش الفرنسيّ التي عبّر عنها لاموريسيار بقوله : « عاينْتُ حالة الجيش عن كثب ، إنها حالة مؤلمة للغاية ، فإن الروح المعنوية قد هبطتْ إلى أقْصَى درجة ممكنة ، وأما حالة الذعر الذي استولى عليه ، فهي أشدُّ من الحالة التي عرفها الجيش عقِب انسحابه من المدية ، وكذلك كانت الخسائر أفدح » .

كما وصف كاميل روس نهاية المعركة بقوله : « لم يبق منه شيء يُشبه جيشا منظما ، فإن الجنود والضباط يتصرفون وكأنّهم أصيبوا بجُنون ، فهُمْ يتبادلون جُملاً متقطِّعةً غير مفهومة ، هيَ أقربُ إلى الهذيان منها إلى الكلام ، وقد كان بعضُهم يغنُّون ويرقصُون في حالة عُري كما ولدتْهُم أمّهاتُهم ، بعدما رموا بأكياس زادهم ، وتخلَّوا عن ثيابهم ، ولمّا وصلوا إلى مدخل المضيق ، ولم يَلُحْ لهم المقطع ولا البحر الذي كانتْ تحجبه عن أعْينهم التِّلال الرملية ، توهَّمُوا أنّهم قد دخلوا في مضيق لا مخرج منه ، فاستوْلى عليهم الرعب ، وهكذا راحوا يُلقون بأنفسهم في المُسْتَنقعات مُخاطرين بأنفسهم بالغَرَق ، وأما الجنرال تريزل ورئيس أركان حربه ، فقدْ أعياهُم المجهودُ المضاعف لتسكين أنفسِ الجنود ، وحمْلِهم على البقاء في قارعة الطريق » .

لذا ، تعتبر معركة المقطع ذاتَ أهمية تاريخية ووطنية ، زادت من سمعة الأمير ، وقوّتْ نفوذه ، وأضعفَتْ من سمعة الجيش الفرنسي الذي تأثرتْ فرنسا كلُّها بهزيمته .. وهو ما دفعها لإعادة تعيين الماريشال كلوزال واليا عاما على الجزائر فيما بعد ، لِمَا لهذا الماريشال من حماس للاحتلال الكامل ، والاستيلاء الشامل ، خاصة وأنه اتَّصل بالجزائر في السابق كقائد جيش ، واستولَى على حَوْشٍ بالحراش حوَّلَه إلى مزرعة نَمُوذجية تُغري القادمين من فرنسا على الاستيطان والتعمير .

بعد تعيين الماريشال كلوزال ، اختار الأمير وسيلتين من وسائل المقاومة : وسيلة الحصار الاقتصادي الذي ضربه حول مدينة وهران ،

ومنطقة الجزائر . ووسيلة فتح علاقات عالمية ، بمحاولاته التأثير في أنجلترا ، ودفعها إلى التحرك ، ومنافسة فرنسا في المنطقة ، أو إلى تزويده على الأقل بما يحتاجه من ذخيرة وعتاد ، وفي الوقت نفسه كان يقوم بتحصين مدينة معسكر عاصمة المقاومة ، اعتقاداً منه أن الفرنسيين لا ينسوْن هزيمة المقطع ، ومن الممكن جدّا أن يقوموا بهجْمةٍ على عاصمة المقاومة ، وفعلا ، بدأتْ تحرُّكات الجيش الفرنسيّ المريبة التي تصدّى لها الأمير بحدَّة في بعض الأحيان ، وأبدى من حضور البديهة ، ومن الشجاعة ، ما جعل الدوق دورليان يعترف ويصف إحدى المناوشات : «كَانَ أثرُ هذه المرحلة هائلا ، خصوصا حول الأمير الذي سقط أمامَه كاتبُه وحاملُ علَمِه ، أمّا هو ، فقد كان يزهو فخورا بأن يرى نفسه هدَفاً لجميع القذائف ، وكذلك كان يروح ويغدو على فرسه الأسود الذي كان يسير بخطًى وئيدة غير معجّلة ، متحديا براعة الطوبجية الذين لم يَمْلِكُوا أنفسهم ، ولم يستطيعوا منعها من الإعجاب بشجاعته »» (إسماعيل العربي . المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر . ص 112) .. وهذا كلوزيل يصفُ فدائية المقاومين في رسالة له إلى وزير الحربية ، قال فيها : « استمرّت المعركة خمس ساعات ، أبْدى العربُ خلالها ضروبا من الشجاعة والإقدام ، بحيث أنهمْ كانوا يتقدمون إلى مدفعيتنا في تصميم وثبات ، بل واقتربوا من المدافع ، إلى حدٍّ أصبح معه من غير الممكن استعمال المدفعية ، واضطر المدفعيون إلى رمْي القذائف بأيديهم » (إسماعيل العربي . المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر . ص 113) .

غير أن هذه المناوشات التي لم تَمِلْ كفّتها في غالب الأحيان لصالح الأمير جعل بعض رؤساء القبائل الضعاف نفْسِيا ، يتذبذبون في مواقِفهم ، بل تحوَّل بعضُهم إلى المعسكر الفرنسيّ ، مثل ابن المخفي . المزاري . الغماري . مصطفى بن إسماعيل .

لم تحُل هذه المناوشات ، ولا الخطط الاستراتيجية التي اختطها الأمير ، دون احتلال معسكر التي وجدها كلوزيل حين دخوله إليها « أشبه ما تكون بشبح مدينة » لأن الأمير أمر بإجلاء السُكّان عنها قبل ذلك .

وقد أثَّر احتلال مدينة معسكر في نفسية الأمير تأثيراً كبيرا ، كما تأثّر بتخاذل بعض العناصر من ناحية ، وتهافتِ البعض الآخر على السلب والنهْب ، إلى درجة أنّه صارح رجاله ، وطالبهم بإعفائه من القيادة ، إلا أنّهم رفضوا وألحُّوا عليه ، والتمسوا منه العدول عن هذا الطلب ، فعاد من جديد إلى التنظيم ، وإلى مهاجمة الجيش الفرنسي ، وإلى محاصرة المدن التي يوجد فيها هذا الجيش ، وشارك في معارك وادي سكّاك ، وأبدى فيها أيضا من البسالة ما اضطر الجنرال بيجو لأن يوجه رسالة للأمير ، جاء فيها : « أستطيع أن أعرض عليك السلام بصراحة نبيلة ، لأنني أحسُّ في نفسي بقوة تامة ، بتكوين جيشي ، وبنشاطي وحيويّتي الشخصية .. إذا كنتَ تنصتُ إلى صوت الإنسانية والحكمة فابعثْ إليّ برجال تثق بهم ، ليحملوا إليَّ مقترحاتك ، لِكَيْ أحوّلها إلى ملك الفرنسيين » .

وعلى إثر هذه الرسالة ، وقعتْ معاهدة تافنا بين الجنرال بيجو ، والأمير عبد القادر ، وقد كان هذا في حاجة إلى فترة يستردُّ فيها الأنفاس ، ويعيد التنظيمَ ، والتمويل ، فماذا كسب الأمير من هذه المعاهدة ؟ كتب الدكتور إسماعيل العربي في كتابه الذي أشرنا إليه مرارا : « في المكان الأول من الأهمية كسب الأمير فترة من السلام والهدوء هو في أشد الحاجة إليْها لتدعيم مركزه السياسي في الداخل ، ولبناء إدارة على أسس حديثة ، ولتنظيم جيشه وتدريبه ، ولكن المعاهدة تضمن للأمير إلى جانب ذلك فوائد جمّة ، ولا سيا فيا يتعلّق

بتوسيع مملكته ، بحيث أصبحَت تشمل إلى جانب ولاية وهران (فيما عدا مدينة وهران وأرزيو ومستغانم ومسرغان وضواحي هذه المدن) ولاية تِيتْري ، وولاية الجزائر نفسها (فيما عدا العاصمة وسهول متيجة التي يحدُّها من الشرق وادي الخضراء ، وادي بودواو ، ومن الجنوب الأطلس الصغير مع البليدة وأراضيها حتى كوع مزفران ، ومن ثَمَّ ، خط مستقيم يمتد حتى البحر) وبعبارة أخرى ، فإن المعاهدة لم تتركْ لفرنسا سوى الساحل متيجة والبليدة (التي تنازل عنها الأمير في اللحظة الأخيرة تحت التهديد بوقف المفاوضات) .

وإذا كانت للأمير مكاسب ، فإن لفرنسا أيضا مكاسب .. ولكن هل احْتَرم الفرنسيُّون معاهدة تافنا ؟.. المعروف أنه بعد فترة هدوء ،خرق الفرنسيون المعاهدة ، واجتمع مجلس حرب الأمير بعد خرق الفرنسيين للمعاهدة .. قرر هذا المجلس ـ بإجماع ـ الردّ على الاعتداء ، وأصدر بيانا : « إن الفرنسيين المعتدين على البلاد الإسلامية بعدما عاهدناهم وسالمناهم ، نكثوا وجالوا في بلادنا وعاثوا ، ومن نكَث فإنما ينكث على نفْسه ، ومن المعلوم أن التّهاون في مثل هذا الأمر ، والإغضاء عنه يزيدهم طغيانا واعتداءاً علينا ، فلذلك اجتمعنا في مجلس عَالٍ بحضور سيدنا المعظم ، ومولانا المفخّم ، ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين ـ نصره الله ـ لأجل المذاكرة في هذا الأمر المهمّ ، والخطب المُلِمِّ ، فوفّقنا الحق تعالى ـ جل جلاله ـ للجواب ، وألهمنا جادة الصواب ، واتفقَتْ كلمتُنا على إعلان الجهاد ، والقيام بواجبه على أكمل استعداد ، وقد بايعنا حضرة أميرنا على الوفاء بواجبات الجهاد الشرعية ، وعقدْنا على الصدق في ذلك النية ، حرّرنا هذا الصكّ ليكون شاهدا علينا فيما ذكرناه ، ومن الله نستمدُّ العناية ، وهو ولي الهداية » (إسماعيل العربي . المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر . ص 192).فاستؤنفت المقاومة ، وامتدّتْ إلى عدةِ جهاتٍ ، كما انتقلتْ بين عدة مناطق

واستعمل الأمير خلالها الحرب النظامية ، وحرب العصابات ، إلى حين وقعتِ المواجهة في معركة حامية بسيدي إبراهيم التي أبلتْ فيها المقاومة بلاء حسنا ، والتي جُرِح فيها كثير من الضباط الفرنسيين ، وتعتبر هذه المعركة من أهمِّ المعارك التي خاضها الأمير في آخر عهده .. إذ بعدها بدأتْ نهاية الأمير كمقاوم صلب شهم شجاع ، طوال 17 عاما .. وجد نفسه في الأخير في مواجهة جيش منظم ، معبإ تعبئة كاملة ، يسعى لاحتلال الوطن احتلالا كاملا .. ووجد نفسه أيضا أمام خيانات ، لم يستطع التغلب عليها في كل الأوقات ، وأمام تدهور الوضع العام الذي أدّى إلى استسلام شقيقيه مصطفى وسعيد ، والخليفة بن سالم ، وقتل خليفته الشجاع البو حميدي بالمغرب مسموما .. والذي حزَّ في نفسه كثيرا ، وقضى على معنوياته ، هو تصرُّف السلطان المغربي الذي لم يقبلْ لجوء الأمير إلى المغرب ..

بعد أن سدّت جميعُ الأبواب في وجْهه ، جمع مساعديه ، واستشارهم . وفي الختام قال لهم : « لا أرى إلا التسليم لقضاء الله والرضا به ، ولقدْ أجهدْتُ نفسي في الذبّ عن الدين والبلاد ، وبذلْتُ وسعي في طلب راحة الحاضر منها والباد ، وذلك مِنْ حين اهتزّ غُصْنُ شبابي ، وافْترّ عن شباة الهند نابي ، وأقمْتُ على ذلك ما يُنيفُ على سبع عشرة سنة أقتحِم المهالك ، وأملأ بالجيوش الجرارةِ الفجاج والمسالك ، أستحقِر العدوّ على كثرته ، وأستسهل استصْعابه ، وأتوغّل غير خائفٍ أوديته وشِعابه ، وأرتِّب له في طريقه الرصائد ، وأنصب له فيها المكائد والمصائد ، وتارة أنقضُّ عليه انقضاض الجارح ، وأخرى أنصَبُّ عليه انصباب الطير إلى المسارح ، وكثيرا ما كنتُ أبيّتُه فأفنيه ، وأصحبه فأبرد غليلي منه وأشفيه ، ولا زلْتُ في أيامي كلِّها أرى المنية ولا الدنية ، وأُشَمِّرُ على أقوى ساعدٍ وبنان ، وأقضِي حق الجهاد بالمهنّد والسّنان ، إلى أن فقدْتُ المُعاضدَ والمساعد ، وفنيَ الطارف والتالد ، ودبّتْ إليَّ من بني ديني

الأفـاعي ، واشتملتْ عليّ المســاعي ، والآن بلـغ السيـل الـزُّبى ، والحـزام الطيِّبين ، فسبحـان من لا يكيـده كائـد ، ولا يبيـد ملكـه ، وكل شيء بائد » .

بهذه الصفحـة الحـزينـة انتهت مقـاومـة الأمير ، واستمرَّت مقـاومـة الشعب الجزائري !.



أحمـد بـاي

أحـمـد بـاي

أحمد باي .. من أبطـال الجزائر المهضومين . الـذين ظلمهم المؤرخون الاستعماريون ، وتجنّى عليهم الحاقدون بـالتشويـه والتزوير والإهمـال .. ومن حسن الحـظ أن المؤرخين الشبـان المعـاصرين تنبهـوا للحيف الـذي لحق بهذا البطل العظيم ، فأنصفوه ، وهم لا يتأخرون في كل مناسبة عن تقديم مآثر هذا الرجل العظيم الـذي عرفتـه البلاد قبل عـام 1830 بـايـا إداريا عاديا ، ثم تعرّفتْ عليه بعـد هـذا التـاريخ مقـاومـا شهما ، صلبـا عنيدا ، ضحّى بالمنصب المغري ، وبـالثروة الطـائلـة ، وتخلّى عن حيـاة الترف ، مدافعـا عن المبـاديء التي آمن بهـا ، وعن الوطن الـذي أحبـه ، وأخلص له حتى آخر ساعة من حياته .

كتب الدكتور العربي الزبيري عن أحمد باي ما يلي : « يعتبر الحـاج أحمد باي قسنطينة الأخير من ألْمَع وجوه المقاومة في الجزائر ، ومن أكبر قادتنا الـذين دوّخوا فرنسـا ، والـذين يجب أن نفتخر بهم ، لقـد اعترف له كثير من الجنرالات بالدهـاء العسكري ، وحـاول المـاريشـال فـالي أن يتّفِقَ معه ، اقتناعا منه بأنَّ الرجل أهل للقيـادة ، ولا يمكن أن يستسلم بسهولة » (محمد العربي الزبيري . مذكرات أحمد باي . ص 5) .

ومن الشهادات المعتبرة تلـك التي كتبهـا الـدوق دوروفيڤو (Duc de Rovigo) إلى وزير الحربية الفرنسية بتاريخ 12 ديسمبر 1832 متحـدثـاً عن الحاج أحمد باي : « إن هذا الباي ليس كما أوحيّ إلي عندمـا قـدمتُ

إلى الجزائر ، من أنـه شخص لا قيمـة لـه ، بل هو على العكس من ذلـك يُعَدُّ صـاحب الولايـة الأكثر نفوذا وقوة بهـا » (نقلا عن مجلـة « تـاريخ وحضارة المغرب » العدد 9 . ص 10) .

نعم يختلف أحمد باي عن غيره من بـايـات عهـده بروحـه ومشـاعره الوطنية الفياضة التي جعلتـه لا يتردد في التضحيـة بمنصبـه كبـاي ، ولا يبخل بوضع ثروته الطائلة تحت تصرف المقـاومـة ، ولا يفكر كغيره من البايات الذين ركزوا اهتمامهم على مناصبهم كبايـات ، حتى أنهم سـاوموا الفرنسيين ، بقصـد أن يتركـوهم في منـاصبهم تحت السيـادة الفرنسيـة ، وحين لم تتحقق رغبـاتهم تخلَّوا عن المقـاومـة ، وغـادروا البلاد بعـائـلاتهم وثرواتهم ، وانقطعت صِلاتهم تماما بـالجزائر .. أمـا أحمـد بـاي فقـد بقي صامدا .. مقاوما .. حتى الاستشهاد .

لقد عاش أحمد باي المأسـاة في سيـدي فرج 1830 ، وشـاهـد بنفسـه سقوط العاصمة ، وانهيار الجيش ، واستسلام الداي ـ فتـألّم ـ وعـاهـد الله والنفس على أن لا يضـع السـلاح ، وعـاد بمن بقي معـه من جيشــه إلى عاصمة إقليمه قسنطينة .. وقبل الوصول إليها أدركـه رسولٌ بعثَـه القـائـد الفرنسي ليُقدِّم له العرض الفرنسي بأن الدولة الفرنسية توافق على بقـائـه بايا في إقليمـه القسنطيني كما كان ، مع المحـافظـة على حقوقـه وامتيـازاتـه السابقة مقابل الاعتراف بالسيادة الفرنسية .. وتَـأْبَى شهـامـة أحمـد بـاي قبولَ العرض المُغْرِي في تلك الظروف ، وهو يعلم بأن أحـد الانتهـازيين قد استوْلى على قسنطينة ، ونصب نفسه بـايـا على إقليمها مُستغِلاً فرْصةَ وجود أحمد باي في ميدان الجهاد بالعاصمة .

والمؤرخ عندما يحلِّل شخصية هذا الرجل العظيم إنما يحلِّلها من خلال الظروف والأحداث التي تَعِيشها البلاد آنذاك .. والإغراء في ذلـك العهـد

مقياس أكيد لمعرفة وطنية وإخلاص الأشخاص .. وقد استعمله الاستعمار بكثرة طيلة فترة وجوده ، واستطاع استمالةَ بعض الذين عرفوا بوطنيتهم .. واستخدامهم لمصالحه ، وترسيخ أقْدامه .. ومن هذا المنطلق يجب الاعتراف بمكانة أحمد باي الذي تخلّى عن حياة الترف والبذخ بمجرد أن تولّى المقاومة التي أدهشت الضباط الفرنسيين ، والتي اعترفوا بها في مذكراتهم ، ولذلك قال أبو القاسم سعد الله بخصوص هذا الاعتراف : « قد اعترف له أعداؤه ومعاصروه بالحنكة السياسية ، والمواقف البطولية ، وغيرته الدينية ، وكرهه الشديد للأجانب ، وبنجاحه في كسب قلوب رعاياه ، ومهارته في تنظيم الجند ، ووضع الخطط العسكرية ، وهذه جميعا خصال تميّز الحاكم القدير » (أبو القاسم سعد الله . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر . ص 273) .

فالمقاومة هي التي أبرزت شخصية أحمد باي من جديد ، وهي التي ميزته عن بقية المسؤولين الأتراك الآخرين الذين لم يَتَجَزْأروا إلا بقدر استغلال الجزائر ، والذين تخلّوا عن الجزائر بمجرد أن انتهى الاستغلال .. ولم يكن هذا شأن أحمد باي ، فقد رفض كل العروض التي قُدّمت له ، من طرف دوبو رمون . كلوزيل . الدوق دورليان وقدْ حاول هذا التأثير في أحمد باي عن طريق حمدان خوجة الذي لم يوفق في تلْيين موقف أحمد باي ، فاتّهمه بالتعنُّتِ والتصلّب ، وطلب منه أن يكون ليّنا .

إنه بعد أن اشترك في سيدي فرج بالتّصدي للفرنسيين عاد إلى قسنطينة .. وبمجرّد وصوله ، استعاد منصبه ، بوقوف سكان قسنطينة جميعا بجانبه ضد الباي الانتهازي .. وقرّر أن يقود المقاومة ضد الاحتلال الفرنسى بروح عالية ، فنظّم أموره الإدارية ، وألّف مجلس

شورى ، وكوّن مجلساً عسكريا ، وخطّط استراتيجية لمحاربة جيوش الاحتلال في كل السواحل التابعة لإقليمه ، وتمكّن في ظرف وجيز منْ توحيد السُّكان ، والقبائل المتناحرة ، واكتسب محبَّة لم يكسبْها يوم كان بايا منصَّباً من قبل الداي ، وصاحبَ نفوذ سلطوي وإداري . وقد ساعده التفاف الجماهير حوله ، وأعطاه قوة على التنظيم ومهاجمة الفرنسيين في السواحل ، ومحاصرة جيوشهم حصارا أدى في بعض الأحيان إلى نتائج باهرة ، دلّت على مقْدرة أحمد باي على التنظيم ، ووضع الخطط الاستراتيجية .. ولذلك تضايقوا كثيرا من أحمد باي ، وتأكّدوا في الأخير بأنه لا يمكن لهم استغلال احتلالهم للمدن الساحلية إلا بمهاجمة قسنطينة ، والقضاء على أحمد باي وجيشه ، فانتظروا إلى أن حانتِ الفرصة ، وتَمَثّلت في الصلح الذي انعقَد بين الفرنسيين والأمير عبد القادر ، واعتبروه مناسبة للتوجه كليا إلى احتلال قَسنطينة .. واختير لعملية الاحتلال كلوزيل الذي كان يتحرّق لاستعادة مجده ومكانته العسكرية التي قضت عليها المقاومة المسلحة في متيجة ، والتي كانت السبب في إعفائه من مهامّه .

وكما احتقر كلوزيل مقاومة متيجة ، أيضا احتقر المقاومة بقسنطينة ، حتّى أنه صارح المحيطين به بأنّ عزْمه احتلال قسنطينة « لا يعدو أن يكون مجرد نزهة » ، وقد دعّم هذا الوهمَ فيه يوسف المملوك بما قدّمه له من معلومات خاطئة تُفيدُ بأن أحمد باي بايٌ لا يحكم ، ولا نفوذ له .. وبأن القبائل متطاحنة غير موحّدة .. وهذه المعلومات ضاعفت من غروره ، وجعله « يستدعي إلى النزهة ، (أي احتلال قسنطينة) ضيوفا ممتازين لإضفاء مظهر خاص لدُخوله إلى عاصمة الباي أحمد ، مردِّدا : « أنا غيرُ قلِقٍ من النتيجة » » (شارل أندري جوليان . تاريخ الجزائر المعاصر . ج 1 . ص 133) .

ومما قاله لجنوده بهذه المناسبة في عنابة : « أيها الجنود .. ندخل اليوم إلى قسنطينــة » .. جهّز لهــذه الحملــة 8700 شخص .. وقــد بلــغ خبر التجهيزات التي قام بها الماريشال كلوزيل أحمد باي ، فأعدّ نفسه ، ونظم جيشه . ووضع خطته العسكرية لمواجهة الحملة التي لم يَسْتَخِفّ بأمرهـا ، واعتبرها اختبارا للمقاومة .. وبفضل الخطـة التي وضعهـا . أَلْحقَ هزيمـة شنْعـاء بكلوزيل أدّتْ بـأن « فضّل عـددٌ من الجنـود الفرنسيين الانتحـار بـدلا من الاستمرار ، وتضـاعفتْ ظـاهرةُ الانتحـار بعـد وصـولهم إلى قسنطينة ،وأيضـا أثنـاء الانسحـاب ، بينمـا كانتْ مؤخّرة جيوش القوات الفرنسية لا تزال تتلقّى هجومات الفرسان القسنطينيين » (عبـد الكريم بجاجة . جريدة النصر . 16 أبريل 1983) .

ولعـلّ هـذه الهـزيمـة الثقيلـة هي التي جعلتِ الفرنسيين يفكّرون ويُصِرُّون على احتلال قسنطينة مَهْمَا كان الثمن ، مستغلين هدوء المنطقـة الغربية بعد توقيع المعاهـدة مع الأمير عبـد القـادر ، للتفرغ إلى المنطقـة الشرقية ، ولذلك أعادوا الهجوم عام 1837 أي بعد مرور عام فقط .

وفي هذه المرة أعدّ الفرنسيون جيشا ضخما مكوّنا من 11000 جنـدي ودعّمـوه بضبـاط سـامين معروفين بقـدْراتِهم القتـاليـة ، وبتجـاربهم ، وحنكتهم في الميدان العسكري أمثـال : تريزل . وولبير . لامي . هولـد دي فلـوري . كـومب . لامـوريسيـار . تحت قيـادة الجنرال دانريمـون شخصيا .. الأمر الذي فرض على أحمد باي تجنيدا أوْسع ، وإعداداً أكبر ، لمواجهة الزحف الفرنسي على قسنطينة .. لا سيا وأنّه وجد استجابة لدى القبائل : الحنانشة . الحراكتة . التلاغمة . فرجيوة . زواغـة . أولاد عبـد النور . ريغة . مجانـة . قبـائل الأوراس ، سواحل سكيكـدة ، جيجل ، القل ..

لقد بذل كل من الجانبين الجزائري والفرنسي جهدا كبيرا لتعبئة أكبر قدر من الإمكانات ، باعتبار أن المعركة حاسمة بالنسبة لكل منهما .. فالفشل والهزيمة للمرة الثانية بالنسبة للفرنسيين كارثة لا تعالج ، والفشل بالنسبة للجزائريين ، تحطيم للانتصار الأول ، وسقوط عاصمة الإقليم كارثة كبرى ..

ورغم الاستعدادات الضّخمة من كلا الجانبين عام 1837 فإن النصر كان في جانب الفرنسيين ، لأنّهم استَفادوا من الأخطاء التي وقعوا فيها في الحملة الأولى ، ولأنهم وضعوا استراتيجية جديدة تحسُّباً للاستراتيجية التي اعتمد عليها أحمد باي في الحملة الأولى عام 1836 ، ولأنهم أيضا نظموا جيشهم في هذه المرة تنظيما مُحْكَماً ، وقد ساعدتهم بعض المعلومات على التعرف على نقطة الضعف في مدينة قسنطينة ، أو من التعرف على الثَّغرة التي عن طريقها يُمكن التسلُّل إلى المدينة الحصينة .. أما الجانب الجزائري ، فلم يكن منظماً بالدقة الكافية ، رغم التعبِئة الضخمة الواسعة ، لأن أغلب قادة المقاومة ، وأكثرية المقاومين ليسوا جنودا محترفين ، وإنما هم رجال مقاومة شعبية ، كما أن أحمد باي ارتكب خطأ أساسيًّا ، باعتماده الخطة التي استعملَها في صدِّ الحملة الفرنسيَّة الأولى ، باعتبار أنها الخطة التي حققتْ له الانتصار الباهر ، لكن نسيَ بأن الفرنسيين بعد أن تعرَّفوا عليها في الماضي سيستعدون لمواجهتها بخطة واحتياطات جديدة .. إلا أن التاريخ لا ينسى الشجاعة التي أبداها المقاومون القسنطينيون ، وقد تمكَّنوا من قتل قائد الحملة الجنرال دانريمون ، وإصابة الجنرال بريقو ، وقتلِ العديد من الضباط ، وكاد المقاومون يحققون النصر بعد الضربات القاسية التي تلقاها الجيش الفرنسي ، لولا أن الفرنسيين تمكّنوا من فتح الثغرة ، والمنفذ الوحيد

للتوغل في المدينة ، وكان ذلك سببا في استِعـادَتهم لِلمعنويـات التي كانت على وشـك الانهيـار ، وفي استبسـال السكان الـذين رفضـوا الاستسـلام ، ولقنـوا جيش الاحتـلال درسـا من الثبـات والإصرار لا يُنسى ، ولعـلّ الرسائل التي تُبودلت بين الجانبين تدُلّ على مدى صلابة المقـاومـة ، وعلى المعنويـات العـاليـة التي كان السّكان يتحلّوْن بهـا ، فقـد ردَّ هـؤلاء على الجنرال دانريمـون برسـالـة جـاء فيهـا : « إذا كان المسيحيـون ينقصهم البـارود ، سنرسلـه لهم ، وإذا لم يبـق لهم الخبز نقسِم معهم مـا لـديْنـا ، ولكن طالما أن هنـاك حيًّا منّـا سوف لن يـدخلوا قسنطينـة » ، وبهـذا تحمّل كل فردٍ من سكان المدينة مسؤوليّته عن مدينته وداره وشرفه .

وهناك الرسالة التاريخية الشهيرة التي أجـاب بهـا أحمـد بـاي الجنرال الفرنسي الذي عرض عليه الاستِسْلام ، وهي : « من الأمّة المحـافظـة على شرفِهـا وبلَـدهـا ، إلى العسكر الفرنسيّ المعتـدِي على حقـوق غيره ، قـد وصلَتْنا رسالتكم ، وفهمْنـامـا ذكرتُموه فيهـا ، نعم ، إن مركزَنـا أمْسَى في خطرٍ عظيم ، ولكِنّ استيـلاءكم على قسنطينـة المحميـة بـالأبطـال العرب الـذين لا يهـابون الموت موقوفٌ على قتلِ آخر واحـد منهم ، واعلمـوا أن الموت عندنا تحتَ أسوار بلْدَتنا أحسَنُ من حياتنا تحت سلطة فرنسا » .

بهـذه الروح الـوطنيـة ،والإيمـان الجبـار ، قَـاد أحمـد بـاي سكان قسَنطينَة ، فقـاتلوا الجيش الفرنسيّ المنظّم المجهّز بـالأسلحـة العصريـة في ذلـك العهـد ، وواجهوه بـإمكانيـات متواضعـة ، وجرَتِ المعـارك داخـل المـديـنـــة في الشـوارع والأزقـــة ، وانتقلت من دار إلى دار ، والتحم المقـاومون بـالفرنسيين التحـامـا بـالسلاح الأبيض ، استعمل فيـه السكان البنـادق ، والسكاكين ، والعصي ، والأيـدي ، وشهـدت المـدينـة ملحمـة بطولية رائعة .

انْتهَتْ معركة قسنطينة بالاحتلال الفرنسي .. ولم يحقق أحمد باي ما كان يأملـه من انتصـار .. لكن روح المقـاومـة فيـه لم تضعف .. بل قرّر مواصلـة الجهـاد بـأي ثمن ، ورفض كل النصـائح التي تَـدعوه للاستسـلام والتخاذل ، ولم يقبل نصيحة الذين أشاروا عليه بمغادرة البلاد والالتجـاء إلى إحدى البلدان الاسلامية إنقـاذا لحيـاتـه وأموالـه !. جمع من بقي من مساعديه مِن قادة وجنود ، وعقدَ مجلسا .. ولْنترك له المجال لِيُحدثنا عمّا وقع بعد ذلك ، يقول :

« وفي الحين فكّرتُ في محْو الهزيمة ، لأن الله لا يَضيع كُلِّيا إلا الذين يُهملون أنفسهم ، لذلك استدعيْتُ قـادة القوم ، فـاجتمعوا حوْلي ، وبعـد أن استعرضْتُ الموقف اقتَرحْتُ عليهم تشكيلَ زمالة بجميع الذين خرجوا من المدينـة ، ثمَّ نقودُهـا إلى مكان أمين في الجنوب ، ونُبقيهـا فيهـا تحت حمايـة مُشـاتنـا ، أمـا نحْنُ فنرجع فورا إلى المـدينـة ، ونتمركز في طريق عنابة بحيث نقطع حركة المرور ، فنحن نعلم أن العدوّ خسِر بـالإضافـة إلى كبير الجنرالات عـددا آخر من الضبـاط المعتبرين ، وأن المـؤن قـد تكُون نفدَتْ ، وعليه ، فإذا استطعْنـا أن نتمركز في طريق عنـابـة بحيث نقطع جميع الاتصالات بالمكان الـذي يُمكن أن يبعث النجـدات ، فـإنـه يكون لنـا أملٌ كبير في تحقيـق النصر ، وتمّتِ المصادقـة على مشروعي ، وكاد يدخلُ في حيز التنفيذ عندما صاح بوعزيز بن قانة قـائلا : « مـاذا تريـدون أن تفعلوا تبتعـدون عن بلـدكم ، وتتوجّهـون نحـو الشمال ، إذن فأنتم لا تعلمون أن فرحات بن سعيـد يقترب بسرعـة من الزيبـان ، وفي الوقت الذي تحاولون فيه الدفـاع عن قسنطينـة ، فـإنكم تُعرِّضون أنفسكم للطرد من منطقتكم ، ولـذلـك يجب أن نُسرِع إلى الصحراء ، نـدخـل عائلاتنا ومن اتَّبعنا إلى المدن ، ثم نخرج متّحدين ضد العدو الـذي نخشى

هجومَه أكثر ، فالفرنسيون لم يتقدّموا ، بينما فرحات يزحف علينا ، ومن ثَمة يجب أن نبدأ بمحاربته ، وبعد ذلك نوحِّد قَوانا ، ونهاجم الفرنسيين » لمْ أسْتحسِنْ هذه النصيحة ، ولكنّه لم يَكُن لي أهل - عدا أبنائي - أقرب من بوعزيز ، فلم أكن أعتقدُ أنّه يستطيع أن يقترحَ عليَّ ما مِنْ شأنه أن يضرَّني ، وعليه انضمَمْتُ إلى رأيه ، ولو أن الله هداني في ذلك الوقت لفهمْتُ أنّه يُريد جلْبي إلى الصحراء ليأخذ أموالي عن آخرها ، ولكن إذا حَكَمَ القدر على شخص بالهلاك ، عمِيَ بصرُه وبصيرتُه ، وصار يعتقد الخيرَ فيما يؤدِّي إلى الخراب ، وأكرِّر ، لقد اتَّبعْتُ رأي بوعزيز ، وكان ذلك هو مصابي الاعظم » (مذكرات أحمد باي . ص 77) .

تلك هي مصائب أحمد باي الذي عرِف بتخطيطه الحربي ، ولكن لسبب أو لآخر تعاكسه الظروف .. لقد كان له رأي في مواجهة الفرنسيين بسيدي فرج ، إلا أن صِهر الداي عاكسه ، ونَازل الجيش الفرنسي بسيدي فرج .. وها هو الآن أيضا له رأي في قطع الطريق بين قسنطينة وسواحلها قطعا يؤثر على تمويل الوحدات الفرنسية الموجودة بقسنطينة .. لكن بوعزيز يتدخل ويعارض خطة أحمد باي ..

وهو الآن مع من بقي من رفاقه في الجهاد يتَحول نحو الجنوب ، ويتخذ من الأوراس وبعض مناطق الصحراء ميدانا للجهاد ضد الجيوش الفرنسية الغازية .. خاض ضدها المعارك العنيفة ، حقّق في بعضها انتصارات ، وانهزم في بعضها .. وقد علق كثيرا من الآمال على مساعدة الخليفة العثماني الذي كان يبعث إليه بالوعود إثر الوعود ، ولكن دون أن يتحقق منها وَعْدٌ ، ولما تأكد بأن الخليفة لم يتجاوز حدود الوعود وجّه إليه رسالة قاسية جافة ، جاء فيها :

« بادروا بإمداد أهل الإيمان بالمساعدة وبنصرة أمة الإسلام ، وعندما يعاتبكم الله يوم الحشر ، تسألون عن ضياع هذه الولاية ، فماذا سيكون جوابكم ، هل لكم غرض وأمل في الحفاظ على دين الإسلام في هذه الديار وانتظامه ، فإن كان كذلك لتكن عندكم همة وعزيمة لمساعدة المسلمين ، إذ أنه بالنص الشريف .. كلّكم راع ، وكلّ راع مسؤول عن رعيّته ، ولا شبهة أن كل سلطان يسأل عن رعيته ..

لو لم يكن عندي من انتظار للمدَدِ المتوقّع من طرفكم ، لَما لجَأتُ إلى توَلّي هذا الأمر ، ولما كتبْتُ بحاجةٍ لا علاجَ فيها ، ولَما كانتْ إقامتي في وظيفتي ومخاطرتي عبثا ، فالأَوْلى انتقالي إلى أرض الله الواسعة .

إنّنا من أهل الإسلام ، ولم نُعاوَنْ بمقدار ذرّةٍ ، فقد أصبح مِن المحقّق أن ينال الكفار مُبْتغاهم في هذه الولاية ، ولو سألتم أنفسكم بخصوص هذا الأمر عندما تثيرون هذا الموضوع ، فلا شبهة من توجيه العِقَاب لكم إذا لَم تنصروا الدين الاسلامي في تلك الحالة ، إننا نعتذر عن تلك العبارة الخشِنة ، وبلا أدب ، ولكنها كلمة حق ، فنرْجُو عفْوَكم » .

وهكذا عانى أحمد باي وقاسَى خلال مقاومته الطويلة التي امتدت 18 عاما دون أن يتخلّى عن واجبه ، حتى أنه في إحدى المعارك « اشتدّ به المرض ، ولم يستطع أن يشارك بنفسه في المعركة ، فأخفاه أصحابُه في الغابة قريبا من مكان المعركة حيث كان هناك يسْمعُ بنفسه دويّ الرصاص » (يحي بوعزيز . ثورات الجزائر . ص 49) .

لقد قاوم أحمد باي في عدة جبهات صعبة :

- جبهة فرنسا ، إذ رفض الاحتلال منذ البداية ، ولم يتقبل الأمر الواقع .

- جبهة الطامعين في منصبه وولايته وأمواله ، وهم كثيرون وحاقدون ، استغلّوا « كولوغيته » ، واستضعفوا شأنه ، حيث لا وجود لقبيلة تحميه ، وتشدُّ أزره ، كما هو شأن زعماء المقاومة في كل وقت .

- جبهة الخونة الذين تآمروا على حياته ، وعلى الوطن إلى درجة أنهم تحالفوا وتواطأوا مع الجيش الفرنسي ، وارتكبوا من الفظائع والوحشية ما بقي وصْمةً في تاريخهم .

- جبهة باي تونس الذي كان الجنرالات الفرنسيون يحركونه عندما تحين المناسباتُ ، ويدفعونه للتآمر ضد أحمد باي ، ولعرقلة وصول الأسلحة والذخائر والمساعدات التي كانتْ تُرسل إليه .

ومن استعراض ما كتب عن أحمد باي يبدو أنه :

1) الباي الشرعي الوحيد الذي اعترف له الشعب ، وأعاد تنصيبَه بعد انهيار الإدارة التركية بالجزائر ، وكان موقف الشعب من أحمد باي عاملا وحافزا ومشجعا له على المقاومة والاستمرار فيها حتى النهاية .

2) استفاد من ثقة الشعب فيه ، ومبايعته له على الجهاد ، دون أن تدعمه قَبيلة ، ولا مركز ديني ، فتخلص من العصبية القبلية تخلُّصاً أعانه على توحيد كلمة الأعراش ، وجمع شتات القبائل المتنافرة ، وتنظيم المقاومة العامة .

3) فاجأ الساسة الفرنسيين وضباطهم .. فهم لم يتوقعوا موقفاً صلباً من باي بسيط ، بعد أن استسلم الداي ، وبعد أن سقطت العاصمة ، خاصة وأن بعض الجزائريين قدّموا للفرنسيين صورة أحمد باي في شكل شخص تافه مائع ، لكنهم فوجئوا به بعد رفضه المساومات المتكررة ، وفوجئوا به لا يضع السلاح وإنْ تعرض عدة مرات للحصار .. ورغم أن

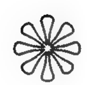
الناس انفضّوا من حوله وقد انتابَهم شعور الملل من الحرب الطويلة .. ولولا اشتداد المرض بأحمد باي وتقدُّم السِّنّ به لَمَا وضع السلاح .

4) برهن على إخلاصه ووفائه لمباديء آمنَ بها :

1 ـ الدفاع عن الدين الإسلامي .

2 ـ تحرير البلاد من الاحتلال الفرنسي .

3 ـ الارتباط بالسلطة الشرعية الوحيدة التي كان يراها جديرة بذلك ، وهي السلطة العثمانية .



المرحلة الثانية

الانْتفَاضات

الانتفاضات

لئن انتهت مقاومة البطلين الأمير عبد القادر، وأحمد باي، فإن شعلة الروح الوطنية بقيتْ ملتهبةً في النفوس، ذلك لأنّ الشعب الجزائري لم يتقبّل الأمر الواقع المفروضَ عليْه من طرف الاحتلال الفرنسي، وهذا الرفض عبّرت عنه الانتفاضات المتواصلة التي عمّت كل مناطق الجزائر، وغطّتْ كل المراحل الزمنية بانتقالها من منطقة لأخرى منذ عام 1848 حتى عام 1916 في الحرب العالمِيَة الأولى، وليست الانتفاضة إلا نوعا من المقاومة، « وهي في ذاتها تعبير صادق عن إرادة الأمة في رفض ما هو غريب عنها، دفاعا عن مقوماتها الحضارية المتميِّزة » (عبد الحميد زوزو . ثورة بوعمامة . ص 43) .

إلا أن هذه الانتفاضات على كثرتها، وتفاوُتِها في الأهمية وفي الصّدى الذي تركتْه، لم يُكتب لها النجاح، لأسباب عديدة، منها :

أولا : ليستْ هناك تعبئة وطنية، أو تنظيم وطني أو إقليمي، فقد كانت القبيلة أو القبائل المتجاورة تثورُ بمجرَّد أن تلحقَها إهانة من طرف وحدات الجيش الفرنسي، أو من طرف الحاكم بالمنطقة .

ثانيا : الانتفاضات في غالب الأحيان استجابة تلقائية للدعوة التي يوجّهها رجال الدين أو زعماء القبائل إلى الجهاد، لا تعلم الجماهير أسباب الانتفاضات، ولا حقيقة الدعوة إلى الجهاد، وإنما استجابتْ ثقةً منها في علمائها وزعمائها، ورغبة منها في الجهاد .

ثالثا : ضيق الرقعة التي تقع فيها الانتفاضة ، مما يسهِّل مهمة الجيش الفرنسي في مواجهة الانتفاضة ، وتطويق المنطقة ، وقَمع الروح الثورية .

رابعا : الارتجال أو التلقائية في تفجير الانتفاضة ، لا تسمح لقادة المقاومة بالاستعداد الكافي ، والتنظيم المحكم ، وتحديد الأهداف من العملية .

خامسا : انعدام التّنسيق بين القبائل الثائرة أضر كثيرا بالمقاومة ، وكاد يقضي على ثورة نوفمبر 1954 في بدايتها لولا أن المسؤولين تلافوا ضعف التّنسيق .

ومن تأمّل خريطة الانتفاضات يلاحظ المرء التوزيع الجغرافي الذي يشمل كل منطقة في الجزائر ، ويلاحظ أيضا التسلسل الزمني ، فهناك :

1 ـ الظهرة . الوارسنيس . التيطري . مستغانم . الحضنة . أولاد رياح . تحت قيادة بومعزة سنة 1845 .

2 ـ الزعاطشة . الزيبان . الأوراس . بوسعادة . بقيادة الشيخ بوزيان عام 1848 .

3 ـ الاغواط . تقرت . بقيادة الشريف محمد بن عبد الله عام 1852 .

4 ـ بني إيراثن . بني عيسى . فليسه . ايشريدن . آيت تاوريرت الحجاج . بقيادة لالا فاطمة نسومر والشريف بوبغلة عامي 1851 ـ 1857 .

5 ـ الأوراس . البلازمة . الوادي الكبير . بقيادة محمد بن عبد الله عام 1858 .

6 ـ جبل عمور . البيض . ميزاب . تيارت . فرندة . الشعانبة . الظهرة .ورقلة . غليزان . بقيادة مجموعة من شيوخ أولاد سيدي الشيخ عام 1864 .

7 ـ برج بوعريريج . مجانة . صدوق . العلمة . الاخضرية (بالسترو) ذراع الميزان ... بقيادة المقراني وابن الحداد عام 1871 .

8 ـ الأوراس . أولاد داود . بني بوسليمان . بني وجّانة . بقيادة محمد آمزيان بن عبد الرحمن عام 1876 .

9 ـ عين الصفراء . تيارت . فرندة . سعيدة . بقيادة بوعمامة عام 1881 .

10 ـ مليانة . ريغة . بقيادة يعقوب بن الحاج عام 1901 .

11 ـ تاغيت . المايدة . برج بولينياك . القطارة . ميزاب . ورقلة . بقيادة الشيخ عبد السلام عام 1902 .

12 ـ باتنة . عين الفكرون . خنشلة . بريكة . مروانة . عين توتة . مستاوة . بقيادة الشيخ بن علي بن النوي عام 1916 .

وقد قمعَتْ فرنسا كل هذه الانتفاضات بوحشية ، لا يحدثنا التاريخ كثيرا عن مثيل لها ، ويبدو أن هذه الوحشية وردود الفعل الفرنسي الاستعماري رسّخ الروح الوطنية في الجماهير ، كما أن حجز الأراضي والممتلكات الخاصة بالمقاومين والجزائريين عموما ، جعل الجزائري يقدّس أرضه ، ويموت في سبيلها .

وإن ما حدث في انتفاضة واحة الزعاطشة ، يُقدّم دليلاً قاسيا على وحشية الجنود الفرنسيين الذين أمْعنوا في التقتيل والتمثيل بجثث الشهداء الذين سقطوا في ميدان الشرف ، بعد أن أبدوا من البطولة والصمود ما أدهش الضباط الفرنسيين .

وانتفاضة واحة الزعاطشة تعتَبَرُ امتداداً لمقاومة الآمير عبد القادر وأحمد باي ، لأنها وقعتْ عام 1848 لّما قرّرتِ الإدارة الفرنسية إلزام سُكّان واحة الزعاطشة بدفع مبالغ طائلة ، الشيء الذي رفضه شيخ الواحة الشيخ بوزيان الذي جاهد بجانب الأمير عبد القادر ، وكان من بين الذين لم يتقبلوا فكرة وضع السلاح ، اعتقادا منه أن الجهاد فريضة حتى الاستشهاد .. واقتضى هذا الرفض إعلان الثورة ضد الأوامر الفرنسية ، والاصطدام بالوحدات العسكرية الفرنسية التي توافدتْ من كل ناحية ، وطوّقتِ المنطقة ، وشدّدت الحصار على الواحة ، بعد أن ثارت الزعاطشة ثورة برزت فيها البطولات الخارقة ، ودار الاقتتال من دار إلى دار بكيفية فاقتْ ما دار في مدينة قسنطينة عام 1837 .. واجه الفرنسيون هذه البطولات بأعمال قمع وتنكيل رهيبة ، أساءت إلى سمعة الجيش الفرنسي ، وزادتْ من سمعة المقاومين حتى أن بيليسى (Pellissier de raymand) نفسه صرح : « لا أخاف إذ أقول بأن مجْد المنهزمين فاق وغطّى على مجد المنتصرين » (شارل أندري جوليان . تاريخ الجزائر المعاصر . ج 1 . ص 384) وأدتِ الوحشية بالجيش الفرنسي إلى حزّ رأس الشيخ بوزيان بعد قتله ، وحزّ رأس ابنه ، وأحَدِ مساعديه في المقاومة (شارل أندري جوليان . تاريخ الجزائر المعاصر . ج 1 . ص 384) وأدتْ أيضا إلى التمثيل بجُثث الشهداء . وإلى رضّ الرؤوس على الجدران للتمتّع بتطاير الدماء والأمخاخ !.

وميزة معركة الزعاطشة بالإضافة إلى شخصية المقاوم الشيخ بوزيان ، هي أن واحة الزعاطشة الصغيرة بمساحتها ، الضعيفة بعدد سكانها ، هزت الجيش الفرنسي بأكمله ، فتسارعت الوحدات العسكرية من كل صوب .. في الوقت الذي كان الفرنسيون يعتقدون بأن المقاومة

انتهتْ بالقضاء على الأمير عبد القادر في الغرب ، وأحمد باي في الشرق ، وكانوا ينتظرون من الجزائريين الاستسلام النهائي ، وتقبُّلَ الواقع المحتوم .

استفاد الجزائريون من معركة الزعاطشة دروساً :

- بأن الجيش الفرنسيّ الذي ارتكب الفظائع الرهيبة ، والأعمال الوحشية بواحة الزعاطشة جيش لا يمثل أية حضارة ، ولا أية مدنية كما يدّعي .

- بأن المصير الذي ينتظر الجزائريين هو الإبادة ، التي حلّت بواحة الزعاطشة .. ومن الأفضل لهم أن لا يموتوا جبناء .

إن توالي الانتفاضات بعد واحة الزعاطشة يؤكّد بأن الجزائريين لم يتقبّلوا في أي وقت من الأوقات أمرا واقعا مفروضا عليهم .. ولكن أهمّ انتفاضة حدثتْ بعد واحة الزعاطشة هي انتفاضة المقراني ، الشيخ ابن الحدّاد ، وأهمية هذه الانتفاضة التي أطلق عليها الدكتور يحيي بوعزيز « ثورة 1871 » وعبّر عن هذه الأهمية في كتابه هذا بما أورده في شأنها :

« إن ثورة عائلتي المقراني والحداد عام 1871 في نظر الفرنسيين كانتْ آخر وأخطر ثورة ضد الوجود الفرنسي بالجزائر التي أصبحوا ينعتونها « بأرض الثورات » .

« والواقع أن هذه الثورة ليستْ آخر ثورة ، لأنها تلتْها ثورات أخرى ، مثل ثورة واحة العمري (1876) وثورة الأوراس (1879) وثورة الشيخ بوعمامة (1881) التي امتدت إلى نهاية القرن مع بعض الثورات والتمرّدات الجهوية في مطلع القرن الحالي .

« ولكن هذه الثورة من جهة أخرى كانت « خطيرة » حقا على الوجود الفرنسي بالجزائر من جوانب عديدة » .

ويمضي الدكتور بوعزيز في تعداد جوانب الخطورة كما يراها في هذه الانتفاضة :

1 ـ أنها امتدّتْ عاما كاملا من 14 جويلية 1870 إلى 20 جانفي 1872 .

2 ـ شملت مناطق واسعة تكاد تمثل نصف البلاد تقريبا .

3 ـ خاض الثوار ثلاثمائة وأربعين معركة كبيرة ضد القوات الفرنسية التي قدّرت بحوالي ثمانمائة ألف جندي وضابط ومتعاون .

4 ـ تغلغلَتْ عقلية الثورة والعصيان في أدمغة الأغلبية الساحقة من الجزائريين » .

لكن الفرنسيين تعوّدوا دائما الاستخفاف بكل ما هو جزائري ، واعتباره « أهليا » حقيرا ، حتى أن الثورات والانتفاضات لا يعطونها حقّها من الإنصاف والوصف الحيادي ، وقد علق الدكتور بوعزيز على النظرة الاستعمارية لثورة المقراني والحداد .

ونظرا لأهمية هذه الثورة ، فإننا نلاحظ بأن الفرنسيين حاولوا تجريد هذه الانتفاضة من محتواها الوطني بادعائهم :

ـ أنها انتفاضة شخصية ، أي قامت بدوافع شخصية لدى كل من المقراني والحداد .

ـ أنها انتفاضة قامتْ بإيحاء خارجي ، فاتّهموا الدولة العثمانية ، وأنجلترا ، ومحيي الدين بن الأمير عبد القادر . والدعاية البروسية ، وأتباع الطريقة السنوسية .

ولهذا اختلق الفرنسيون تبريرات لمواجهة الانتفاضة بكل قمع وشراسة ، وتطبيق « الإجراآت القاسية ضد أفراد أسرتي المقراني والحداد اتسمَتْ بالحقد والضغينة ، وصارتْ في طريق تصفية الحساب » (يحي بوعزيز . ثورة 1871 . ص 358) .

استغل الفرنسيون الوضع ، فصادروا أملاك الأشخاص ، وأملاك المجموعات ، وحكَموا بالإعدام على البعض ، وبالنفي خارج الوطن على البعض الآخر ، ظنا منهم أن سياسة القمع والمصادرة هي أنجح علاج للقَضاء على الروح الوطنية ، لكن الانتفاضات التي قامتْ وظهرتْ بعد ذلك أكدتْ بأن روح المقاومة أقوى من القمع ، والإرهاب ، والإبادة . ومن محاولات التبشير ، والتجنيس ، والفرنسة .

وكل ما يقال عن الانتفاضات أنّها وإن لم تحقّق نجاحا عسكريا ، فإنها حققتْ نجاحاً أدبيا وطنيا بترسيخ الروح الثورية في النفوس وصمود الفكر الرافض للاحتلال ، وللوجود الفرنسي بجميع أشكاله .



المرحلة الثالثة

النضال السياسي

مرحلة النضال السياسي

هذه المرحلة بالنسبة للجزائريين تعتبر مرحلة انتقالية ، انتقلوا بواسطتها ، وبعد ممارستها من المقاومة المسلحة إلى الثورة التحريرية ، وجربوا خلال هذه المرحلة عدة أساليب سياسية ، واستخْدَمُوا وسائل غلّبوا فيها جانب العقْل والمعرفة ضد مسْتعمِرٍ عُرِف عنه أنّه لا يعترف بكفاءة الجزائري ، ولا بقدرته الذهنية على استيعاب التطور الحضاري .

والكثير من الكتاب والمؤرخين لا يربطون هذه المرحلة بالاستعداد النفسي والعملي للثورة ، ولا يعطونها من الاهتمام ما تستحقّه ، ولا يركزون في الحديث عنها إلا على جانب الصراعات الإيديولوجية والمهاترات الحزبية ، بل ويعتبرها البعض مرحلة عرقلتِ العمل المسلح أو العمل الثوري ، مع أنها مرحلة ذات أثر كبير في الإعداد والتعبئة لثورة أول نوفمبر 1954 ، بما أدتْه وقدمتْه من تعريف بتاريخ الوطن ، وتمجيد لماضيه ، ومن مساع للتمسك والمحافظة على مقومات شخصية الأمة ، وما هيأته من توعية ونضج ساهما كثيرا في عمليات التعبئة والتنظيم ، والالتزام ، والاستمرارية .

لقد كان الجزائريون يعتقدون بأنهم بممارسة الوسائل السلمية الهادئة عن طريق المطالب السياسية ، سيتحصلون على حقوقهم .. لكن تأكد لهم في الأخير بأنّ استعمال الحجة والمنطق مع عدوٍّ متعنّتٍ لا يُجدي ، فعادُوا ـ بعد أن خابت الآمال ـ إلى المقاومة المسلحة من جديد عودةً تداركوا فيها الأخطاء التي أضرّت بالمقاومة منذ عام 1830 .

وقبل التغلغل في الحديث عن النضال السياسي ، يتحتّم توضيحُ نقطة ، وهي أن النضال السياسي الذي عمَّ مدُن وقُرى القطر الجزائري ، لم يتوغّل في الأرياف لدى أوساط الفلاحين بالقدر الكافي ، وأيضاً لم يهتمّ به الفلاحون .. ومعنَى ذلك أن الريف حافظ على أصالته الثورية ، وبقي متمسّكا بتقاليده الثورية ، ولذلك وجدت الثورة في الريف رصيدا ثمينا لا ينفَدُ .. فالثورة وإن فجّرها شبان نشأوا في أغلبيتهم بالمدن والقرى ، لم تجدْ لها ملجأً أمينا ، ومركزا حصينا ، إلا في الريف .

بعد هذا يجدرُ بنا أن نستعرض الأسباب أو الظروف التي جعلت الجزائريين يتحوّلون في مُقَاومَتِهم من الكفاح المسلح إلى النضال السياسي مع بداية القرن العشرين أو بالضبط بعد الحرب العالمية الأولى :

أولا : ظهرت في العالم العربي والإسلامي بوادر نهضة إسلامية على يدي جمال الدين الأفغاني ومحمّد عبده ، وقد كانا يُمثّلان فكرةً واحدةً ، وإن كانا مختلفين في الوسائل والأساليب ، فجمال الدين الأفغاني يميل إلى النزعة التحريرية ، ويدعو إلى التحرير السياسي ، في لهْجة عنيفة حادة ، معتقدا أن إصلاح العالم الإسلامي لا يمكن أن يَتِمّ إلا بعد أن يُحرِّر نفسه من ربقة الاستعمار الجاثم عليه ، والحرية في نظره وسيلة لإصلاح المجتمع الإسلامي .. أما محمد عبده فكان يرى بأن الحرية غاية ، وللوصول إليها لا بد من تربية الأفراد ، وإصلاح المجتمع ، وتنبيه المسلمين إلى مسؤولياتهم وواجباتهم ليقوموا بتحرير أنفسهم من الاستعمار .

وقد كان لنشاطهما وآرائهما الآثار البعيدة في العالمين العربي والإسلامي ، والجزائر من بين البلدان التي تأثرت تأثرا عميقا بالآراء التحررية والإصلاحية لهذين الرجلين .

ثـانيـا : احتكاك الجزائريين ، وخـاصـة المثقفين بـالعـالمين العربي والإسـلامي ، وبـالعـالم الأوروبي احتكاكا مكّنهم من الاتّصـال بـالعـالم الخارجي ، ومن التعرف على أنواع جديـدة من الكفـاح ، لم يستعملوهـا من قبـل ، أو استعملـوهـا في حـدود ضيقــة جــدا ، وعن طريـق أفراد معزولين لا يمثلون تنظيما ، لا سيا وأنه بعد الحرب العالمية الأولى ظهرت إلى الـوجـود شعـارات التحرير : تحرير الشعـوب وقـد نـادت بـه ثـورة أكتوبر في روسيا ، ومبدأ تقرير المصير الذي ظهر بالولايات المتحدة .

ثالثا : بمناسبة الحرب العالميـة الأولى جنّـد الفرنسيّون أعـدادا كبيرة من الجزائريين وفتحوا أبواب العمل للجـزائريين ، فـالتحـق أيضـا عـدد كبير منهم بفرنسا ، وشاهد أولئك وهؤلاء نمط الحيـاة الفرنسيـة ، ومـدى تمتُّع الفرنسيِّين بالحرية ، في حين تُمارس الإدارة الفرنسية بـالجزائر تَعسُّفـا صارخا ، وفي حين يستغل المعمّرون الجزائريِّين استغلالا فاحشا .

رابعا : ظهور بوادر ثقافية عصرية جديدة ، وأهمُّها الصحـافـة ، إذ أدرك الجزائريـون أهميـة استعمال الـوسـائـل العصريـة في إبلاغ الصـوت الجـزائري للرأي العــام الجـزائري ، والرأي العــامّ العــالمي ، فــاستغلّـوا الصحافَة ، وتعليم الناشئة ، لأنّهم عانوا من الحملات الصحافية الفرنسيـة ، ومن تشويهها للحقائق ، وذاقوا مرارة ما غرسه التعليم الفرنسي من أفكار غريبة ، ومن تعقيد الفرد الجزائري ، وتفتيت المجتمع الجزائري ، ومحاولـة تقسيمه إلى شعوب وقبائل متنافرة متطـاحنـة ، وللتغلب على هـذا النوع من الغـزو الثقـافي رأى المثقفـون الجـزائريـون أن عليهم واجب تـوعيـة الجمـاهير بتزويـدهـا بـالمعلومـات الصحيحـة ، وبتعليم النـاشئـة ثقـافتهـا الوطنية ، وتاريخها الوطني .

ولهذا ما كادت الحرب العالمية الأولى تنتهي حتى شرع الجزائريون في تأسيس الجمعيات ، والنوادي ، ونشر الصحف ، وفي عقد اتصالات مع التنظيمات خارج البلاد .. فاشتركوا مع علي باشْ حامبه في لوزان ، وطالبوا بالحكم الذاتي لإفريقيا الشمالية ، واشتركوا بجنيف في « لجنة استقلال الجزائر وتونس » التي ورد في لسان حالها « مجلة المغرب » : « إننا جزائريون مسلمون ، وسنبقى جزائريين مسلمين » ، كما ساهموا في إطار النشاط الذي قامت به « لجنة استقلال الجزائر وتونس » ببرلين .

وهكذا نلاحظ أن الجزائريين في هذه الفترة تفهّمُوا الوطنية بمفهومها المُعاصر ، وإن ربطوا الوطنية بثلاثة عناصر : الدين ، اللغة ، الوطن ، كما جاء على لسان عمربن قدّور :

قلَمي لسان ثلاثة بِفؤادي دِيني ووجداني وحبٌّ بلادي

واستعملوا الأساليب الحديثة التي كان المستعمر يستغلها بمفرده في التأثير وتوجيه الرأي العام .. فعَنْ طريقِ الصحافة مثلا وجدْنا الجزائريين يعارضون مبدأ التجنيد من ناحية المبدإ ، ويعتبرونه خرقاً للاتفاقيات الجزائرية الفرنسية ، ويشنّعون بالمعاملات المُجْحِفَة التي يُلاقيها المجنَّدون الجزائريون ، مع أنّهم يقومون بنفس المهمّة التي يقوم بها المجنّدُ الفرنسيٌّ ، بل كان الجزائريون يطالبون بتحسين وضعهم كجنود ، ما داموا يدفعون نفس الثمن الذي يدفعه الجنود الفرنسيون ، وما داموا يموتون من أجل « الوطن الفرنسي » كما تدّعي الإدارة الفرنسية ، وإلى جانب التشنيع بانعدام المساواة في التجنيد وفي المعاملة ، فإن الصحافة الوطنية شهّرتْ بالجامدين ، والمتخاذلين ، والراغبين في التجنُّس ، والميّالين للذوبان والاندماج .

هذا عمر راسم يُصدر جريدته « ذو الفقار » عام 1913 ، ويطالعنا كما قال الدكتور محمد ناصر : « بأسلوبه العنيف ، مُوجِّها كلامَه في غير مواربة أو خشية إلى أولئك الذين تخلّقوا « بمفاسد التمدّن الحديث » ممن يرتضون سياسة المداجاة والنفاق مع الاستعمار ، لأنه ملأ أفواههم بالدنانير ، فلم يستطيعوا تكلُّماً ، وأثقَلَ صدُورهم بالنياشين المزيفة ، فطأطأوا له رؤوسهم » .

« وبأنّ كل بلاء نزل بالمسلمين الجزائريين فَمَرَدُّه إلى هؤلاء الذين جمعُوا بين الخِسَّتَيْنِ ، فقد باعوا جنسيَّتهم وَدِينهم عِندما فضَّلوا عليهما « مفاسِد التمدُّن الحديث » وباعوا ضمائرهم وأوطانهم عِندَما باتوا ألعوبة بين يدي السلطات لقاء منصب أو لقب سام » (محمد ناصر . المقالة الصحفية الجزائرية ج 1 . ص 78) .

بل نرى أن عمر راسم يكتب بمَرَارَةٍ تدلُّ على الألمِ الذي يعتلج في صدْرِه ، فهو الذي يقول أيضا : « كيف يكون المسلم مسلماً في بلدٍ خَلَتْ مساجدُه من الراكعين الساجدين ، وامتلأتْ شوارعُه باللصوص والفجّار والسّكِّيرين ؟ كيف يكون المسلم مسلماً في بلدٍ ظهرتْ فيه الأثَرَة ، وحبُّ النفس ، وعبادة المال ، والانسِلاخُ من الدين ، والتظاهر بالفحشاء ، وتقليد الكافرين ؟ كيف يكون المسلم مسلماً في بلدٍ انتشرَ فيه الربا والسلب والنهب ، وقوِيَتْ فيه عوامل الجفاء ، وباتَ كلٌّ يترَقَّبُ إفلاسَ أخيه ساعيا في تنقيص قدْرِه وفضلِه ، بل أعان اليهوديَّ عليه ، لا شَكَّ وأن السلطة البشرِيَّةَ تنْعَدِم في أمّةٍ تبادلَتْ مع حيواناتِها الأخلاق ، فلا يكون لوفاء العهد ـ وهو الخلق العظيم ـ مظهر إلاَّ في كلابهَا ، ولا يوجد الاعتماد على النفس إلا في وحوشها الضارية ، ولا

التطوّحُ والاغترابُ في طلب القوت إلا في جوارحِها وطيورها ، إذن فليقْضِ على هذه الأمة قاضي النواميس الطبيعية أن تكون حقيرةً ذليلةً محكومةً مأسورة » (محمد ناصر . المقالة الصحفية الجزائرية ج 1 . ص 79) .

ومنذ عام 1916 انطلقتِ الطلائع الجزائرية تُغذّي الروح الوطنية ، وتوقِظُ الهِمم ، داعية إلى :

- العلم والتعلم والتثقف
- التطوّر في حدود القيم العربية الاسلامية .
- الاعتزاز بالاسلام والتضامن الإسلامي .
- التمسك بالأصالة الجزائرية
- التعريف بالتاريخ وبالشخصيات الجزائرية .
- تقديم المطالب والمناداةُ بإصلاح الأوضاع .

وندّدتْ في الكثير من الأحيان بلهجة شديدة :

- بالتجنيد الاجباري .
- بالتجنيس .
- بالاندماج .
- بالخرافات والبدع .
- بالتبشير المسيحي .
- بالقوانين الجائرة .
- بالآفات الاجتماعية .
- بالظلم الاجتماعي والإداري .

ولكن الشعور بالظلم والجور كان أبرز ما في كتابات الجزائريين ، ومن ذلك ما كتبتْه جريدة « الحق » التي كانت تصدر بعنابة ، والتي

قال فيها الكاتب مشيرا إلى « دار الحاكم » الفرنسي : « انظر لهذا القصر المنيف الذي هو داخل القرية الممتزجة ، وهو مسكن (باشا) يقال له (أدمنستراتور) ، وهو حاكم الدائرة ، وهو مولاك بعد الإله ، وله قدرة عليك بالسب والشتم والضرب والسجن وغيره » (محمد ناصر . المقالة الصحفية الجزائرية ج 1 . ص 299) . وفي مواجهة هذا الحيف والجور ، كان الكتاب يدعون الشعب إلى اليقظة وإلى الاتحاد ، والاعتماد على النفس ، وأحيانا يستعملون أسلوب التهكّم ، كما جاء في جريدة « الحق الوهراني » حين استعرض الكاتب الذلّ الذي أصاب المسلمين ، إذ أجاب هؤلاء على لسان الإدارة الفرنسية قائلا : « لا فائدة لكم أن تتمنّوا راحة من المصائب التي حلّتْ بكم إذ لا قُدرة لكم على فعل شيء بأنفسكم ، ونحنُ وإن كُنّا نُحبّكم ونحنُو لهمومكم ، فلا قُدرة لنا على فعل شيء لكم ، أنتم مغلوبون ، فاهجروا ، أو اصبروا ، واقرأُوا من كتابكم مواعظَ الصبر لتتحمّلوا استيلاءَ الغالب » (محمد ناصر . المقالة الصحفية الجزائرية ج 1 . ص 300) .

إن الشعور بانعدام العدالة كان شعورا سائدا أيضا بين الجنود الجزائريين في الجيش الفرنسي ، لأنّهم يعيشونه يوميا ، لا فرق في ذلك بين الجندي البسيط ، والضابط السامي ، هذا أحد الضباط الجزائريين الذين شاركوا في الحرب العالمية الأولى بجانب الجيش الفرنسي يعبّر عن مرارته ، ويقول : « إن من الأسف العظيم أن يُرجع ممثّلو العدل والحرية بإحدى اليدين ما أعطوْه باليد الأخرى ، في مقابلة الإخلاص وسفك الدماء الشريفة دِفاعاً عن فرنسا .. أيّها الشجعان الذين بذلتم النفس والنفيس ، أين الجزاء ؟ أين الخطب ؟ أين المواعيد ؟ كلها سحاب خلبٌ ، نعوذ بالله من الكذب ونكران الإحسان ، أيها الشبان

الذين قاسيتم الشدائد ، وحصدتْ زهرة شبـابكم ، فـأثقـال الظلم لا زِلنَـا تحتَ قهرِها ، تالله إن هذه المحقرة والفضيحة ما سبقَنا بها أحد من الإنس والجنّ ، قد قامتْ قيامتنا » (محمد ناصر . المقـالـة الصحفيـة الجزائريـة . ص 305) .



الأمير خالد

نضال الأمير خالد

الأمير خالد من أحفاد الأمير عبد القادر ، تحصّل على درجة ضـابـط من سان سير بفرنسا عام 1897 ، ولرفضِـه التجنُّس بـالجنسيـة الفرنسيـة اعتُبر ضابطاً أهليـا (à titre indigène) ولـمّـا ألَمَّ بـه المرض وتقـاعـد عـام 1919 فضّل الإقامة بالجزائر ليتفرغ للنشاط السياسي دفاعا عن بني قومه وبلاده .. وقـد أظهر فعلا في مجـال الـدفـاع والوطنيـة مقـدرة فـائقـة ، وشجاعة نادرة ، وهمة عالية ، ومواقف صلبة .. واختـار لِنضـالـه أربعـة وسائل :

1 ـ الصحافة ، وأنشأ صحيفة « الإقدام » التي نالت شهرة وسمعة .

2 ـ الخطب ، وخاصة في الحملات الانتخـابيـة ، وكان يحضرهـا ، ولا يتخلف عنها للتنديد والتشهير بالخونة والمتجنسين والمتخـاذلين ، ولـه في ذلك مواقف موفقة .

3 ـ المجـالس المنتخبـة ، وقـدم على منصّـاتهـا وعن طريقهـا عرائض ومطالب ، ونادى فيها بالمساواة ، وإعادة الاعتبار « للأهلي » المحتقر .

4 ـ الاتصالات بالشخصيات الفرنسيـة ، بـالنواب والوزراء ورؤسـاء الجمهورية ، وبالشخصيات العالية ، وقد كاتبها وأبلغها وضعية الجزائريين في بلادهم .

امتاز الأمير خالد في ذلك العهد بميزات :

أولا : اعتزازه بكفاح آبائه وأجداده .. في الوقت الذي كانت العائلات الشهيرة بالجزائر تتقرَّب إلى الإدارة الفرنسية بتبرُّئِها من كل مقاومة ، أو بتبَجُّحها بأن آباءها وأجدادها كانوا في خدمة الجيش الفرنسي ومساعدته على الاحتِلال ، أو بالتفاخر بأن من هؤلاء الآباء والأجداد من مات في سبيل فرنسا .

واعتزاز الأمير خالد بكفاح أجداده جزءٌ من الاعتزاز بالتاريخ الوطني ، عبّر عنه في كتاباته وفي شتّى المناسبات ، ومِمَّا قاله : « إن أجدادنا قد أضْرموها حربا حامية الوطيس مدى 15 عاما وأزْيَد ، ولم يَكن النصرُ حليفَهم ، ولكنّ تقديرَ بطولتِهم وشجاعتهم وشهامتِهم حقٌّ ثابتٌ لا ينبغي أن ينكرَه المنتصِرون علينا ، كما لا ينبغي لي ـ أنا حفيد الأمير عبد القادر ـ أن أسكتَ عنه مثلَما فعلَ كثير من المنتخبين » .

لاقى هذا الاعتزاز صدًى طيباً ، وحماساً لدى الجموع والجماهير ، فأقبلَتْ تؤيد الأميرَ خالد ، وتهرَع للاجتماعات التي يُشرف عليها ، وتقبل على سماع خطبه وقراءتِها بشوق ، معتبرةً إياه سليلَ المقاومة ، وحفيد رمزِها .. لذلك حظي باحترام وشعبيةٍ لم يحصِّل عليْها غيرُه من قبل .

ثانيا : غيرتُه الإسلامية .. والإسلام في ذلك العهد لا ينفصل عن اللغة والوطن ، والدفاعُ عن واحد منها دفاع عن الجميع ، والوطني الذي لا يعتز بلُغتِه ودينه لا يُعتبرُ وطنيًّا في نظر الجماهير .

والأمير خالد في مقاومته تَصدَّى لواجهتين : واجهة الجزائريين الملحدين والمتجنِّسين الذين اعتزوا بانسِلاخهم من دينهم ، وتخلّوا عن

جنسيتهم ، ورأوا في انتسابهم إلى الفرنسيين مفخرةً وشرفا .. وواجهة المعمّرين والنواب الحاقدين الذين كانوا يتحيّنون المناسبات والفرص للتعريض بالإسلام ، والتشنيع بالمسلمين .. وكانت معارك الأمير مع هؤلاء وأولئك معارك شرسة ، استعمل فيها كل طاقاته الفكرية ، وكلّ حماستِه الدينية للرّدّ عليهم جميعا في جريدته « الإقدام » التي جعلها منبرا للوطنية .

فقد ردَّ على أنجلي الذي عبَّر عن نظرة الأوروبيين وقال : « إن جماهير المسلمين لا تزال تعيشُ في غياهب الجهل ، وتَكادُ ألاَّ يلمَعَ عليها بصيصٌ من الحضارة الأوروبية ، فالمسلمون متخلِّفون جدًّا ، منعزلون بأنفسهم من أجل تعصّبهم الديني الذي لا ينسجمُ مع منحِهم الحق السياسي والاجتماعي على قدَم المساواة مع الفرنسيِّين ، وإعطاؤهم مقاعدَ النيابة أو عضوية مجلس الشيوخ أمرٌ سوف لا يُجدِي نفعاً ، بل هم في حاجة أكيدة إلى زيادةٍ في التربية والتعليم حتَّى تكون لهم قابلية لهضمِ المدنية الأوروبية ويُصبحوا قادرين على اكتساب وتطبيق الأساليب الحديثة للتنمية الاقتصادية ، فقدْ يُطالب نوابهم باستقلال الجزائر باسم مباديء ويلسون في الحين الذي تباع فيه نساؤهم رقيقا » .

لم يتقبل الأمير هذا التحامل ، ولا هذه الاتّهامات ، فكتب ردا فيه اعتزاز وعنف وحكمة ، في صحيفته « الإقدام » :

« إن المسلمين قد أفادوا أوروبا إلى حدٍّ بعيد بمدنيتهم ، وإنّه لا جدوى من الكلام مع الوطنيين الجزائريين عن أساليب التنمية ما دام هناك استمرارٌ في إحداث مراكز جديدة للاستعمار ، وما دام تطبيق قانون طورانس (وهو قانون يُحدِّد ملكية المسلمين ويَمنَح المعمِّرين حق الاستيلاء عليها متى شاءوا ..) .

« كثيرا ما قيل عن المرأة المسلمة إن الصداق الذي يُؤدِّيه لها زوجُها إنّما هو ثمن شرائها ، ففي بلادكم أنتم أيها الأوروبيون تشترِيكم نساؤكُم ، وفي أوروبا كلِّها زيجاتُ المتعةِ والمنفعة ، وفيها كلها لبْسٌ وإكراهٌ ، وكذلك يُشاهد المرءُ اليوم في شوارع باريس فتياتٍ يكاد عمْرُهن لا يتجاوز 12 سنةً يتعاطيْن البِغاء جهرة ..

« إن الاستعماريين الأوروبيين وأعوانهم فضّلوا أناسا جهالا عيّنوهم تعييناً على المثقّفين المسلمين المخلصين الذين كان الشعب يريدُ انتخابهم ، فحالوا دون ذلك ، واتَّهمُوا هؤلاء المثقّفين بالوطنية المتعصّبة ، وبالنزوع إلى الاستقلال التام » (من مقال « الأمير خالد ونشاطه السياسي » بقلم محفوظ قداش في مجلة « تاريخ وحضارة المغرب » العدد 4 يناير 1968) » .

ثالثا : تحمُّسه للقضايا الوطنية ، وهو تحمُّسٌ نابعٌ عن شعوره بمسؤوليته كحفيد للأمير عبد القادر ، وكضابط خريج سان سير ، لا يَرى غضاضة في الدفاع عن علَم فِرنسا ، ويَرى بأن اشتراكَه في الحرب بجانب الجندي والضابط الفرنسيّ يُخوّله حقّ الدفاع عن بلاده ، وعن بني جلدته ، ويظهر هذا فيما نقله جان ميليا (Jean mélia) على لسانه : « إن دمي لا يجبرني على السكوت ، وإن أمانتي وولائي المخلص اللذيْن أتاحا لي ، بعد تخرُّجي من سان سير أن أحارب في صفوف الجيش الفرنسي ، وفي الصفوف الأولى منه ، فإنَّهما يَجِبُ أن يتيحا لِي كذلك ألاّ أقفَ أمامكم موقف الذلّ والهوان عند مناقشة الأفكار والمشاريع التي تهمُّ إلى حدٍّ كبير مستقبلَ الجزائر وفرنسا ، فالجزائر هذه كانت ـ ولا تزال ـ أرض أجدادي ، فهيَ تحضن اليوم شعبيْن يتقاربان بعد أن كانا يتحاربان » (المرجع السابق) .

وفي إطار تحمسه ، أجرى اتصالات بشخصيّات فرنسية وعالمية ، وكاتَبهم بخصوص رغبة الجزائريين وأوضاعِهم السيئة التي كانوا يعيشون فيها ، ومن بين الذين وجّه لهم رسالة - تعتبر تاريخية - رئيس الولايات المتحدة ويلسون الذي رفع شعار حق الشعوب في تقرير مصيرها ، وقد كان هذا الشعار ملاذ كلّ الشعوب المضطهدة .

رابعا : تمكّنه من تحديد برنامج واضح لخّصه في رسالته التي بعث بها إلى رئيس الجمهورية الفرنسية آنذاك « هيريو » جاء في هذا البرنامج :

1 - مساواة التمثيل النيابي في البرلمان الفرنسي بين الجزائريين والأوروبيين القاطنين بالجزائر .

2 - إلغاءُ القوانين والإجراءات الاستثنائية الخاصة بالجزائريين في المحاكم الرادعة والمحاكم الجنائية إلغاء كاملا نهائيا ، وإبطال الرقابة الإدارية مع الرجوع إلى القانون العامّ دون قيْدٍ ولا شرط .

3 - نفس الحقوق والواجبات مع الأوروبيين في الخدمة العسكرية .

4 - ارتقاء الجزائريين إلى جميع الرتب المدنية والعسكرية دون تقييد ذلك بشرطٍ سِوى الكفاءة والمقدرة الشخصية .

5 - تطبيق قانون التعليم الإجباري تطبيقاً شاملاً على الجزائريين مع الاحتفاظ بحريّة الاختيار في نوع التعليم .

6 - حرية الصحافة والاجتماع .

7 - تطبيق قانون فصل الدين عن الدولة على الشريعة الإسلامية .

8 - عفوّ عام عن المُعتقلين والمتّهمين .

9 ـ تطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية على الجزائريين .

10 ـ الحرية المطلقة للعمّال الجزائريين من جميع الحِرف والمِهن في الذهاب إلى فرنسا .

ومِمَّا جاء في رسالته التي وَجَّهها إلى الرئيس ويلسون سنة 1919 :

« فأثناء معركة غير متساوية ، ولكنّها رغم ذلك كانتْ مشرِّفةً لأبنائنا ، ناضل الجزائريون طيلة سبعة عشر عاما بمثابَرةٍ وقُوّة لا مثيل لهما بهدَفِ ردِّ المعتدي ، والعيش في استقلال ، ولكنّ حظوظ السلام لم تكنْ للأسف في صالحهم ، ومنذ التسعة والعشرين سنةً التي عشناها تحتَ السلطة الفرنسية ازددْنا فقراً ، بينما ازداد المنتصرون غِنًى على حسابنا » .

وتواصل الرسالة الحديث عنْ خرق الفرنسيين للاتفاقية المعْقودة بين الجزائر وفرنسا ، وعن الوعود المعسولة في الوقت الذي تصادر فيه الإدارة الفرنسية أراضي الجزائريين وتحدُّ من حرياتهم ، وتعتدي على الشعائر الدينية باستعمال المساجد أماكن للتظاهر الفرنسي ، وترهق الأهالي بضرائب تفوق الطاقة .. بل إن الجزائريين كانوا يموتون في سبيل فرنسا بدون مقابل ولا احترام ، كما ورد في الوثيقة نفسها : « إن مآت الألوف قد سقطوا منا في مختلف ميادين القتال ، محارِبين رغم أنوفهم ضد شعوب لا مطمح لهم فيها ولا في أموالها » .

ناضل الأمير خالد نضالا اعتبره بعض الاستعماريين امتدادا لمقاومة جده الأمير عبد القادر ، وهم في ذلك ليسوا مخطئين ، لأنّ نضال الأمير خالد إنما هو حلقةٌ من سلسلة المقاومة الطويلة .. والدليل هو أن الفرنسيين ضاقوا ذرعا بالأمير خالد ، وقرّروا نفْيه من البلاد ، معتقدين

أنهم يستريحون منه بهذه الطريقة ، وتهدأ البلاد بنفي شخص تحوّل إلى رَمز نضال .. إلا أن الوعي الوطني الذي عمّ الجزائر انْتقل إلى العمال الجزائريين في فرنسا ، ولذلك ما كاد الأمير يطأُ أَرض فرنسا حتَّى وجَدَ ترحاباً وطنيًّا رائعا ، تطوَّر إلى شعور وطني عمالي ، وإلى نواة تنظيم وطني فيما بعد ، عُرِف باسم « نجم شمال إفريقيا » ، اختير الأمير خالد رئيسا شرفيًّا له ، تكريماً لكفاحِه ونضاله ، وعن طريق النجم بدأتْ فكرةُ الاستقلال تُخامِر الأذهان ، وتتبلور في النفوس والمحافل السياسية .. ومعنى ذلك أن نضال الأمير خالد لم يذهبْ سدًى ، بل أسفرَ عن نتائج مباركة ، ولم يغادر الوطن إلا بعد أن تسلّم منه جزائريون آخرون راية النضال .



نجم شمال إفريقيا

تأسيس نجم شمال إفريقيا

كتب الدكتور أبو القاسم سعد الله عن نجم شمال إفريقيا ما يلي :
« إن ميلاد نجم شمال إفريقيا كان أحد الأحداث العظيمة في التاريخ السياسي للجزائر ، فقد ساهم بنطاقه واتّجاهه الثوري ، وأمده في تدعيم وتوجيه الحركة الوطنية الجزائرية بشكل فعّال ، والنجم الذي وُلِدَ مِنْ رماد كثير من المحاولات الوطنية في العقود السابقة ، والذي كان يُشجّعه تأييد اليساريين الأوروبيين ، وتطورات الشرق الأدنى ، حاول أنْ يُدخل عناصر جديدة في السياسة الجزائرية ، ولكن مساهمة النجم خلال الفترة المدروسة لم تكنْ مدهشة كثيرا ، لأنه قد واجه عقبات مختلفة من السلطات الفرنسية ، وكان محاربا من الشيوعيين لموقفه الوطني الضيق ، وكان يقوم بنشاطه خارج الوطن ، وقد ساعد على تثقيف الجماهير سياسيا ،ولا سيما المهاجرين الجزائريين في فرنسا وأوروبا ، بالإضافة إلى الطلبة ، كما جعل القضية الجزائرية معروفة عالميا ، ولم تحِن سنة 1930 حتّى بدأ النجم يتسرَّب إلى الجزائر أيضا » (أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية . ج 2 . ص 426) .

حقا ، إن نشأة نجم شمال إفريقيا حدث من « الأحداث العظيمة في التاريخ السياسي للجزائر » وفي تاريخ الحركة الوطنية ، والاتّجاه الاستقلالي الثوري نحوَ الحلّ الجذري للأزمة الجزائرية التي تعقّدت واستفحلتْ بتوغل الاستعمار الفرنسي في كل مرافق الحياة للبلاد

استفحالا أدّى إلى تضعضع الروح الوطنية ، وإلى انتشار التيارات الانهزامية المتردّدة المضطربة ، وتأييد الإدارة الفرنسية للعناصر الاندماجية المتخاذلة التي لا ترى حلا للمشكل الجزائري إلا في الذوبان والاندماج ..

في مثل هذه الظروف انبعث النجم .. في أي مكان ؟ ومن أية طبقة هؤلاء الذين أسسوا النجم ؟

قبل الخوض في هذا الموضوع لابد من الإشارة إلى أن هناك دراسات قدمت حول نجم شمال إفريقيا ، كانت لحد الآن غير كافية ، ما عدا الأطروحة التي قدّمها الدكتور زوزو عبد الحميد تحت عنوان « دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية بين الحربين (1919 ـ 1939) » ، وقد أدرك زوزو ما يمكن أن يجول في أذهان البعض إذا ما استعرض أيٌّ باحث الجهود الوطنية ، وتأثير نجم شمال إفريقيا على الحركة الوطنية .. يجول في بعض الأذهان أن هناك مبالغة أو إعجابا مفرطا .. فقال تنبيها لهذا البعض : « وقد يبدو للبعض أن هذه الدراسة فيها إعجاب « بالبطل » ، وهو هنا النجم وخلَفُه حزب الشعب ، وإذا كانت تبدو كذلك ، فهي لا تزيد في نظرنا عن كونها تعبيرا عن الواقع بكل موضوعية ، لأن الرسالة هدفها تحقيق عمل مثمر نزيه ، خال من كل عاطفة ، ومجرد من كل ميل » .

من الطبيعيّ أن يُلاحَظ وجودُ فراغ في التاريخ لحزب « نجم شمال إفريقيا » ، ووريثيه « حزب الشعب الجزائري » ، و « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » اللذيْن ورثا النجم تنظيما ومَبادِئَ ، ولهذا الفراغ أسباب :

- أن الحزب ورجاله استنفدتهم العمليات النضالية اليومية ، ولم تُمكِّنْهم من فرصة لتسجيل الأحداث والتطورات التي عاشها الحزب .

- وضعية الحزب السّرية التي كانت تقتضي تجنُّبَ التسجيل ، حفاظا على السرية ، خاصة وأن الشرطة تلاحق أعضاءه يوميا .

- تكوين الحزب نفسه .. فقد تكوّن في بداية الأمر من فئة العمال ، التي لا تمتلك ثقافة تساعدها على الكتابةوالتّسجيل والتحليل .

- المضايقات البوليسية للحزب ورجاله ، والتفتيشات التي انجرَّ عنها في كثير من الأحيان حجزُ كميات هائلة من الوثائق والتقارير والمناشير والصحف .

هذه الأسباب جعلت أكثرية الذين يتصدَّون للكتابة عن النجم ، أو حزب الشعب الجزائري ، أو حركة الانتصار للحريات الديمقراطية ، يلجأون إلى الشهادات الشخصية أكثر مما يلجأون إلى الوثائق ، ويراجعون تقارير الشرطة الفرنسية والولاية العامة .

ونحن بهذه المناسبة لا نستطيع التطرق إلى حياة النجم من جميع الجوانب وإنما سنركز على البعض الذي يبيِّن أهمية هذا التنظيم ودوره في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية والعمل الثوري .

أولا : قبل عام 1926 لم يحدّثنا تاريخ الجزائر خلال الفترة الاستعمارية عن عمال تزعّموا تنظيما ، أو انتفاضة ، أو ثورة ، بل حدّثَنا عن زعماء دينيين ، وعن رؤساء قبائل ، وعن شخصيات اشتهرت بثقافتها أو بمركزها الإداري أو المالي أو العائلي ، ومن مراجعتنا لِسِجّل المقاومة نجدُ أن المقاومة دائما تتشكّل من عنصرين : عنْصر الزعماء ،

وعنصر الفلاحين ، وأنه غالبا ، ما تنطلق المقاومة المسلحة من الأرياف ، ولم يكن حظٌّ المدن فيها كبيرا .

أما في عام 1926 ، فإننا نجدُ أن العامل الجزائري الذي غادر بلاده طلبا للعيش ، واكتسابا للرزق ، أو فِراراً من الاضطهاد ، يبْقى رغم الغربة والهجرة والبعد مرتبطا ببلده ، فيشتَدُّ به الحنين ، ويُقارن بين مستوى حياة الفرد في فرنسا ، وحياة الفرد الجزائري في فرنسا ، ويلاحظ الحيف والجور والاستغلال الفظيع ، ويتألم حين يرى نفسه عاجزا عن تحديد هويته الوطنية !. إنه يعرف ويتأكد بأنه جزائري ، ويعتز بهذه الجزائرية ، إلا أن الوثائق والبطاقات الشخصية التي يحملها ، تحمِل في طياتها وسطورها مسخاً لجزائريته ، فلا هو بالفرنسي الذي يحقٌّ له أن يتمتّع بما يتمتّع به الفرنسي ، ولا هو بالجزائري الذي يحقٌّ له أن يتباهى بنسبته لبلاده ، ولا هو بالمسلم الذي يجدر به أن يعتزّ بدينه وأصالته .. ولهذا نراه يبحث عن هويته في اجتماعاته مع إخوانه ، في إقباله على المحاضرات واللقآت التي تتحدث عن بلاده ، وعن كل ما يربطه بها .

ما إن تسامع العمال الجزائريون بوجود الأمير خالد بينهم ، حتى هرعوا إليه يشْتَمُّون فيه رائحة الوطن ، ويقدِّرون فيه شهامة المقاوم ، ويَسْتَمعون في شوق ولهْفة لخُطَبه ومُحَاضَراته وأحاديثه التي كان لها صداها في أوساط الهجرة ، وخلقَتْ جوًّا من التّضامن والإخاء بين العمال الجزائريين على أساس الصلة الوطنية لا القبلية .. ولا الجهوية .. وأحدثتْ هذه الصلات استعدادا وطنيا ونفسيا لدى المهاجرين .

ثانيا : الروح الوطنية تغلّبتْ علىكل النوازع والعوامل الذاتية في أفراد تنظيم « نجم شمال إفريقيا » رغم ثقافتهم المحدودة ، وبهذه الروح

تمكّنوا من توحيد صفوفهم ، وتكوين تنظيماتهم ، وشُعَبهم ، مستغلّين وضْعَهم النقابيّ الذي يُتيح لهم نوعاً من التحرك .. وتدعيمَ الحزب الشيوعي لهم مُقابل أن يُدعِّموه ضدّ أحزاب اليمين من ناحية ، وضدّ الحزب الاشتراكي من ناحية أخرى .. رجال النجم احتفظوا بشخصيتهم الجزائرية التي عجزتِ الإيديولوجية الشيوعية عن إذابتها داخل تنظيم شيوعي واسع ، كما عجزت عن تسخيرهم ، وحَصْرِ نشاطهم داخل المطالب الاقتصادية والاجتماعية للعامل الجزائري ، وهي المحاولات التي اضطرت النجم فيما بعد إلى الاصطدام بالحزب الشيوعي ، وإلى إعلان استقلاليته ، وهو يعلم ما تجرُّه الاستقلالية من مضايقات وملاحقات ومحاكات ..

ثالثا : الاستعداد لتحمل المسؤولية .. يبدو من خلال تتبع نشاط رجال « نجم شمال إفريقيا » أنهم كانوا شاعرين بمسؤوليتهم التاريخية النابعة من تاريخهم القديم ، ولذلك رفضوا التوقف عند حدود المطالب الاجتماعية النقابية البسيطة ، وقاموا بواجبهم في التشنيع بالوضع السيّء الذي تعيشُه بلادهم .. وإلى تنبيه الرأي العام الفرنسي والعالمي ، وتزويدهما بمعلومات حول القضية الجزائرية .

تحمّل رجال النجم مسؤوليتهم داخل الحزب الشيوعي ، على أن يكون هذا الحزب نصيرا للحرية ، وللشعوب المسْتَعمَرة .. وتحمّلوا أيضا مسؤوليتهم داخل النقابات ، على أن تكون هذه المنظمات النقابية إنسانية عادلة ، لا تفرق بين العامل في الجزائر ، والعامل في فرنسا ، وركّزوا داخل هذه النقابات على مبدأين : الديمقراطية والمساواة .. وتحمّلوا مسؤوليتهم الوطنية أخيرا عندما أصدروا خارج هذين التنظيمين الشيوعي والنقابي مناشير خاصة بالقضية الجزائرية ، وأنشأوا صحافة وطنية تعبّر عن مشاعر الجزائريين ، وأعطوا لصحافتهم عناوين تتحدّى الإدارة الفرنسية والسياسة الفرنسية ، فسمّوْا صحيفتهم الأولى « الإقدام

البـاريسي » ، وفي هـذا تعبير كبير على التـواصـل الـوطني بين الجـزائر كبلد ، وفرنسا كمهجر .. فالإقـدام كانتْ تصـدر بـالجزائر تحت مسؤوليـة الأمير خالد ، ومُنعَتْ من الصدور بأمر من الادارة الفرنسية ،. وها هي تصـدر في بـاريس عن طريـق العمال المهـاجرين .. فهـو تحـدٍّ وتـواصـل وارتبـاط وثيق .. وأيضـا سمَّوا صحيفتهم بعـد ذلـك « الأمـة » في الوقت الذي تحاول فيه فرنسـا القضـاء على كل مقومـات الأمـة الجزائريـة ، بل نرى أن رجـال النجم حينمـا أصـدروا صحيفـة « الأمـة » نصُّوا على أنهـا « جريـدة وطنيـة سيـاسيـة للـدفـاع عن حقوق مسلمي شمال إفريقيـا » ورسَمُوا في صـدر الصفحـة الأولى رسْماً للهـلال والنجمـة ، ومـلأوا داخـل الهلال بالآيـة القرآنيـة الكريمـة « واعتصموا بحبل الله جميعـا ولا تفرقوا » كل هذا عرَّض النجم ورجاله لمضـايقـات ومنـاورات من طرف الحزبيين الفرنسيين ، وبـدل أن يفشلوا أو يخضعوا للمسـاومـات ، وجـدنـا رجـال النجم يشتركون رغم الضغوط في مؤتمر بروكسـل عـام 1927 وهـو مـؤتمر نظمته « الجمعية المعادية للاضطهـاد الاستعماري » وحضرتـه وفودٌ من كل القـارات .. وفي هـذا المؤتمر العـالمي ، وأمـام شخصيـات عـالميـة مشهورة أمثال نهرو وحتّا يُعلن رجال النجم مطالبهم ، ومن أهمّها :

1 ـ الاستقلال الكامل للجزائر .

2 ـ جلاء الجيش الفرنسي عن التراب الجزائري .

3 ـ إنشاء جيش وطني .

4 ـ إنشاء برلمان وطني جزائري .

ومن هنا نستطيع أن نؤكد بأن النجم اتخذ مسارا وطنيا صِرفا بعيـدا عن كل التـأثيرات .. والضغوط .. بفضل الروح الـوطنيـة الفيـاضـة التي كان رجاله يَتحلّون بها .

رابعا : الصلابة في المبدإ .. ذكر الدكتور زوزو عبد الحميد مبدأ النجم قائلا : « تبنَّت منظمة نجم الشمال الإفريقي إيديولوجية متطرفة من البداية ، ولكنها واضحة وعميقة .. فهي إيديولوجية متطرفة لانطلاقها من مفهوم « الاستقلال » وقد كانت المطالبة به وقتها ضربا من التطرف ، ونشدانا للمستحيل » .

ولم يكتف الدكتور زوزو بتقرير هذه الحقيقة ، بل أجرى مقارنة بين مطالب النجم كحركة وطنية ، وحركات وطنية عربية أخرى ، للتأكيد على أن النجم كان رائدا ، ومتقدّما على تنظيمات عربية أخرى .. فقال : « وفي إمكان المرء تصور ريادة هذا المطلب بمقارنته بمطالب الحركات الوطنية الأخرى ، فكلٌ من الحركة الوطنية المصرية والتونسية مثلا ، وقد خضعَت كلتاهما لاستعمار أقل عنفا من استعمار الجزائر ، لم تطالب في البداية بالاستقلال هكذا صراحة ، وإنما كانت تشير إليه ضمنا من خلال مطالبتها بالدستور والجلاء » .

ولم يغفل زوزو تعليل ذلك قائلا : « ولعل تأكيد النجم على الاستقلال في نظرنا كان متناسباً مع شدة طبيعة النظام السياسي في الجزائر ، ومع عنف القوانين المكبِّلة للشعب الجزائري ، فالجزائر كانتْ قد جُرِّدتْ من شخصيتها السياسية ، وأُعلِنت « بقانون إلحاقي اعتباطي » جزءاً من فرنسا كما جُرِّد شعبها من حقه في الحياة بخضوعه لقوانين استثنائية جائرة » .

إذن ما دام المطلب ساميا وغاليا ، فإن التضحية لابد أن تكون جسيمة ، ولابد أن تكون المعركة طويلة وحادة ، وهو ما أدركه مؤسِّسو النجم منذ البداية ، فأعدُّوا أنفسهم للتضحية ، وتحدَّوا الاستعمار في عقر داره ، وتحمّلوا كل النتائج .. وتعرّض حزب « نجم شمال إفريقيا »

للحل . وبقيتْ إدارة المؤسِّسين صلبة متماسكةً .. وكلما حُلّ التنظيم بقرار إداري ، أعادوا تشكيله بعنوان آخر جديد ، حتى عام 1937 حيث أسسوا « حزب الشعب الجزائري » على أساس أن يتخذ من أرض الوطن ميدانا لنشاطه بعد أن ظهرت الأفكار الاندماجية بحدّة إثر المؤتمر الإسلامي الذي انعقد عام 1936 .

وهكذا تبدو الصلابة في العناصر الآتية :

1 ـ تخلص رجال النجم من الهيمنة الحزبية السياسية الشيوعية .

2 ـ برهنتهم على مقدرتهم في التنظيم والكفاح .

3 ـ التصميم على أن لا ينحلّ الحزب بمجرد قرار إداري .

4 ـ الاستعداد للتضحية في سبيل المبدإ .

وفعلا .. لقد استشهد المآت من رجال حزب الشعب الجزائري ، وعلى رأسهم : كحال آرزقي ، دوار محمد . إبراهيم غرافة . السعيد الاعجل . وأصيب الآلاف من مناضليه بأمراض خطيرة نتيجة التعذيب والسجون .

خامسا : التكوين الثوري .. وهذا أهم ما يمتاز به هذا الحزب .. ما دام مبدأ الاستقلال مبدأ ثوريا ، وإيديولوجية تهدف إلى تغيير الأوضاع السائدة ،. وما دام الاستقلال مطلبا ثميناً ، يُنتزعُ بالقوّة ولا يُوهب .. فإنّ على الرجال الذين يعتنقون هذا المبدأ أن يكونوا في مستوى الطموح الثوري ، وفي مستوى عملية التغيير الجذري .

وهذا ما جعل النجم والحزب فيما بعد يخوضان المعركة الاستقلالية بضراوة مستعملين أساليب قاسية قساوة الكفاح الثوري التي لا يتفطّن إلى شراستها العديد من الجزائريين آنذاك .. أو قد لا يتصورها شباب

اليوم .. ومن هنا كانت مهمة النجم صعبة .. ابتدأ أولا بنوعية ، العمال ، وإعادة الثقة إليهم ، حتى ينخرطوا ويشتركوا في الاجتماعات ، وتكْليفهم بمهام من حين لآخر ، قَصد انتزاع عُقَدِ الخوف والنقص من نفوسِهم ، وفي الخطوة الثانية دخل الحزب مرحلة فرْضِ وجوده بطبع المناشير وتوزيعها ، وتأسيس وطبع الصحافة وتوزيعها ، وبالتنديد بمساويء الاستعمار ، والتشهير بفظائعه ، عن طريق الاحتجاجات والتظاهرات والتجمعات .

وجاءت المرحلة الثالثة وتتمثل في خلق المشاكل للإدارة الفرنسية بالقيام بأعمال تخريبية بين الفينة والأخرى ، وبالكتابة على الجدران .

أما المرحلة الأخيرة فانصبّت في التفكير جديا في تنظيم ثورة ، تتعدّى حدود الاحتجاجات والتنديد .. وتتجاوز الكتابة على الجدران وإطار القيام بمظاهرات .

وقد انعكس هذا التكوين الثوري على ثورة أول نوفمبر 1954 ، حيث تغلبت الإرادة على الخوف والتردد ،. وحيث حل التنظيم الجماهيري محل الفوضى والغَوْغَائِية المعتادة في الانتفاضات السابقة .. وحيث تحمّل كل فرد في هذه الأمة مسؤوليته ..

ولا يفوتنا قبل الانتهاء من الحديث عن النجم إيراد ما كتبه الدكتور عبد الحميد زوزو في كتابه « دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين (1919 ـ 1939) ، قال الدكتور زوزو : « كان دور النجم وحزب الشعب في الحركة الوطنية الجزائرية خلال فترة الحربين إيجابيا ، بتوعية العمال توعية قومية ، وكان هؤلاء العمال ، بتنقلاتهم ـ كالتيار ، ينشرون الوعي ، وينقلونه بين

الجزائر وفرنسا ، وكان دور النجم وحزب الشعب إيجابيا أيضا بتعريفه بالحركة الوطنية الجزائرية في فرنسا وخارجها ، وإطلاع الرأي العام على الوضع الشاذ للجزائر المحتلة ، وأخيرا تدعيم الحركة الوطنية الجزائرية بإيديولوجية وأسلوب عمل ، وباللعبة الحزبية والجرأة السياسية مِمَّا ساعدها على استئناف نشاطها بعدَ أن وضعتِ الحرب العالمية الثانية أوزارها » .



جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

التنظيم الوطني الثاني الذي ظهر بعد تأسيس النجم بحوالي خمس سنوات هو تنظيم « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » ، ولهذا التنظيم أهميته في تاريخ النهضة الجزائرية الحديثة ، وفي تاريخ الإصلاح الديني بالمغرب .

وأهميتُه تَبدو من خلال استعراض بعض العناصر ذات التأثير في التاريخ الجزائري الحديث ، ومن بينها :

أولا : أن تأسيس « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » عام 1931 جاء إثر احتفال فرنسا بمرور قرن على احتلالها للجزائر ، وهو احتفال أعطته من العناية والميزانية عناية فائقة ، وأظهرت فيه من الأبّهة والفخفخة واستعراض القوة ما دلّ على أنها لا تحتفل بمرور القرن فقط ، وإنما كانت تحتفل بتوصُّلِها إلى القضاء على مقومات الشخصية الجزائرية ، وعلى المقاومة المسلّحة .

ثانيا : في خلال القرن انتزعت فرنسا اليهود من الحظيرة الجزائرية ، واعتبرتْهم فرنسيين يتمتّعون بالحقوق الفرنسية بمنْحهم الجنسية الفرنسية ، وسخّرتْهم مُقابل ذلك لَمصالحها ، وسلّطتهم في بعض الأحيان ضد المواطنين الجزائريين ، ومكّنتْهم من التوظّف في مراكز ومناصب حسَّاسة .

ثالثا : مُنِحت الجنسيّة الفرنسية لكل الأشخاص الذين ولدوا بالجزائر من أبوين أجنبيين ، وبذلك يحقّ للأجانب وأبنائهم ، ولليهود وأبنائهم أن يتمتعوا بكامل الميزات الفرنسية الحاكمة .

رابعا : استولتْ فرنسا على أراضي الأفراد ، والقبائل والأعراش ، ووزعتْها على الأوروبيين الوافدين ، إمّا مع الجيش الفرنسي المحتل أو مع المغامرين ـ بقصدِ إضعاف الروح القبلية ، والقضاء على المِلْكية الوطنية .

خامسا : حوّلتِ المساجد إلى كنائس ، وإصطبلات ، ومخازن ، وهدمَت الكثير منها ، واستحوَذتْ على أوقافها ، وشوّهتِ المعالِم الإسلاميةَ .

سادسا : قضتْ على التعليم الوطني ، واضطهدتِ اللغة العربية بتقليص عدد الكتاتيب القرآنية ، ووضع قيود وتشريعات تحدُّ من فتحِ أي كتّاب أو مدرسة لتعليم القرآن واللغة العربية ، وأيضا بمضايقة الزوايا التي كانت تعتبر بمثابة الثانويات ، ولم تسمح بالتعليم فيها إلا بشروط خاصة ، وتحْت مراقبة دقيقة بهدف القضاء على الثقافة الوطنية ، وبعثرةِ التراث ، ومسخِ المقوّمات .

سابعا : اعتدَتْ على القضاء بانتزاع اختصاصات المحاكم الشرعية ، وحاولتْ تشجيع القوانين العرفية في كل منطقة ، وابتدأت بمنطقة القبائل ، فلم تنجح في حمل السكان على التخلي عن الشريعة الإسلامية إلى التقاليد والعرف . وبذلك فشل مخططها ، كما فشل الظهير البربري بالمغرب .

ثامنا : طبّقت سياسة التفريق بين العناصر المتساكنة ، وأرادت أن تخْلُقَ من سُكَّان الجزائر شعوبا ، لايربط بينها رابط .. بل أثارت النعرات القبلية حتى في داخل المنطقة الواحدة .

وخلال الاحتفال القرني أظهر الفرنسيون ـ وهم اللائكيون ـ حقدا دينيا ، أو عودَةً إلى الصليبية . حتى أن أحدهم قال : « إن احتفالنا اليوم ليس احتفالا بمرور مائة سنة على احتلالنا الجزائر ، ولكنه احتفال بتشييع جنازة الإسلام » ، وقبل ذلك أي عام 1926 كتبتْ جريدة فرنسية بمناسبة القضاء على ثورة الريف ، وإلقاء القبض على الأمير عبد الكريم : « لقد استسلم عبد الكريم الخطابي من غير شرط ، وخضَع لحماية فرنسا ، ذلكَ ما كنَّا نبغِي ، فالحادِث مُهِمٌّ ، فهو يضربُ الإسلامَ في الصميم ، وفي وُسْعِنا الآن أن نفتِكَ بهذا الدين الفتك الذريع » ومما قالهُ حاكم تبسة في خطابه « إننا جئنا (أي الفرنسيين) إلى الجزائر لندفن القرآن لا ليحيا » .

لقد أظهر الاحتفال القرني هذه الروح الصليبية الّتي عَفَّى عليها الزمن ، وتجاوزتْها الأحداث ، وحدث نتيجة هذه الاستفزازات الدينية ردٌّ فعل لدى الجزائريين ، فالتفُّوا حول الاسلام ، وتشبثُّوا به أكثر من الماضي .. إلاَّ أنّه لابد من تنظيم يُدافع عن الإسلام ، ويقود المسلمين في طريق الإسلام الصحيح النقي البعيد عن الشعوذة والخرافات التي انحرفتْ بالإسلام ، وأبعدَتْ علماءه عن جادة الكفاح ، بينما كانوا في القديم أثناء المقاومة ، والانتفاضات القادةَ ، ورُموز الوطنية ، وقد لاحظ هذا الفراغ الدكتور أبو القاسم سعد الله ، فقال : « إن تجنيد العلماء كان قد توقّف تقريبا في الجزائر كما لاحظ دي توكفيل حوالي منتصف القرن الماضي منذ الاحتلال ، وقد لاحظْنا أن هؤلاء العلماء

الـذين كانـوا مهتمين ومضطهـدين قـد هــاجروا إلى الشرق الأدنى ، وإلى الجـارتين تـونس والمغرب ، وبقي آخرون منهم في الجـزائر ، ولكنّهم نَمـوا شـاكّين في الإدارة الفرنسيـة ، ومـا دام بعض هـؤلاء العلمــاء غربـاء في وطنهم ، وطموحين من أجل المعرفـة والـزعـامـة ، فـإنهم أصبحـوا واعين سياسيا ، ومصلحين ليبراليين ، وعندما سمِعُوا بحركة الجامعة الإسلامية في أواخر القرن المـاضي انجـذب بعضُهم إلى المـذهب الجـديـد ، وحــاول أن يستعملـه من أجل أهـدافٍ إصلاحيـة في الجزائر » (د. أبو القـاسم سعـد الله . الحركة الوطنية .ج 2 . ص 428) .

إذن فـإنشـاء « جمعيـة العلمــاء المسلمين الجـزائريين » كان في الـوقت المناسب ، وكان ضرورة قصوى تقتضيها الظروف والتحديـات ، ردًّا على الادّعاآت الاستعمارية بأن عهـد الإسلام انتهى ، وبـأن الثقـافـة العربيـة الإسلامية اندثرت ، ولم يَعُدْ لها وجود ، وأيضا كان مناسبة لعودة العلماء إلى ميدانهم في القيـام بواجبهم النضـالي ، أسوة بزملائهم في الشرق العربي الذين ساهموا في إيقاظ الوعي الإسلامي .

في مثل هذه الظروف ظهرت « جمعيـة العلمـاء المسلمين الجزائريين » وتشكّلت من عِـدّة علمـاء ، من أبرزهم في ميـدان الـدعوة إلى الاصلاح : عبـد الحميــد بن بــاديس . البشير الابراهيمي . الطيب العقبي . مبــارك الميلي .

أما دعوتها ورسالتها فقد أوضحها ابن باديس بقلمه في مقال لـه تحت عنوان : « دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأصولها » جاء فيه :

1 ـ الإسلام هو دين الله الخالد الذي وضعه لهـدايـة عبـاده ، وأرسل به جميع رسله ، وكمّله على يد نبيه محمد الذي لا نبِيَّ بعده .

2 ـ الإسلام هو دين البشرية الذي لا تسعَدُ إلاَّ به ، وذلك لأنه :

أولا : كما يَدعو إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين ، يذكِّر بالأخوةِ الإنسانية بين البشر أجمعين .

ثانيا : يسوِّي في الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين جميع الأجناس والألوان .

ثالثا : لأنه يفرض العدل فرضاً تامًّا بين جميع الناس بلا أدنى تمييز .

رابعا : يدعو إلى الإحسان العام .

خامسا : يحرم الظلم بجميع وجوهه ، وبأقل قليله من أي أحد على أي أحد من الناس .

سادسا : يُمجِّدُ العقْل ، ويدْعو إلى بناء الحياة كلّها على التفكير .

سابعا :ينشر دعْوتَه بالحجة والإقناع ، لا بالختل والإكراه .

ثامنا : يترك لأهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبقونه كما يشاءون .

تاسعا : شرَّك الفقراء مع الأغنياء في الأموال ، وشرع مثل القراض والمزارعة والمغارسة ، مِمَّا يظهر به التعاون العادل بين العمال وأرباب الأراضي والأموال .

عاشرا : يدعو إلى رحمة الضعيف ، فيُكفَى العاجز ويُعلَّم الجاهل ، ويُرشَدُ الضال ، ويُعان المضطرُّ ، ويُغاثُ الملهوف ، ويُنْصَر المظلوم ، ويُؤخذ على يد الظالم .

حادي عشر : يحرِّم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه .

ثاني عشر :يُجعل الحكم شُورى ليس فيه استبداد ولو لأعدل الناس .

3 ـ القرآن هو كتاب الاسلام .

4 ـ السنة القولية والفعلية الصحيحة تفسير وبيان للقرآن .

5 ـ سلوك السلف الصالح ـ الصحابة والتابعين وأتباع التابعين ـ تطبيق صحيح لهدي الإسلام .

6 ـ فهوم أئمّةِ السَّلف الصالح أصدقُ الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة .

7 ـ البدعة كل ما أُحدِث على أنّه عبادة وقُربة ، ولم يثبُتْ عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فِعلُه ، وكلٌّ بدعةٍ ضلالة .

8 ـ المصلحة كلٌّ ما اقتضَتْه حاجةُ الناسِ في أمر دنياهم ، ونظام معِيشَتِهم وضبط شؤونهم ، وتقدُّم عمرانهم مِمَّا تُقِرّه أصول الشريعة .

9 ـ أفضلُ الخلق هو محمد صلى الله عليه وآله وسلّم ، لأنّه :

أولا : اختاره الله لتبليغ أكمل شريعة إلى الناس عامة .

ثانيا : كان على أكمل أخلاق البشرية .

ثالثا : بلّغ الرسالة ومثّل كمالها بذاته وسيرته .

رابعا : عاش مجاهدا في كل لحظة من حياته في سبيل سعادة البشرية جمعاء حتى خرج من الدنيا ودِرعُه مرهونة .

10 ـ أفضل أمته بعده هم السلف الصالح لكمال اتباعهم له .

11 ـ أفْضلُ المؤمنين همُ الذين آمنوا وكانوا يتّقون ، وهم الأولياء والصالحون ، فحَظٌّ كل مؤمن من ولاية الله على قدْر حظِّه من تقوى الله .

12 ـ التوحيد أساس الدّين ، فكلٌّ شِرك ـ في الاعتقاد أو في الفِعل ـ فهو باطل مردود على صاحبه .

13 ـ العمل الصالح المبنيُّ على التوحيد ، به وحده النجاة والسّعادة عند الله ، فلا النسب ، ولا الحسب ، ولا الحظ ، بالذي يغني عن الظالم شيئا .

14 ـ اعتقاد تصرُّف أحد من الخلق مع الله في شيء مَّا شِرك وضلال ، ومنه اعتقاد الغوْث والديوان .

15 ـ بناء القباب على القبور ، ووقْدُ السُّرُجِ عليها ، والذّبْح عندَها لأجلها ، والاستغاثة بأهلها ، ضلال من أعمال الجاهلية ، ومضاهاة لأعمال المشركين ، فمن فعله جهْلاً يُعَلَّمُ ، ومن أقرَّه مِمَّن ينتسب إلى العلم فهو ضال مُضِلٌّ .

16 ـ الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف ، ومبناها كلُّها على الغلوّ في الشيخ ، والتميّز لأتباع الشيخِ ، وخدمة دار الشيخِ ، وأولاد الشيخ إلى ما هناك من استغلال .. ومن تجميدٍ للعقول ، وإماتةٍ للهِمم ، وقتْلٍ للشعور ، وغير ذلك من الشرور .

17 ـ ندعو إلى ما دعا إليه الإسلام ، وما بينّاه منه من الأحكام بالكتاب والسنة وهدي السلف الصالح من الأئمةِ مع الرحمة والإحسان دون عداوةٍ أو عُدوان .

18 ـ الجاهلون والمغرورون أحقُّ الناس بالرحمة .

19 ـ المعاندون المستغلون أحقُّ الناس بكلِّ مشروع من الشدة والقسوة .

20 ـ عند المصلحة العامة من مصالح الأمة يجبُ تناسي كل خلاف يفرِّق الكلمة ، ويصدع الوحدة ، ويوجد للشرّ الثغرة ، ويتحتَّم التآزر والتكاتف حتَّى تنفرج الأزمة ، وتزول الشِّدّة بإذن الله ، ثُمَّ بقوّة الحق وادِّراع الصبر وسلاحِ العلم والعمل والحكمة .

« قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنـاومن اتّبعني ، وسبحـان الله ، وما أنا من المشركين » .

بهذه الآية القرآنية الكريمة أنهى ابن بـاديس توضيح دعوة الجمعيـة ».
وإذا كان ابن بـاديس : البـادىء في تـوضيـح الـدعـوة ، فـإن البشير الابراهيمي كان المبرز في تحديد مواقف الجمعية من قضايا الساعة آنـذاك ، في مقـال لـه طويل بسجلّ مؤتمر « جمعيـة العلمـاء المسلمين الجـزائريين » حين تنـاول الابراهيمي مـواقف الجمعيـة من الطرقيـة . التعليم . البـدع والمنكرات العامة . الإلحاد . التبشير . بقية الرذائل .

ومما جـاء في ختـام مقـال الابراهيمي الرائع قولـه : « جمعيـة العلمـاء جمعيـة علميـة دينيـة تهذيبيـة ، فهي بـالصفـة الأولى تعلّم ، وتـدعو إلى العلم ، وترغّب فيـه ، وتعْمـل على تمكينـه في النفـوس بـوسـائـل علنيـة واضحة لا تتستّر ، وهي بالصفة الثانية تعلّم الدين والعربيةَ لأنهما شيآن متلازمان ، وتدعُو إليهما ، وتُرغّب فيهما .. وبالصفـة الثـالثـة تـدعو إلى مكارم الأخـلاق التي حضّ ـ الـدين والعقـل عليهـا ، لأنّهـا من كمالِها ، وتحـارب الرذائل الاجتماعيـة التي قبّح الـدين اقترافهـا ، وذمّ مُقْترفيهـا .. وتعمَل لترقية فِكر المسلم بمـا استطـاعتْ ، وتُرشِـده إلى الأخـذ بـأسبـاب الحياة الزمنية .. والجمعية فيما وراء هـذا مرتبطـة بـالعـالم الإسلامي أفرادا وشعوبا بما يترابط به المسلمون من حقـائق دينهم ومظـاهره .. وفيما عـدا هذا ، فالجمعية جزائرية محدودة بحدود الجزائر ، مرْبوطة بقانون الجزائر ، لأن أعضاءها كلّهم من أبناء الجزائر » .

اعتمدت الجمعية في القيام بـدعوتها ورسـالتهـا على نفسهـا ، فجنّـدتِ الجماهير ، وبذَلتْ ما في وسعها لتثقيفهـا وتعليمهـا ، وتوعيتهـا ، مستعينـة أو مستعملة وسائل العصر الحديث ، مثل :

الصحافة : وبما أنها تعتبر من أهم وسائل العصر الحديث ، فقد اعتمدتها الجمعية في تبليغ دعوتها ، وتوعية الرأي العام ، وأنشأت نشراتها الأسبوعية ، ومجلاتها الشهرية ،. وتعرضتْ جميعها لمضايقات الإدارة الفرنسية .

المدرسة : وبواسطة بناء المدارس خرجت الجمعية عن الطرق التقليدية المألوفة في الكتاتيب القرآنية ، والزوايا المعروفة ، وخاصة حينما جهزت مدارسها بوسائل عصرية حديثة ، تُرغِّب الأطفال في تعلُّم دينهم ولغتهم ، وتزودهم بالمعلومات العصرية الهامة .. وقد بلغتْ هذه المدارس شأواً عظيما ، حتى أنها تحوّلت إلى مزاحمٍ ومُنافس للمدارس الرسمية الفرنسية ، ومن أجل ذلك تعرَّضتْ وتعرّض معلموها والقائمون بها إلى المضايقات والملاحقات .. ولربّما يعودُ الفضل إلى هذه المضايقات في إقبال الشعب على بناء المدارس الحرة ، والتفافه حولها كقلاع للعروبة والإسلام ..

النادي : ومن المعروف في العالم أن لكل ناد مهمة خاصة ، أما النادي في الجزائر فله مهمات باعتباره مركزا من مراكز التربية والتعليم والتوعية ، أو مركزا من مراكز التثقيف والإعلام ، يلتقي فيه الشبان والشيوخ والجهال والمثقفون ، وكل الطبقات الشعبية ، واستطاع بهذا اللقاء الواسع أن يُقدِّم خدمات معتبرة في ميادين الإصلاح الديني ، والتوعية السياسية ، ونشر الثقافة العربية الأصيلة .

المسجد : قديما كان المسجد قلعةً ، ومدرسة ، ونـاديا .. والاستعمار جرّد المسجد من مهامه الأصلية التي كان يتمتع بها ، وتتمثل في كونه قلعةً يتكوّن فيها المجاهدون ، ويُعلن فيها الجهاد ،. ومدرسة يتعلم فيها الصّغار مبادىء دينهم ، ويتفقّه فيه الكبار .. وناديا تلتقي فيه طبقات

الأمة وتتبادل الآراء حول قضايا العصر ، ومشاكل الأمة . ولهذا كان المسْعَى الأول لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، هو أن تستعيد المساجدَ الإسلامية ، وتُعيد لها ماضيها المشرق ، في الدعوة ، وتأليف القلوب ، وتوحيد الكلمة .. ولم تقف عند حدود المطالب باستعادة المساجد ، بل عمدَتْ إلى بناء مساجد حرة يعلو فيها صوتُ الحق جهيرا ، ودعوةُ الاسلام داوية ، مخيفة .. لأنها دعوة تدعو المُسلِم إلى الاعتماد على النّفس ، وإلى نبذ التواكل والتخاذل ، وتُقدِّم الإسلام في مفهومه القويّ كقوّة معنوية ، وطاقة خلاّقة ، على عكس ما أشاعتْه الخرافات ـ بتشجيع من الاستعمار ـ بأن الإسلام دين القضاء والقدر ، بالمفهوم الاستسلامي الذي دفع المستعمرين إلى الادّعاء « بأن الله هو الذي مكّنهم من احتلال الجزائر » و « بأن القضاء والقدر هو الذي عمّم سيطرة فرنسا على الجزائر » .

فتأسيس الجمعية في مثل هذه الظروف ، يعتبر حدثا وطنيا هاما ، يوازي في أهميته حدث تأسيس نجم شمال إفريقيا ، خاصة في الثلاثينات والأربعينات .

ولئن اتّجه النجم وجهة المقاومة السياسية الاستقلالية الثورية ، فقد اتجهتِ الجمعية وجهة المقاومة الدينية الثقافية الوطنية ، فأقبلت الجماهير على الانخراط فيها ، والتحمس لها بوصفها « تيار مقاومة » .



حوادث قسنطينة
أوت 1934

حوادث أوت 1934 بقسنطينة

شرع الجزائريون في العمل السياسي منذ عام 1919 ، وانهمكوا في سياسة تقديم المطالب واللوائح ، والاشتراك في حملات الانتخابات للمجالس المحدودة ، ولم يسجل خلال هذه الفترة إلا حدثان هامان هما :

1) تأسيس نجم شمال إفريقيا

2) تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

وفي عام 1934 حدثتْ حادثة استلفتت الأنظار ، واكتستْ صبغةً خاصة ، وهي حادثة الاصطدام بين مسلمي قسنطينة ويهوديّيها في شهر أوت من عام 1934 ، وتعتبر مؤشرا خاصا على مدى الغليان النفسي لدى الجماهير ، ولذلك أعطتْها الجهات الفرنسية اهتماما خاصا وعلّقت صحيفة « البرقية الجزائرية » (La dépéche algérienne) على هذه الأحداث بقولها : « لقد كان من شأن حوادث 5 أوت أن جعلتْ فرنسا تهتمُّ بقضايا الجزائر » ، لأنها حوادث - في ظاهرها - لا تتجاوز مجرد اشتباكات طارئة بين مسلمي قسنطينة ويهودييها ، بينما هي في الحقيقة أعمق من ذلك ، رغم أنها تفجّرت صدفة ، وشملت مساحة محدودة ، ولم تمتد إلا فترة قصيرة ، وقد أشار محفوظ قداش إلى هذه الحقيقة في مقال له : « فلا يمكن أن نستغرب من بعض الصدف ، فحوادث قسنطينة وإن كانتْ محلية محدودة في الزمان ، كانت تعكس مشكلا عاما ، هو مشكل الجزائر الإسلامية » .

ذلك لأن اليهود تنكّروا لماضيهم ، ولإخوانهم المسلمين الذين تعايشوا وإياهم على هذه الأرض قرونا ، وتحوَّلوا من أصدقاء حميين ، إلى أعداء ألِدّاء ، واستغلُّوا قانون كريميو الذي منحَهُم الجنسية الفرنسية ، للتطاول على الجزائريين المسلمين ، والاستخفاف بهم ، وأمعنوا في الاستخفاف والاحتقار إلى درجة لم يَعُدْ بعدها صبر .. وكنموذج لهذا الاستخفاف نُورد ما جاء على لسان مولود بن باديس في صحيفة « صدى الأهلي » (L'écho d'indigène) بأن « اليهوديَّ عندما يَسألُ يهوديًّا آخر ، كيف حالُك ؟ يجيبه هذا : « على أحسن ما يرام ، محمد يمسحُ أحذيتي ، وفاطمة تغسل أرض منزلي » .

نعم .. لقد تنكَّر اليهود لماضيهم الطويل مع المسلمين ، وصاروا أداة استعمار ، وقهر ، وزجْرٍ ، وعنصرَ ابتزاز وتفقير ،. فاستحْوذوا على أراضي الجزائريين بقروض الربا ، وتضاعفتْ حملاتُ حجز أراضي وممتلكات المسلمين بعد صدور قرار كريميو تضاعفاً مدهشا .. ففي دائرة قسنطينة وحدها سجّلتْ عمليات بيع لـ 206 ما بين أول جانفي 1930 و 30 جوان 1934 ، كما سجّلتْ 325 عملية حجز ، وبذلك أُفْقِر الجزائريُّ الغنيُّ ، أمَّا الفقير أساساً فعليه أن يعيش مدَى الحياة عاطلاً عالةً على المجتمع ، أو أنْ يعيش بأجْر منخفض لا يزيد عن 192 فرنكا في الشهر ، في حين يتقاضى اليهوديُّ 300 فرنك في الشهر .

اشتدّتْ تحرشاتُ اليهود بالمسلمين ، واغتنموا فرصة وجودِهم على رأس الإدارات ، وخاصة إدارات الضرائب ، وتجاوزوا الحدود في ذلك ، تجاوزا ضجَّ منهِ الفرنسيون أنفسهم ، وتضايقوا منه كثيرا .. وبلغ الأمر ببعض المتعصّبين الفرنسيّين أن يُعلنُوا عِداءهم لليهود ، وأن يقوموا بحملات عنصرية مناهضة لليهود ، وأن يُسخِّروا صحافتهم لهذا الغرض حتى أن

صحيفتهم « طـام طـام » (Tam Tam) جعلت شعـارهـا : « ليسقـط اليهود .. اقتلوا اليهودي المسؤول عن بؤسكم وعن الأزمة » .

ولكن اليهـود بـدل أن يُـواجهوا التّعصب الفرنسيّ ضـدّهم ، كانـوا يصُبّـون غضبهم وحقـدهم على المسلمين ، ويختلقـون الأسبـاب والأعـذار للاعتداء والتّحرش .. اعتَدوْا على شخصيـات جزائريـة مسلمـة .. وكانتْ تمرُّ حوادث الاعتداآت والتحرشات كحوادث منعزلة في إطارهـا الضيق ، على أنهـا مجرد سـوء تفـاهم بين شخصين عـاديين ، دون أن تكـون لهـا توابع .. إلى أن وقعت حوادث أوت 1934 ، وسببُها في البداية بسيط كما يدّعي المقرِّرون والمحقِّقون من رجال الشرطة والقضـاء الفرنسي ، وهو في الحقيقة ليس بالبسيط لعلاقتـه بـالعقيـدة الـدينيـة ، ولمسـاسـه بـالـدين الإسـلامي .. وهنـاك من المسـؤولين الفرنسيين من ينسب الأحـداث إلى أسباب أخرى .. ينسبونهـا مثلا إلى الشبـان المسلمين المتحمسين للاسلام ، والبعض إلى المتعصبين للعربية والإسلام ، والبعض الآخر إلى الأوروبيين المعادين للسامية ، والمتحاملين على اليهود .

أما السبب الحقيقي فهو أن اليهودي خليفة إلياهو (Kalifa Eliaou) كان في حالة سكر شـديـد ، وأثنـاء مروره بـالجـامع الأخضر توجّـه نحو الجـدار ، وبـدأ في التبـوُّل .. رأتــه امرأة مسلِمــة من نـافـذة بيتهـا ، فصاحَت .. وحذرته من عواقب الإساءة إلى المسجد ، وحرمـة الإسلام .. لكنّه لم يعبأ بكلامهـا ، وتمـادى في قضـاء حـاجتـه وهو يتفوه بعبـارات الشتم للمسجد والإسلام والنبي محمد صلى الله عليه وسلم .. وهذا ما أغضب المرأة ، فرمتْـه « بكانـون » دون أن تصيبـهُ ، وهي تصرخ : « أتجرؤ يـا يهودي على ديننـا ومسـاجـدنـا » سمع الموجودون داخـل المسجـد الصراخ والشتـائم فهرعـوا إلى مكان الحـادث ، وكادت تقـع مشـادة بينهم وبين

اليهودي لولا أن بعض الحاضرين هدأ الموقف بحجّة أن اليهودي سكران فاقد لوعيه .

رافق بعض المسْلمين الحاضرين اليهودي حتى داره ، وهنا انضمتْ إليه زوجته في سبٍّ وشتم المسلمين .. فاشتعلتْ شرارة الحادثة .. لأن اليهود الآخرين المجاورين انضمّوا ليهوديهم خليفة إلياهو .

كتبت مجلة « الشهاب » في هذا الموضوع ما يلي :

« رغم ما سمِعَه المسلمون من سبٍّ إلياهو الأول لدينهم وصَلاتهم وجامعهم وكبرائهم لم يهتاجوا ، وأجابوه بكلّ تعقُّلٍ ، وعذروه بأنه سكران ، وهذا دليل قطعي على تسامحهم ، وعدم حملهم لحقد ديني على اليهودي ، وعدم استعدادهم لفرصة الانتقام » .

وتعرضتْ بعد ذلك مجلة الشهاب لقضية اشتراك اليهود الآخرين مع إلياهو في الاعتداء بقولها : « شاركَ المعتديَ غيرُه من يهود الحوْمة في السّبِّ ، بدلَ أن يكفُّوه عنه ، وهذا دليل على الروح المتفشية في عوامٍّ طائفته من الاستهانة بالمسلمين والتالؤ على إذايتهم ، وعدم احترام الحكومة في ناحيتهم .. وقف الشرطيان المسلمان عند باب اليهودي يحرسان داره ، وهذا دليل على ما يتحلّى به المسلم من احترام واجبه وقيامه به ، وعلى شدة محافظة أعوان الشرطة المسلمين على الأمن والنظام » .

« رغم ما رأى المسلمون وما سمعوا ، فقد استمرّوا ماسكين لأيديهم ، حتى ابتدأهم اليهود برمْيِ البيادن والكوانين ، وهذا دليل واضحٌ على تحمل اليهود لمسؤولية الشرِّ بالقول والفعل » .

انتهى اليوم الأول وهو 3 أوت بدون اصطدام دموي ، بعد أن تمكن الدكتور ابن جلول من إقناع المسلمين المحيطين بمنازل اليهود ، وتهدئة ثائرتهم .. وتفريقهم ..

التقى عبد الحميد بن باديس بابن جلول ، واتفقا على ضرورة عقد اجتماع يدعوان فيه السكان إلى الهدوء ، والتحكم في الأعصاب .. وفعْلا ، عقدَا اجتماعاً مساء السبت 4 أوت بالجامع الكبير ، حضره جمهور غفير من المسلمين ، وألْقى ابن باديس وابن جلول خطابين ..

وصف ابن باديس الوضع بعد الانتهاء من الخطب :

« وخرج ذلك الجمع الذي يُقدّر بالآلاف هادئا ، مهدَّأً ، بعد ما كان متأثرا هائجا ، ووقفْنا في الطريق العام نُفَرِّقُ الجموع ، ونطلبُ منهم أن يذهب كلٌّ واحد إلى محلِّه ، وأن يُعلِمَ غيرَه بما دعوناهم إليه من لزوم الهدوء ، وما تفرّق الناس حتى أقسمْتُ أننِي لا أذهبُ حتى يذهبوا ، وكنَّا عند الخروج من الجامع قد جاءنا خبرٌ صحيح بجرح ولد صغير مكفول لأحدِ الناس ، فاستطعنا ـ بإذن الله ـ أن نقف الخَبر عن الانتشار ، وأن نُهدِّيء من بلَغه الخبر وكافل ذلكَ الصغير .

تفرقَ الناس ، وخلَتْ منهمُ الطرقات ، ونزل الهدوء التام ، وباتت البلدة في أمن وأمان » .

ولئن بذل ابن باديس جهوداً للتّهدئة .. فإن اليهود لم يتوقفوا عند حد .. واستغلوا عودة الهدوء لدى المسلمين ، وقاموا بمفاجأة المسلمين صباح الأحد 5 أوت وإطلاق الرصاص عليهم ، وقد سقط الكثير من المسلمين جرحى نتيجة إطلاق الرصاص اليهودي .. انتشر الخبر ، وهاج الناس ، ولم يعد السكان الجزائريون يتحكمون في أعصابهم ، فهاجموا مساكن اليهود المعتدين ومحلاتهم هجوما عاما .

وصف ابن باديس هذا الهجوم بقوله : « فانكبَّ الناس على دكاكين اليهود التي كانت مقفلة يوم الأحد ، يكسرون أبوابها ، ويُمزِّقون ما فيها من قماش ، ويَهْشِمون ما فيها من أثاث ، ويُمزِّقون الأوراق المالية ، وأطلقوا النار في بعضها ، وقتلوا نيفا وعشرين نفسا ، وفرغوا من عملهم نحو الساعة الثانية » .

ويعزو بن باديس السبب في اندفاع المسلمين ، إلى أنهم كانوا في حالة دفاع عن النفس قائلا : « غريزة الدفاع عن النفس فطرية في الإنسان ، بل في جميع الحيوان ، فإذا أحسَّ بالخطر ، فإنه يعمل أعمالا عن غير وعي .. » .

ووصف الغطرسة والعنجهية التي أصابت اليهود بقوله : « نعم ، كان المسلمون يسمعون دائما سَبَّ دينهم ونبيِّهم من اليهود ، وخصوصا من النساء ، وكانوا يلقوْن منهم سوء معاملة خُصوصا من النساء في سوق الخُضر ، وكانوا يشعرون بتسلُّطهم في دوائر الحكومة وعلى رجال بارزين من الساسة الفرنسيين ، ويعْلمون تغلُّبهم في الوظائف حتى على الفرنسيين أنفسهم ، وحسبُك أنَّ موزِّعي البريد ببلدة قسنطينة منهم ثلاثون ونيف ، ومن الفرنسيين خمسة ، ومن المسلمين واحد » .

ولم تتوقف الحوادث في مدينة قسنطينة ، بل انتقلتْ إلى مدنٍ وقُرًى أخرى مثل عنابة ، وعزابة ، سكيكدة ، الخروب ، عين البيضاء ، باتنة ، تبسة ، سطيف ، مستغانم ، وهران ، سيدي بلعباس ..

لهذا ، فإن حوادث قسنطينة جاءت نتيجة الصدفة ، لم تكنْ مدبَّرة أو مخططة من قِبل الجزائريين ، لأنها وقعتْ إثر استفزازات يهودية لمشاعر المسلمين .. وامتدادها خارج قسنطينة دليل على التَّضامن

الجزائري التّام في كل الظروف ، وتعبير عن استياء الجزائريين عموما من السياسة الفرنسية التي جزّأتْ سكّان الجزائر تطبيقا لسياسة « فرق تسد » .. وهذا ما جعل الإدارة الفرنسية بعد أن أدركتْ تطوُّر الوضع سياسيا إلى تطويق قسنطينة ، وتجنُّب المبالغة ، بل والعمل على التقليل من أهمية الحادثة ، واعتبارها حدثا عابرا ، في حين قامت بمساعٍ لدى أعيان المدينة بقصدِ إجراء مصالحة بين الطرفيْن المتنازعيْن ، وإن تشدَّدت فيما بعد مع الجزائريين الذين دافعوا عن أنفسهم ، بإصدار أحكام قاسية ضِدَّهم .

وهكذا يلاحظ التَّباين والتناقض في المواقف الفرنسية ، وفي ردود الفعل التي كانت منذ البداية لصالح اليهود ، وفي جانبهم . ولعل هذا ما دفع بعبد الحميد لأن يختتم تقريره بقوله : « إننا بعد ذلك نأسف ونألم على ما يصيب الإنسان من أخيه الإنسان ، وعلى أن تجري هذه الحوادث بين عنصرين ساميين إبراهيميين عاشا قرونا في وطن واحد ، دون أن يشهدا مثلها ، ونسأل الله تعالى أن يُبطل كيْد الظالمين ، ويَرُدَّ شرّ المعتدين عن الخلق أجْمعين ، وأن يرحم المستضعفين وينصر المظلومين من جميع العالمين » .

أما نواب قسنطينة فقد أصدروا بيانهم الذي جاء فيه :

« لقد وقعتْ حوادث دامية يوم 5 أغسطس الجاري بمدينة قسنطينة ، وقد أثارت هذه الحوادث تعليقات مختلفة ، وأحيانا متباينة ، فيما يخص أسبابها وأصلها الحقيقي ، وكان من شأن هذه الأنباء المختلفة التي يفسّرها الحماس السياسيّ ، وربَّما أيضا المصالح الشخصية ، أن تحدث صدمة لدى العقول المتمسكة بالعدالة والإنصاف ، وأن تنال من الحق الذي هو شيء واحد بالنسبة للجميع ، يجب وضعه فوق كل اعتبار

ضيق ، من مسائل فردية أو اعتقادية أو دينية ، وبذا فقد ارتـأى نواب قسنطينـة المسلمون تقـديم إيضـاح لغرض وحيـد ، هـو خـدمـة العـدل ، وإعـادة الانسجـام والوئـام بين مختلف العنـاصر التي ينبغي أن تعيش في السـلام والتعـاون على هـذا التراب الجـزائري ، وتحت سلطـة فرنسـا الكريـمة ، ومن دون أن نُسهب في الحـديث عن السبب الحقيقي لحوادث مؤسفة وطارئة يتمثل في انتهاك حرمات مسجـد ، واستفزازات لاحقـة ، ومن دون أن نشير إلى أحـوال اغتيـاظ وسخـط فرديـة سـابقـة ، فنحن النواب المسلمون وسكان قسنطينة المخلصون ، نأسف بالإجماع كل الأسف للفتنة التي حدثت ، ولما بلَغتْه من أعمال العنف الفظيعـة ، كما يـدينون بـالإجماع مختلف أعمـال النهب والقتـل والتحريـق والفـوضى ، فـالأمر بالنسبة لنا ليس مسألة إنسانية فحسب ، بل إنه مسـألـة دينيـة ، تفرض على كل مسلم احترام الإنسان في نفسه وماله وعقيدته .

« ومن أجل هـذا ، فـإن نـواب قسنطينـة قـدْ رأوا من واجبهم يـوم السبت 4 أغسطس محـاولـة تفـادي الحوادث ، أوّلا بـالتعـاون الوثيق مع اليهـود والإدارة ، ثم بعـد الحـوادث التي غلبتْهم على أمرهم ، سعَـوْا في التخفيف من أضرارها .

« وهكـذا جعلـوا أنفسهم تلقـائيـا تحتَ تصرف رئيس البلـديـة والسلطـات ، ولم يبخلـوا عليهم بـأوقـاتهم وعنـائهم ، غيرَ أنّهم في حين يستنكرون كل الاعتـداآت يروْن من الضروريّ التمييز بين أقليـة لم تخْش استعمال العنف ، والأغلبيـة التي تسْتنكر ذلـك العنف ، وتبـذُل كلَّ جهودها للتخفيف من نتائجه الخطيرة .

« وبما أن تلك الأقلية تعـاني من قسـاوة القمع الـذي تسلّطـه عليهـا الإدارة ، فـإن نـواب قسنطينـة المسلمين يضعـون ثقتهم في العـدالـة

الفرنسية ، إيًّا كان المتّهمون ، ويوجّهون نداءً مُلِمًّا لجميع العناصر الطيبة في البلاد ، وإذا كان ازدهار الجزائر نتيجة تعاون سائر العناصر في مختلف المجالات ، فمِن الإجرام ترك حوادث 5 أغسطس المؤسفة تتحول إلى حرب جنسية سواء في الميدان الاجتماعي أو الاقتصادي .

« فان كان القمع العادل قد يُستحسَن ، فإن الإسْرافَ في التحقيق وخيم ، وكل صراع اقتصادي يؤدِّي حتماً إلى عواقب مُضِرةٍ بالجميع ، ولا سيما أن الجزائريين كلّهم بدون استثناء قد لبُّوا في الماضي نداء التضحية للدفاع عن فرنسا والإسهام في مجدها .

« ينبغي أن يسود العدل هذا البلد ، وأن ينسى الماضي ، ويواجه المستقبل بدون تعصب ، وينظر إلى مصلحة البلاد بهدوء وأناة ، ولأجل مجد فرنسا الأكبر ينبغي أن يكون الهدوء الخارجي متبوعاً بتسكين النفوس » .

ويختم النواب بيانهم بحياة السلام بين الاجناس ، وبحياة فرنسا والغرض من استعراض بيان النواب كاملا هو التدليل على مدى الميوعة التي كان النواب الإداريون يعالجون بها قضايا الوطن .. إذ لم يتحملوا مسؤوليتهم كنواب ، ولم يتوصلوا إلى تحديد الأحداث من خلال المعْطيات الدينية والوطنية .. بينما نرى ابن باديس في مقاله :

- تولّى وصف سير الأحداث وصفا دقيقا نزيها .
- أبرز الهدوء الجزائري في الوقت الذي أبرز فيه التحرش اليهودي .
- اعتبر عمل خليفة إلياهو اعتداء ، ورد الفعل الجزائري دفاعا عن النفس .
- أرجع الأسباب إلى أصلها ، وهو التصرفات اليهودية الناتجة عن غرور اليهود باستيلائهم على النسبة الكبيرة من وظائف الدولة ..

وفي هذا تلميح إلى تحميل الإدارة الفرنسية نتائج التوظيف غير العادل

ـ أكد بأن الحوادث أظهرت بأن هناك معتديا وظالما ، ومعتدًى عليه ومظلوما . بل نجد أن فيديرالية الجمعيات اليهودية كتبت بيانا أفضل من بيان النواب الجزائريين الإداريين ، وأدانت في هذا البيان تصرف خليفة إلياهو . حين قالت :

« أيها الرفقاء المسلمون :

لقد جرت حوادث ، في هذه الأيام الأخيرة ، كادتْ تُعكِّر جوّ الوئام الذي عرفته مدينَتُنا ، إنّ شخْصا قدْ أخلّ بأبسط قواعد الأدب والاحترام اللازم تأديتها لبعض المسلمين أثناء قيامهم بصلاتهم .. كان ذلك الشخص في حالة سكر ،وقد فُتِح تحقيق لتحديد المسؤوليات ، هذا وإننا نصرِّح من الآن . بإدانتنا الشديدة لتصرف هذا الشخص ، ونحن أول من يطالب بِمعاقبته عقابا صارما .. » .

والحزب الوحيد الذي اعتبر حوادث أوت بقسنطينة جزءا من المقاومة التي يخوضها الشعب الجزائري ، هو حزب نجم شمال إفريقيا الذي ذكر في صحيفته « الأمة » « بأن رد الفعل الشعبي عمل إيجابي » وامتدح هؤلاء الذين نزلوا إلى الشارع ، واعتبر الضحايا شهداء ، في مقال بالصحيفة المذكورة جاء فيه :

« لقد خبّأ القدر لإخواننا بقسنطينة شقاء لا يوصف بمُعايشتهم جورا وظلما شنيعا .. وادّخر لهم أيضا الشرف والمجد لانتقامهم من أكبر اعتداء ـ لم يعرف من قبل أبدا ـ على ثقافتنا وإيماننا الإسلامي .

« إن شهداء هذا الاعتداء لم يستشهدوا عبثا ، بل إنهم قدّموا لنا نموذجا ..

« نحن نحيِّي بحرارة هذه اليقظة المنتظرة من زمن طويل ، ونُؤيِّدها بكامل قوانا ، لأنَّ وحدتَنا إنما يختمها إلى الأبد دم الشرفاء مناضلي قسنطينة » .

ويعزو المقال الأسباب إلى الحالة المتدهورة التعيسة التي يعاني منها الشعب ، إذ جاء فيه :

« في الجزائر يعيش الشعب منذ عام حالة الهلع والرعب الذي نشأ من الوضعية المؤلمة التعيسة الاستغلالية والاستبدادية ، ويبدو هذا الرعب في العديد من المظاهرات الحادة التي قام بها عشرات الآلاف من مواطنينا الذين نزلوا إلى الشارع ليعبِّروا عن استيائهم وحقدهم ضد المستعمرين من كل نوع » .

أعطى النجم حوادث أوت بقسنطينة بعدا وطنيا ، لأن :

- استفزاز اليهود للمشاعر الاسلامية ، إنما هو استفزاز مدعَّمٌ أو مدبَّر من طرف الإدارة الفرنسية ، فالتصدي لاستفزازات اليهود هو في الوقت نفسه تصدٍّ ومواجهة للمناورات الاستعمارية .

- اعتبار اليهود مجرد آلة يُسخِّرها الفرنسيون في الجزائر لقمع الحركات الوطنية ، تسخير الانجليز لها بفلسطين لدعم الصهيونية . ولذلك اهتم النجم بهذه الحوادث . وأوفد إلى قسنطينة بعثة تولت التحقيق ، وكان من بين أفرادها المحامي لونقي (Longuet) ، وبعد عودة البعثة ، دعا النجم إلى عقد اجتماع عام لأبناء المغرب العربي لتقديم عرض عن تحقيق البعثة .

كما وجه النجم لائحة باسم الذين اشتركوا في اجتماع 19 أوت 1934 ، وهذا جزء منها :

« إن الحاضرين يندّدون - بقوة - بالاستفزازات الامبريالية الفرنسية التي أحدثت بقسنطينة مأساة دموية .

« إنهم يعلنون عن تضامنهم الصادق والفعال مع ضحايا القمع ، ويصرحون بأنهم يؤيدون تأييدا كاملا الموقف الشريف لمواطنينا الذين قبلوا التحدي وأجابوا على انتهاك المسجد الإسلامي وعلى شتم المصلّين ونبينا المعظم .

« وهم يحتجّون عالياً ضدّ إيقاف العديد من مآت مواطنينا الأبرياء ، ويطالبون بقوة بإطلاق سراحهم حينا ، ورفْع حالة الطواريء .. » .

وتنتهي اللائحة بـ :

« يحيا الكفاح التحريري لمسلمي شمال إفريقيا
يحيا استقلال إفريقيا الشمالية
يحيا الاسلام »



المؤتمر الإسلامي 1936

المؤتمر الاسلامي 1936

إذا كانت الجزائر قد عرفت ما بين 1926 ـ 1931 تنظيمين وطنيين هما « نجم شمال إفريقيا » و « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » فإنها عرفت أيضا بعض شُعب الحزب الشيوعي الفرنسي بالجزائر ، والتي تطورت فيما بعد إلى الحزب الشيوعي الجزائري » الذي كان يأتمر بأوامر الحزب الشيوعي بفرنسا ، وله آراؤه في الانفصال ، والاندماج ، والمساواة ، والثقافة ، والدين ، لم تتلاءم في كثير من الأوقات ؛ لا مع المطامح الشعبية ، ولا مع الخط العام للتنظيمات الوطنية .

وإلى جانب ذلك هناك التكتلات المثقفة والنيابية ، وتظهرُ من حين لحين بمطالب يغلب عليها طابع البساطة ..

وكانت التحرُّكات الوطنية السياسية والدينية والثقافية تصطدم دائما بثلاثة عناصر :

العنصر الأول : الإدارة الفرنسية ، وهي إدارة تتأرجح في غالب الأوقات بين تطبيق الأوامر والقوانين الصادرة عن الحكومة والدولة الفرنسية ، وبين الخضوع لضغوط المعمرين والفرنسيين المتطرفين الذين كانوا يفرضون آراءهم على الولاة العامِّين ، وعُمَّال العمالات ، ورؤساء الوحدات العسكرية .. فالإدارة الفرنسية في ذلك العهد عبارة عن جيش ، وشرطة ، وأعوان ، وقياد ، وآغوات .

العنصر الثاني : العنصر الجزائري المتفرنس لسانا وقلبا ، ممّن لا يَرى خلاصا للجزائر إلا بإدْماجها ، وفرنَسَتِها تماما ، وقدْ توصّلَ البعض من هذا العنصر إلى إنكار التاريخ الجزائري ، والأمة الجزائرية ، وبالغ في التحمس لسياسة الاندماج ، لولا أن المعمرين الغلاة وقفوا ضد كل ما له علاقة بالاندماج والمساواة ، تخوُّفاً وتحسُّباً من ذوبان النسبة الأوروبية الضئيلة أمام النسبة الضخمة للجزائريين الأصليين .

العنصر الثالث : عنصر الخرافيين والجامدين ، ولهذا العنصر تأثير واسع على الجماهير الشعبية ، لأن أكثرية الخرافيين يستغلون « التربط » في التحكم في رقاب الناس ، وفي توجيههم ، وتخديرهم باسم الدين ، ودفعِهم إلى التواكل والاعتماد على مقدم الطريقة وشيخها في قضاء المآرب .. وتتولى تحريك أغلبية العناصر الخرافية مديرية الشؤون الأهلية بالولاية العامة ، ولهذه المديرية نفوذ إداري كبير في كل القضايا الدينية واللغوية ، تدخّلت عن طريقه في كثير من القضايا الوطنية ، مستغلّة بعض العناصر الوطنية الانْتهازية أو الساذجة في تنفيذ مخططاتها داخل الهيآت والتنظيمات الجزائرية السياسية والدينية والثقافية ونجحت في بعض الأحيان في بث التفرقة بين القبائل المتجاورة بإثارة النعرات القبلية ..

وعلى العموم ، فإن من تأمل أساليب وأهداف كل عنصر من العناصر التي استعرضناها يظهر التناقض والتضارب في السياسة العامة الفرنسية تجاه الجزائريين ، وهذه في مجموعها وفي كل أطوارها ضد مصالح الأمة الجزائرية .. وكان الجزائريون في بعض الأحيان يخطئون التقدير ، ويعتقدون بأن السياسة الإدارية الاستعمارية تتغير بتغير الأشخاص في الولاية العامة ، والعمالة ، أو في الحكومة الفرنسية ، ومن هذا التّصور

ينْساقون في الأوهام ، ويجدون أنفسهم أحيانا متفائلين ، كما حدث لهم حين ظهرت حكومة « الجبهة الشعبية » عام 1936 بفرنسا ، وهي حكومة تكوَّنتْ من عناصر يسارية برئاسة ليون بلوم الاشتراكي ، فقد تبادر إلى أذهان هؤلاء الجزائريين أن الفرصة قد حانَتْ للقيام بعمل سياسي في ظل الظروف القائمة .. وأدى هذا التفكير إلى عقد مؤتمر ، سُمّي أو اشتهر بـ « المؤتمر الاسلامي » .

فكرة المؤتمر الاسلامي :

فكرة عقد مؤتمر انطلقت من مدينة قسنطينة .. البعض ينسبها للشيخ عبد الحميد بن باديس .. والبعض ينسبها للدكتور محمد الصالح بن جلول بصفته المتزعم لفيدرالية عمالة قسنطينة .. والبعض يروي بأن الحزب الشيوعي كان وراء عقد المؤتمر بإيحائه لعناصر سياسية جزائرية بعقد اجتماع تأييد للجبهة الشعبية وحكومتها .

لكن أحَدَ الذين عاشوا تلك الأيام ، وكان على صلة وثيقة بالشيخ عبد الحميد بن باديس ، ومن أقرباء الدكتور محمد الصالح بن جلول روى :

« لقد دارت فكرة الاجتماع في ذهن ابن جلول على أن يكون خاصا بنواب عمالة قسنطينة ،. صارح ابن باديس بالفكرة ، وكان هذا يتوجس دائما من تحركات وتصرفات ابن جلول ، ويصفها بأنها مشبوهة .. لم يُعارضه ابن باديس ، وإنما أجابه : « فكرة طيبة .. إلا أنّه من المستحسن توسيع الاجتماع حتى يشمل العمالات الجزائرية . قسنطينة . الجزائر . وهران » أعجب ابن جلول باقتراح ابن باديس ، لاسيما أن ابن جلول كان يتطلع إلى الزعامة ، فوافق .. نقل ابن باديس

الفكرة إلى العاصمة ، ولاقتْ صدًى طيبا ، وتحمّس البعض واعتبرها فرصة ومناسبة ، لابد من استغلالها !. وفعلا ، شرعتِ الجماعات بالعاصمة في الاستعداد ، والتحضيرات ، وانعقد المؤتمر الذي اختار عبد الحميد بن باديس تسميته « بالمؤتمر الإسلامي » - على نطاق واسع .

ومن المفيد استعراض ما كتبه الشيخ البشير الإبراهيمي بوصفه أحد الذين ساهموا بالرأي والقلم ، وعاصروا الفكرة من نشأتها إلى نهايتها ، فقد جاء في مقاله الذي حرّره خصيصا لمجلة « الشهاب » قوله :

« وكانت حكومة فرنسا كلّما تعلّى صوتُ المطالبة تعمِد إلى المسكّنات والمخدّرات ، فأرسلتْ مرّةً لجنة من مجلس الشيوخ يرأسها م فيوليت الوالي العام الأسبق للجزائر ، لتدرس الحالة ، وتشير بالعلاج ، وأرسلت أخيرا وزير الداخلية لذلك العهد م ريني ، ولم تكن لتلك المسكّنات من نتيجة ولا تأثير ، والحالة بالجزائر لا تزداد إلا ارتباكا ، وحالة المسلم الجزائري تنتقل من سيّءٍ إلى أسوأ ، والحكومة الجزائرية مُتصامِمة عن سماع صوت المطالبة ، مُمعنة في إخفاته ، إلى أن جاءت نتيجة الانتخابات التشريعية الفرنساوية الأخيرة بفوز أحزاب الجبهة الشعبية ، فارتفع صوت الأمة الجزائرية بالمطالبة من جديد ، وحدثت فكرة المؤتمر » .

من خلال ما كتبه الإبراهيمي نستطيع استشفاف الأسباب ، وهي :

- أن الجزائريّين سمعوا الكثير من الوعود التي لا تنفذ ..
- أن فكرة المؤتمر لم تظهرْ إلا بعد فوز أحزاب الجبهة الشّعبية .
- أن الذين فكروا في عقد المؤتمر كانوا يحسنون الظن بأحزاب الجبهة الشعبية لمواقفهم الطيبة - في السابق - من القضية الجزائرية .

وقد عبّر الإبراهيمي عن هذه الآمال في نفس المقال : « فلما فازت الأحزاب الشعبية ، ومبادئها الإنسانية معروفة لجميع الناس ، وبادرت بالإعلان بلسان صحفها والإفصاح عمّا تبيّتُه للشعب الجزائري من إصلاح سياسي واجتماعي ، وما تضمره له من خير ورحمة هو أهلٌ لها ، واحتفّ بتلك التصريحات والوعودما دلّ على أنها ليستْ من جنس الوعود السالفة التي لم يُنجز منها ولا واحد ـ لما وقع ذلك ـ كان من المعقول جدا أن يكون هوى المسلمين الجزائريين مع الجبهة الشعبية وميْلهم إليها ، وأن يقابلوا الخير بمثله ، خصوصا وقد كانت تلك التصريحات والوعود من أحزاب اليسار مصوغة في قالب يقتضي العطف على الشعب الجزائري ، والاعتراف بجميله وأهليته لتلك الحقوق ، وياما أشرف عرفان الجميل إذا كان متبادلا بين الطرفين » .

انعقاد المؤتمر :

لئن انطلقت الفكرة من قسنطينة ، فإن العاصمة تولّت الدور الكبير ، في الاتصالات واللقاآت والإعداد ، وكان نادي الترقي محور النشاط .. وخِلال الاجتماعات التحضيرية تقدمتِ الفئات المشتركة بآرائها وبمطالبها .. ولم يكن من بين هذه الفئات حزب نجم شمال إفريقيا . مع أنه حرص وبذل مساعي لأن يشترك في المؤتمر ، لأن الحزب الشيوعي عارض اشتراك النجم مسْتخدما نفوذه السياسي على الساحة الفرنسية ، وهدّد العناصر الأخرى أو التنظيمات الأخرى بأنه ينْسحب من المؤتمر إذا ما اشترك فيه النجم ، وبأنه سيعارض ويعرقل نتائج المؤتمر لدى حكومة الجبهة الشعبية ، باعتبار النجم حزبا انفصاليا ، ومطالبه متطرفة . ودعّم موقف الحزب الشيوعي العناصر المتحمسة للاندماج ، وكانت كفّتها راجحةً في المؤتمر بحكم ثقافتها ، وتمثيلها في المجالس

النيـابيـة ، ومراكز نفوذهـا ، وهي أيضـا لا ترتـاح أبـدا لمواقف النجم ، وتتخوف من تأثيره في المؤتمر تأثيرا يُفسد عليها خطتها .

المهم هو أن المؤتمر ضمّ أكثر الفئات المتواجدة على السـاحـة آنـذاك .. ولـذلـك اعتبر المؤتمر أول تجمُّع من نوعـه في الجزائر منـذ الاحتلال .. إذ جمع أكبر حشد سياسي عرفته البلاد ، وإن كانت نوايا المشتركين متباينة لتباين الاتجاهات الأساسية .

فالحزب الشيوعي كان يهدف من وراء هذا التجمع إلى إيجـاد أرضيـة واسعة له في الجزائر ، مع السعي للحصول على تأييد واسع ، يُمكّنـه من تدعيم الموقف اليسـاري الفرنسي في جبهتـه وحكومتـه ، ولهـذا فـاتجـاهُـه أساسا اندمـاجي ، يعـارض كل فكرة انفصـاليـة .. وليس قبولـه لنقـاط العربية والاسلام في كراس مطالب المؤتمر إلا تكتيكا .. ومناورة ..

ومن المعروف أن ابن جلول وأنصـاره انـدمـاجيون .. لا يرَوْن حـلاً جذريا للمشكل الجزائري إلا بالاندماج التـام بـدون قيـد ولا شرط .. كما أن ابن جلول كان يرمي من وراء المؤتمر الحصول على شعبية وزعامة .

وهنـاك السيـاسيـون الإصـلاحيـون الـذين لا يتنكرون لمشـاريـع فيوليت ، ويعتقـدون بـأن من الممكن إدخـال بعض المطـالب الـوطنيـة عليها لتكون مقبولـة ، مثل المحـافظـة على الأحوال الشخصيـة ، والـدين الإسلامي ، واللغة العربية ، والقضاء .. والقبول أو المطالبة بمبـدإ إلحـاق الجزائر إداريا بفرنسا .

وقـد سـار المؤتمر في الاتجـاه الإصلاحي ، لأن المؤتمر تسمَّى « بـالمـؤتمر الاسلامي » ، وأيضا لأن المشروع أو كراس المطالب الذي تقدّم به المؤتمر لم يتضمن كلمة الانـدمـاج ، أو لم يصرح بـالانـدمـاج ، بل اكتفى بكلمـة

« الإلحاق » وللمحلّلين السياسيين تعليقات على كلمة « الإلحاق » ، وماذا تعْنيه هذه الكلمة لدى الجزائريين من ناحية ، ولدى الفرنسيين من ناحية أخرى ؟ وهل « الإلحاق » خطوة أولى نحو الاندماج أو نحو تحسين الوضع العام بالبلاد ؟ أو أن كلمة « الإلحاق » ترادف « الاندماج » ؟ أو هي مجرد اصطلاح إداري لا علاقة له بالجوانب السياسية والدينية والثقافية ؟

يلاحظ المتتبّع لسير المؤتمر بأن هناك تحمُّساً جماهيريا تجلّى في الجموع والوفود التي كانتْ تتَرَدّد على نادي التَرقّي ، والتي قامت بتوديع الوفد الذي يمثل المؤتمر في ميناء الجزائر ، وقد عبّر الشاعر محمد العيد آل خليفة على الأمل الذي كان يراود النفوس بقوله :

يـا فرنسا بـكِ الجـزائر لاذَتْ
وأكنّتْ لـكِ الـولاء الشّـديـدا

فـاز فيـكِ اليسـار ، فـاليـوم لا عسـ
ـرَ ، أليْس اليسـار فـالاً حمِيـدا ؟

ليس حقّـا أن تحْرِمي الشعبَ حقّـا
لقي النـار دونـه والحـديـدا

ليس حقـا أن تستريحي ويشقَى
ليس حقـا أن تسكُني ويَميـدا

يـا فرنسـا ، ردّي الحقـوق عليْنـا
وأقلّي الأذى ، وكفّي الـوعيـدا

لهذا اعتبر المؤتمر الإسلامي حدثا وطنيا ، اهتمّ به المؤرخون والسياسيون .. ومن الذين علّقوا عليه في السنوات الأخيرة الدكتور أبو

القاسم سعد الله في كتـابـه « الحركـة الوطنيـة الجزائريـة » حين قـال في الجزء الثالث : « يُعتبر المؤتمر الإسلامي الجزائري الذي انعقد بالعاصمة في السّابع من يونيو 1936 أولَ تجمُّع من نوعه في الجزائر ، فلم تعرف الجزائر طيلة أكثر من قرن تجمُّعا تشترك فيه كل الاتجاهـات ، وتُمثِّل فيـه مختلف الطبقات ، وتبرز خلاله وحدة الصف والكلمة على مطالب معينة مثل ما حدث في المؤتمر المذكور » .

أما الدكتور محفوظ قـداش ، فقـد اعتبر فترة مـا بين 1936 ـ 1939 فترة حاسمة في تاريخ الإصلاح السياسي .

كما وصف الأستاذ محمد قداش المؤتمر الاسلامي بأنه منعطف تاريخي ، حين قال : « يُمكن أن تعدَّ سنة 1936 مُنعطفا تاريخيا هاما لما اشتملتْ عليه من أحداث وتقلُّباتٍ على الصعيد الوطني والعـالمي ، ولا يُمكن فهمُ تاريخنا الحديث إلا بتحليلها ودراستها » .

وفي رأيي أن المؤتمر حَظي باهتمام الجزائريين لأنه :

أولا : لأول مرة ينعقد مؤتمر واسع بحجْمِه وأبعاده .

ثانيـا : لأنـه ضم أغلب التنظيمـات والتشكيلات الموجودة في ذلـك العهد ، ما عدا نجم شمال إفريقيا .

ثالثـا : تعرّفتِ الجمـاهير من خلال المؤتمر على خلفيـات الكثير مِمّن كانوا يتصدَّرون ويتزعّمون المحافل السياسية باسم الجماهير والدفاع عنهـا ، وهم في نواياهم وتحركاتهم اندماجيون لا يؤمنون بالشخصية الجزائرية .

رابعا : من الناحية التاريخية ،. بمناسبـة انعقـاد المؤتمر ظهرت لأول مرة فوق الأرض الجـزائريـة ، وبشكل علَنيّ أفكار « نجم شمال إفريقيـا »

الـذي لم يشترك في المؤتمر كعضْوٍ ، إلاّ أنـه استطـاع إبلاغ صـوتـه الاستقلالي عن طريـق زعيمـه ، واكتسب تعـاطف الشعب معـه ومع مطالبه الوطنية الواضحة ، وأحْسن استغلال المناسبـة ، كما قـال الـدكتور أبو القاسم سعـد الله : « فهُمْ لم يشتركوا في الإعـداد (أي رجـال النجم) ولا في تحمل المسؤولية ، ومع ذلك اشتركوا في النقد ، وفي محاولـة قطف الثمار حين آن اقتطافها ، ولولا التجمُّع الذي نظمه المؤتمرون لمـا استطـاع مصـالي أن يلقي خطبتـه الشهيرة يوم الثـاني من أغسطس ، فقـد وجـد الطريق مُمهّدة ، والنفوس مُعدّة ، والجمع حافلا » .

خامسا : وأهم ما في المؤتمر أنه كان تجربة ، وكانتْ لهـا نتـائجها على صعيـد الحركـة الوطنيـة ، والاتجـاه الوطني الخـالص ، فقـدْ خيّب آمـال الانـدمـاجيين الـذين كانـوا ينتظرون الكثير منـه .. ونبّـه الإصلاحيين الذين تورّطوا في مصادقتهم على بند « إلحـاق الجزائر بفرنسـا رأسـا » .. ونشّـط الاستقـلاليين .. وآمن الجـزائريـون جميعـا في الأخير بـأن وعـود فرنسـا ليست إلا سراباً ، وتـأكّـدوا بـأن الروح الاستعماريـة والفكرة الاستعمارية هي وحدهـا التي توَجّـه السـاسـة الفرنسيين سواء كان الحُكْمُ يمينيا أو يساريا .. وتجربة المؤتمر تجربـة مع الجبهـة الشعبيـة وحكومتهـا من ناحية ، ومع اليسار الفرنسي من ناحية أخرى .

مطالب المؤتمر الإسلامي :

تقـدمتْ كل كتلـة في المـؤتمر بمطـالب تمثّـل وجهـة نظرهـا .. وحتى النجم الـذي لم يشترك في المؤتمر تقـدم بمطـالبـه عن طريقـه الخـاص إلى وزير الداخلية بفرنسـا .. ومعنى ذلـك أن كل الفئـات الجزائريـة عبّرت عن اتجاهاتها ومطالبها ، سواء داخل المؤتمر أو خارجه .. حتى أن الشيخ

البشير الابراهيمي عبّر عن اقتراحات كل كتلة « بالاقتراحات الفردية » ، إذ حاولت كل فئة أن تفرضَ رأْيها ومَطالبها .. إلا أنه في الأخير انتهى تحضير اللجنة المؤقتة إلى كراس للمطالب يوفّق بين النزعات والاتجاهات التي يتكون منها المؤتمر ، وتضمَّن الكراس النقاط التالية المتفق عليها :

أولا : إلغاء سائر القوانين الاستثنائية التي لا تنطبق إلا على المسلمين .

ثانيا : إلحاق الجزائر بفرنسا رأسا ، وإلغاء الولاية العامة الجزائرية ، ومجلس النيابة المالية ، ونظام البلديات المختلطة .

ثالثا : المحافظة على الأحوال الشخصية الإسلامية مع إصلاح هيأة المحاكم الشرعية بصفة حقيقية ومطابقة لروح القانون الإسلامي ، وتحرير هذا القانون :

- فصل الدين عن الدولة بصفة تامة ، وتنفيذ هذا القانون حسب مفهومه ومنطوقه .

- إرجاع سائر المعاهد الدينية إلى الجماعة الإسلامية لتتصرف فيها بواسطة جمعيات دينية مؤسسة تأسيسا صحيحاً .

- إرجاع أموال الأوقاف لجماعة المسلمين ليكن بواسطتها القيام بأمور المساجد والمعاهد الدينية والذين يقومون بها .

- إلغاء كل ما اتُّخذ ضد اللغة العربية من وسائل استثنائية ، وإلغاء إعتبارها لغة أجنبية .

- الحرية التامة في تعلم اللغة العربية ، وحرية القول للصحافة العربية .

رابعا : الإصلاحات الاجتماعية :

ـ التعليم الإجباري للبنين والبنات . الشروع بسرعة في بناء المدارس الكافية لتعميم التعليم الإجباري .

ـ جعل التعليم مشتركا بين المسلمين والأوروبيين .

ـ الزيادة في معاهد الصحة من مستشفيات ، ومستوصفات ، وفي معاهد الإغاثة ، كالمطاعم الشعبية ، وإنشاء خزينة للعاطلين من العمال .

خامسا : الإصلاحات الاقتصادية :

ـ تساوي الأجر إذا تساوى العمل .

ـ تساوي الرتبة إذا تساوتِ الكفاءة .

ـ توزيع إعانات الميزانية الجزائرية للفلاحة والصناعة والتجارة والاحتراف على الجميع ، وعلى مقتضى الاحتياج دون ميز بين الأجناس .

ـ تكوين جمعيات تعاونية فلاحية ومراكز لتعليم الفلاحين .

ـ الإقلاع عن انتزاع ملكية الأرض .

ـ توزيع الأراضي الشاسعة البور على صغار الفلاحين والعمال الفلاحين .

ـ إلغاء قانون الغابات .

سادسا : المطالب السياسية :

ـ إعلان العفو السياسي العام .

ـ توحيد هيأة الناخبين في سائر الانتخابات .

ـ إعطاء الحق لكل ناخب في ترشيح نفْسه .

ـ النيابة في مجلس الأمة .

انتهت مجموعة المطالب المتفق عليها ، وهي توضّح بأن المؤتمر تمكّن من توحيد وجهات النظر المتباينة ، في كراسة للمطالب موحدة .. وتَمكّن أيضا من تشكيل « اللجنة التنفيذية » الممثّلة لكل الاتجاهات .. وكوّن في الختام وفده الذي يسافر إلى فرنسا لتقديم المطالب .

ويبدو أنه رغم الحماس الذي كان يسود المؤتمر ، فقد كان هناك تشكُّك .. بدليل أن مجلة الشهاب كتبتْ في نفس العدد الذي خصصته للمؤتمر في صفحته 238 قائلة : « لكنني أعتقد ـ وأودُّ لو أن الواقع يكون خلاف اعتقادي ـ أن الوعد سيرجع بتحقيقات طفيفة ، ووعود جزيلة ، ثم تمرُّ الأيام ، ولا تتحقق الوعود ، ولربّما كان ردُّ الفعل يومئذ شديدا ، إذ تَفقد الأمة ثِقتها في فِرنسا حكومة وشعبا وأحزابا » ، وصدق الكاتب ، فقد عاد الوفد من فرنسا بوعود .. فقط ..

ما بعد الاجتماع الأول للمؤتمر الاسلامي :

نعم .. لقد عرفت الجزائر ما بن شهر جوان وشهر أوت من عام 1936 نشاطا سياسيا مكثّفا من جميع الأطراف والهيئات .. فالمسلمون الجزائريون تحرّكوا في إطار المؤتمر الإسلامي أو عن طريق النجم وأرسلوا وفودا لإبلاغ المطالب .. والأوروبيون أيضا قاموا بنشاط مكثف ، واتّجهوا وجهتين :

ـ الوجهة الاندماجية ، وتَولاها الشيوعيون والاشتراكيون وبعض النقابات ، قاموا بتحركات لدى الأحزاب اليسارية الفرنسية ، ولدى الجبهة الشعبية ، وبذلوا مساعي كبيرة قصد احتواء التيار الإسلامي ، وإقصاء التيار الجزائري الاستقلالي ..

ـ الاتجـــاه الفرنسي الاستعماري المتطرف الـــذي يمثّـل المعمرين ومصالحهم الاحتكاريـة ، وهو اتجـاه يعـارض كل إصلاح ، وكل محـاولـة لإدمـاج الجزائريين في المجموعـة الفرنسيـة . لأن الجـزائري في نظر هـذه الطائفة المتطرفة لم يبلغ بعدُ مستوى حضـاريـا يؤهلـه للانـدمـاج .. كما ترى هذه الطائفة بأن الاندماج يمثل خطرا عليها وعلى مصالحهـا ، لأنـه يجعلها أقلية عددية أمام أكثريـة عـدديـة جزائريـة ، والبعض من هـذه الطائفـة يـدّعي بـأنـه يستحيل إدمـاج جمـاعـة لا تزال متمسكـة بقوانين الأحوال الشخصية الإسلامية ، وتسلّل هذا البعض من هذه الحيثيات إلى توجيه الانتقاد إلى الشريعة الإسلامية ، واعتبارها شريعـة رجعيـة تسمح بتعدد الزوجات . ولا تعدل في الإرث بين الذكر والأنثى .

وقـد وجـد هـؤلاء المتطرفـون أنصـارا ومـؤيّـدين داخـل الأوسـاط الفرنسية الحاكمة ، وبـذلـك كانت لهم الكلمـة الأخيرة ، والحسم الأخير في معارضة كل إصلاح ، بما في ذلك مشروع بلوم فيوليت .

الاجتماع الثاني بالملعب البلدي :

انعقد الاجتماع الثاني بالملعب البلدي بالعـاصمـة يوم 2 أوت من نفس السنة بطلب من الشيخ عبد الحميـد بن باديس ، ليقـدم الوفـد الجزائري ـ الذي أرسله المؤتمر إلى فرنسـا ـ نتـائج رحلتـه ، واتصالاتـه بـالجهـات المسؤولة في فرنسا .

وكان يوما تاريخيا ، وصفه الشهاب بقولـه : « كان يومـا وحيـدا في تاريخ الجزائر الحديث ، يوم تجمّع فيه مـا يزيـد عن العشرين ألفـا من أشبال الجزائر ، جاءوا من كل حـدب وصوب ، لاستماعِ كلمـاتِ الوفـد ، ولمعرفـة مقـدار مـا لاقتـه الفكرة من نجـاح ، ومـا سـارتْـه الحركـة من

خطًى ، فكانوا في مجموعهم وهم كالبحر الزاخر ، يمثّلون ذاتا معنوية واحدة ، هي الأمل » .

فعلا .. تداول الخطباء الكلام ، متناولين الرّحلة ، والغرض ، والنتائج .. وإن أبرز ما أضفى على اليوم وصف « اليوم التاريخي » هو ما ألقاه عبد الحميد بن باديس ، ومصالي الحاج من خطب وطنية صادرة عن روحٍ وطنية عالية ، وقيلت بلهجة شعبية صادقة تجاوب معها الشعب .. واستقبلتها الجماهير بحماس ، حتّى أنها حملت مصالي الحاج على الأعناق بعد انتهائه من خطبته الشهيرة .

ومن المفيد استعراض الخطابين الرائعين اللذين سادا اجتماع 2 أوت 1936 .

أولا خطاب الشيخ عبد الحميد بن باديس :

« أيها الشعب الجزائري التاريخي القديم المسلم الصميم ، كلمتهُ من كلمة الله ، وإرادتُه من إرادة الله ، وقوته من قوة الله ، أوَلسْتَ منذُ شهرٍ كوّنْت مؤتمراً كما ينبغي أن يكون جلالا وروعة ، فذلك مَجْلَى إرادَتِك ومظهرُ قوّتِك ، وكوّنْتَ هذا الوفدَ الكريم فحمَّلتَه مطالبك ، فاضطلع بها ، وأدّى الأمانة في ثمانية أيام ، وهي لا تُؤدَّى إلاَّ فِي أضعاف ذلك من الأيام ، وفدٌ لعمر الله مَثّلك في قوتِك وإرادتِك وحياتك وكرمك ، وفْدٌ متَّحِدٌ مُتعاون متساند ، زارِ الوزارات والأحزاب وأرباب الصحف فعرَّفك إليها ، ورفَع إليها صوتك ، ولقد كِدْتَ تكونَ أيُّها الشعب مجهولا عندهم تمام الجهل ، لكن بأعمالك العظيمة ، وبما قام به الوفدُ صِرْتَ معلوما لدَى من يعرفُ الحقّ ، ويحترم الكريم ، ويُنصف المظلوم .

أيها الشعب إنك بعملك العظيم الشريف برهنْتَ على أنكَ شعب متعشقٌ للحرية ، هائم بها ، تلك الحرية التي ما فارقَتْ قلوبنا منذ كنَّا الحاملين للوائها ، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها ، وكيف نحيا ونموتُ لأجلها .

إننا مددْنا إلى الحكومة الفرنسية أيدينا ، وفتحْنا قلوبنا ، فإنْ مدَّتْ إلينا يدها ، وملأت بالحب قلوبنا فهو المراد ، وإن ضيَّعتْ فرنسا فرصتَها هذه ، فإننا نقبض أيدينا ، ونُغلق قلوبنا ، فلا نفتحها إلى الأبد .

أيها الشعب ، لقد عمِلت وأنتَ في أوّلِ عمَلِك ، فاعْمل ، ودُم على العمل ، وحافظ على النظام ، واعلمْ أن عملك هذا على جلالته ، ما هو إلا خطوة ووثبة ، ووراءه خطوات ووثبات ، وبعدها إمَّا الحياة ، وإما الممات » .

ومن تحليل الخطاب نستخلص أن ابن باديس تحمَّل مسؤولية توحيد الجماهير ، وتحديد العلاقة بين الجزائريين وفرنسا .. أكَّد كثيرا على الإرادة الشعبية التي هي من إرادة الله ، وعلى أن قوة المؤتمر تكْمن في القوة المسْتمدّة من مدى التفاف الشعب حوله .. وبيَّن في هذا الخطاب رغبة الشعب في الحرية ، وتعشُّقَه لها ، ومعرفة كيف يحيا ويموت لأجلِها ..

ثانيا : خطاب مصالي الحاج :

« سادتي . إخواني .

باسم نجم شمال إفريقيا أحييكم تحية الأخوة ، وأحمل إليكم تضامن مائتي ألف شمال إفريقي يقيمون في فرنسا ، واحتراما للغتنا الوطنية

اللغة العربية التي كلنا نعتزّ بها ، ونعجب بها ، وأيضا تقديرا لنبل هذا الشعب الجزائري الشجاع الكريم ، فقدْ أردْتُ أن أعبّر أمامكم بعد نفي دام اثنتي عشرة سنة بلغتي الأم .

أنا سعيد وجدٌّ راض إذ أتمكّن اليوم من عقد اتّصال رسميٍّ بكم ، وأستغِلٌّ الفرصة التي أتيحتْ لي كي أقول لكم بأنّي سعيد ومتأثّر بوجودي على أرض الأجداد ، ولكي أقول لكم : كم أنا متألّم في قرارة نفسي لابتعادي عن وطني منذ مدة .

إخواني الأعزاء :

باسم نجم شمال إفريقيا قدِمْتُ للمشاركة في هذا الاجتماع الكبير لكي أشرك منظمتنا في هذه المظاهرة الضخمة ، وإن نجم شمال إفريقيا وكفاحه الذي قاده منذ عشر سنواتٍ دفاعا عن مصالح الشعب الجزائري ، ومع ذلك فإني سأغتنم هذه الفرصة التي اجتمعتم فيها بكثرة ، بل بالآلاف ، لكي أذكُر لكم بعضَ التفاصيل عن الدور الذي لعِبه ومن الواجب عليّ أن أقول بأن المعركة كانت صعبة ومريرة .

وتحت حكومات من أكثر الحكومات رجعية ، وفي الوقت الذي كان فيه كل الناس في بلادنا صامتين ، وتحت حكم استثنائي كان نجم شمال إفريقيا هو الوحيد الذي تجرّأ على رفع الصوت للاحتجاج ضدّ كل سوء استعمال للسلطة والظلم والإجحاف ، وليقول أمام العالم إن الجزائر لم تمُتْ ، وأنها بإرادة أبنائها تريدُ أن تعيش حرةً وسعيدة ، وهذه الجرأة هي التي جرّتْ على مناضلي النجم المشاقّ التي لا مثيل لها ، كما جرّتْ عليهم أكثر أنواع الحقد عنصرية .

لا لأننا كنا بباريس مدينةِ ثورة 1789 كُنَّا في حمايةمن القمع الذي أحدث تدميراته في هذا الجانب ، وفي الجانب الآخر من حوض البحر الأبيض المتوسط .. لقد كنَّا على استعدادٍ حين علمنا بأن المظالم ومساويء الاستعمار تُمارس فوق الأرض الجزائرية .. بمجرَّد أن علمنا ذلك أسمعْنا الصوت المكبوت لِشعبٍ يصرخ وينادي الإنسانية لإغاثته .

لقد صدرت ضدَّنا أحكام بالسجن لمدة سنوات ، مع التغريم بآلاف الفرنكات ، وقد عرفْنا النفْيَ والتهجير ، ولم يَسْلَمْ أحد خلال هذا الكفاح .. وهناك أشخاص طُردوا من معامل « سيطروان » و « رونو » لأنهم أعضاء بنجم شمال إفريقيا .. هناك عاطلون حُرِمُوا من المِنَحِ المقرَّرة للعاطلين عن العمل بسبب أنهم حضروا اجتماعات منظمتنا .

إخواني أخواتي .

بما أنَّني لاحظتُ في هذا التجمع وجود نساء جئن ليسمعْن صوت الشعب ، يجب أن أقول لكم بأننا إذا غادرنا بلدنا ، بحْثاً - تحتَ أي مناخ - عن الخبز والحرية التي حُرِمنا منها في بلَدنا ، فإننا وجدنا في باريس بلدية مختلطة يوجد على رأسِها قائِدٌ بشوَّاشه .

وحتَّى هذا اليوم ، وتحت حكومة الجبهة الشعبية ، مازلنا نتعرض لسلسلة من الاجراءات الخاصة والقوانين الاستثنائية في قلب باريس ، وهي إجراءات وقوانين لا تُستعمل إلا ضدنا نحن فقط .

في قلب باريس .. هناك مستشفى بوبيني وهو مستشفى خاص بنوع من الأمراض يُبعث إليه كل العرب ، كأن بهم جميعا جربٌ يعدي الإنسانية .. نحن في كل الظروف ، وفي كل الأحوال كافحْنا من أجل الحرية ، ومن أجل إخواننا المحرومين .

من أجل ذلك اتهمونا أكثر من مرة بكوننا شيوعيين ووهابيين ، وعملاء ألمانيا ، وعملاء موسكو ، وغيرهما من البلدان ، ونحن نقول لكم بأننا لم نكن عملاء لا لهؤلاء ، ولا لأولئك ، لأننا كنّا وما زلنا وسنظَلُّ دائماً عملاء وخدَمَة للشعب الجزائري .. لقدْ عزمنا على تحمل كل التضحيات من أجل أن تكون الجزائر حرة ومزدهرة ومتعلمة .

ونخبركم بأننا أيضا توجّهْنا إلى وزارة الداخلية ، وقدمنا للسيد راؤول أوبو (Raoul Aubaud) نائب كاتب الدولة قائمتين بالمطالب إحداهما تخصُّ الجزائريين المقيمين في فرنسا ، والأخرى تخص الشعب الجزائري ، ونخبركم أيضا بأننا علمنا وسررنا بانعقاد المؤتمر الذي انعقد في بداية جوان بالعاصمة ، وقد أيدْناه رغْمَ ملاحظتنا عليه ضعفَه وتسرُّعه .

وعند وصول الوفد الجزائري (إلى باريس) المنبثق عن المؤتمر ، سارعْنا إلى تحيته ، والاتصال به ، وتبادل الآراء معه حول مشكل بلادنا ، ورغم موافقتنا وتأييدنا بل وتهنئتنا لمنظّمي هذا المؤتمر الذي سيكون نقطة تحوُّل في تاريخ الجزائر ، فإننا نقول لكم بصراحة بأنه يجب علينا اليوم أن نقدّم لكم توضيحات نراها ضرورية ، بدون شك ، نحن نوافق على المطالب العاجلة التي هي في الواقع متواضعة وشرعية ، والتي نصَّ عليها ميثاق المطالب الذي قُدِّم إلى حكومة الجبهة الشعبية ، وإننا سنؤيِّدُها بكل قوانا حتى نراها منجزة ، رغم ضعفها ، لأن المطالب الطفيفة قد تنفع في النقاط الهامة حين تساعد على التخفيف من هذه التعاسة الشعبية .

وهنا ألتزم باسم منظمتي وأمام الشيخ الجليل عبد الحميد بن باديس أن أعمل كل ما في وسعي لتأييد هذه المطالب ولخدمة القضية النبيلة

التي نُدافع عنها جميعا ، لكننا نقول بصراحة وبشكل لا يقبل التراجع بأننا نتبرأ من ميثاق المطالب بخصوص إلحاق بلادنا بفرنسا ، وبخصوص التمثيل البرلماني .

والواقع ، إن بلادنا اليوم ملحقة بفرنسا إداريا ، وهي تابعة لسلطتها المركزية ، ولكن هذا الإلحاق كان نتيجة غزو فظيع ، تلاه احتلال عسكري يقوم اليوم على الفيلق التاسع عشر ، والشعب لم يوافق عليه أبدا .

أما الإلحاق الذي نصَّ عليه ميثاق المطالب فهو مطلوب إراديا باسم مؤتمر يقولون عنه إنه يُمثِّل إجماع الشعب الجزائري ، ومن ثمة فهناك فرق أساسي بين إلحاق لبلادنا حصل رغم إرادتنا ، وإلحاق إرادي مقبول عن طيب خاطر في المؤتمر الذي انعقد في السابع من جوان بالجزائر العاصمة (مؤتمر مغلق لمدة ثلاث ساعات) .

إننا أيضا أبناء الشعب الجزائري ، ولن نقبل أبدا أن تكون بلادنا ملحقة ببلاد أخرى رغم إرادتها ، فنحن لا نستطيع مهما كانت الظروف أن نراهن على المستقبل الذي هو أمل الحرية الوطنية للشعب الجزائري .

إن هذا المستقبل يخص الجيل الصاعد ، فهو وحده الذي يملك الحق في تقرير مصيره وقدره ، ونحن أيضا ضد التمثيل البرلماني لأسباب عديدة ، إننا نؤيِّد إلغاء المجالس المالية ومنصب الوالي العام ، ونقف مع إنشاء برلمان جزائري منتخب عن طريق الاقتراع العام بدون تمييز بالعنصر أو بالدين .

إن هذا البرلمان الوطني الجزائري الذي يتكون في عين المكان ، سيعمل تحت مراقبة الشعب المباشرة ، ومن أجل الشعب ، ونحن نعتقد

من جهتنا بأن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تسمح للشعب الجزائري بأن يعبّر عن نفسه بحرية وبصراحة بعيدا عن كل الضغوط والمناورات الإدارية .

إنه لا يمكنني في هذا الوقت القصير أن أقول لهذا الشعب الكريم في الجزائر كل ما يجب أن أقوله له ، خاصة وإنّي تجاوزت الوقت الذي قد حددتْه لي اللجنة المحترمة ، بينما يجب أن ألفت انتباهكم طالبا من إخواني أن يتفهموا وأن يفكروا وأن يتأملوا جيدا ، وبدون طيش في مشكل بلدنا المطروح أمامكم .

ورغم أني متعب ومُنهك من سفرة شاقة ، لأنّي نزلتُ الآن من الباخرة ، فإنّي لا أغادر المنصة قبل أن أعبّر لكم عن فرحتي وتأثري بوجودي بينكم فوق تراب وطني .

أخيرا ، قبل أن أختتم تدخلي ، أشكر اللجنة المحترمة التي أتاحت لي التكلّم من هذه المنصة .

سمعْت منذ هنيهة الخطباء الذين سبقوني بأنّهم قوبلوا باحترام وحفاوة في فرنسا من طرف حكومة الجبهة الشعبية .. لا أناقش ، ولا أقلّل من قيمة الجو الذي دارتْ فيه هذه اللقاآت ، لكنّي أقول بأن على الشعب الجزائري أن يكون يقِظاً ، إنه لا يكفي أن يرسل وفدا ، وأن يتقدم بمطالب ، ثمّ ينخدع بالاستقبالات منتظرا أن تتحقق الأمور تلقائيا .

إخواني .. لا يجوز النوم على الأذنين ظنا بأن الأعمال كلها انتهت ، بل هي الآن ابتدأت .

يجب أن تنتظموا .. أن تتوحدوا في منظماتكم لتكونوا أقوياء ، ولتكونوا محترمين ، وليُسمعَ صوتُكم القويُّ وراء البحر الأبيض المتوسط .

من أجل الحرية ، ومن أجل نهضة الجزائر تجمَّعُوا أفواجا حول تنظيمكم الوطني نجم شمال إفريقيا الذي سيُدافع عنكم ويقودكم في طريق التحرر » .

ولَمَا لهذا الخطاب من أهمية ، فقدْ كتب الدكتور أبو القاسم سعد الله ما يلي : « إن هذه الخطبة التي حوّل فيها مصالي أنظار الحاضرين من الاعتدال إلى التطرف ، ومن الرضا بالقليل إلى المطالبة بالكثير ، ومن الدعوة إلى المساواة عن طريق الاندماج إلى نقدِ الاحتلال ، والدعوة إلى التحرر ، هي التي جعلتِ الناس يستقبلونه بحفاوة ، ويتحمَّسون له حتى حملوه على الأكتاف » (أبو القاسم سعد الله . الحركة الوطنية 1930 ـ 1945 ج 3 ص 179) .

أهمية اجتماع 2 أوت أنه المرحلة التي ظهرت فيها التيارات الاندماجية . الاصلاحية . الاستقلالية .. وأنه المناسبة التي بدأت الجماهير الشعبية تبرُزُ فيها إلى الميدان معبّرة بشتى وسائل التعبير والتأييد عن أفكارها وميولها ، وتمارس التعامل مع السياسة .

ومن الطبيعي أن لا ترتاح الإدارة الاستعمارية لهذا الاجتماع ونتائجه ارتياحها للاجتماع الأول .. فشرعَتْ في تدبير المكائد .. ومن هذه المكائد التاريخية اغتيال مفتي الجزائر كحول في نفس اليوم الذي انعقد فيه اجتماع 2 أوت ، وبعد انتهاء الاجتماع مباشرة .. ولعل الإدارة كانتْ ترمي من وراء عملية الاغتيال إلى تحقيق عدة أغراض ،منها :

ـ مضايقة رجال « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » ، وخاصة الطيب العقبي الذي قام بدور نشيط في المؤتمر الإسلامي ، باتهامه باغتيال مفتي العاصمة الذي تخلّصتْ منه بعد أن بالغ في الإلحاح بأن لا تسمح الإدارة الفرنسية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتمثيلها للشعب الجزائري .

ـ الشروع في مضايقة نجم شمال إفريقيا الذي ظهر فوق الأرض الجزائرية بنشاط واسع مكثف ، وإقبال شعبي متحمس .

ـ بث التفرقة في صفوف التكتلات التي يتكوّن منها المؤتمر .

وقد توصّلت الإدارة إلى تحقيق بعض أغراضها .. وبدأ اليأس يَدِبُّ في نفوس بعض رجال المؤتمر ، ومنهم عبد الحميد بن باديس الذي كتب متحدّثا عن نشاط الوفد الجزائري بفرنسا في المقال الافتتاحي للجزء السادس من المجلد الثاني عشر :

« رجعنا وأكثرُ الرفاق يظنٌّ أن المطالب المستعجلة إذا لم تكن صاحبتْنا ، فإنّها لا تتأخّر عنّا بأكثر من أسبوع ، وإذا تقاعستْ وتباطأت فلا أكثر من شهر ، أما أنا فلم أكُنْ ـ مع الأسف ـ على هذا القدر من الرجاء ، فالجبهة الشعبية تعتمِد في بقائها على الراديكاليين ، وهؤلاء ما يزال فيهم من عرفنا سياستهم الاستعمارية في العهد القديم ، وهم ما يزالون عليها في العهد الجديد » .

كما أدى اغتيال المفتي إلى تضعضع الوحدة بين أفراد وهيآت المؤتمر .. فقد أدلى الدكتور بن جلول بتصريحات يدين فيها جمعية العلماء بمقتل كحول .. وغرضَه في ذلك إضعاف التيار العربي الإسلامي ، بتوجيه الاتهامات الخطيرة إليه ، وهو ما أرغم الجمعية على التصدي له بمقالات

عديدة وعنيفة ، من أهمّها مقال بمجلّة « الشّهاب » تحت عنوان : « ارتفاع القناع عن وجه الدكتور » ورد فيه :

« إن القضية الجزائرية لا تسير سيرها الموفق ، ولا تُثمِر ثمرتَها المطلوبة ، إلا إذا كانتْ متوحّدة الصفوف ، متساندةَ المناكب ، وإن هذه الصفوف لن تتوحّد ولن تستطيعَ أن تسيرَ إلا إذا أبعدَتْ عن ساحتِها دُعاةَ الهزيمةِ ، وسُعاة الخديعة ، والعاملين على تسنّم ذُرى الزعامة الكاذبة ، مُتخطين أعناقها ، جاعلينها مطية ذلولاً تُوصلهم إلى غايتهم .

« أمثال هؤلاء يجب قبل كل شيء أن تتطهّر منهم الأمة ، وأن تخلوَ منهم الصفوف ، وأن يرتدعَ بمصرعِهم الوخيم أمثالهم من الذين يريدون السّيرَ على منوالهم » (الشهاب ج 8 . م 12 . ص 372) .

وبالفعل بدأت زعامة وشعبية ابن جلول في الانهيار منذ عام 1937 ، وبانهياره ضعفتِ الجبهة الاندماجية .. واكتسحت الأفكار الوطنية والاستقلالية الميدان .. وما كادت الحرب العالمية الثانية تندلع حتّى كانت الأفكار السياسية قد تبلورت في شكلها الوطني ، ولم يَعُدْ مِن السّهْلِ الاقتصار على جانب واحد في أي نشاط ، فالشخصُ عضوٌ في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ومناضل في حزب الشعب الجزائري ، وقائد في الكشّافة الإسلامية الجزائرية ، لأن الوطنية أزالتْ كل الحواجز بين التّحركات الدينية والثقافية والسياسية والكشفية ..

وفي هذه الفترة لوحظ تقارب كبير بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وحزب الشعب الجزائري ، فهل كان هذا التقارب نتيجة القمع الذي تعرضتْ له كل من الجمعية والحزب ؟ أو هو نتيجة اهتمام الجمعية بالجانب السياسي الوطني ، واهتمام الحزب بالجانب الثقافي الديني ؟

المهم هو أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين استفادت من انعقاد المؤتمر الإسلامي ، واكتشفتْ من خلاله العناصر المخلصة والعناصر المتخاذلة ، وتعرَّفتْ فيه على الاتجاه الوطني السليم .. كما أن نجم شمال إفريقيا استفاد من انعقاد المؤتمر ، وتأكد بعده أن العمل الحقيقي يجب أن يكون فوق أرض الوطن ، وإلا فإن العناصر الخائنة والمتخاذلة تستغل الساحة والفراغ .

لكن من الانصاف للحقيقة والتاريخ أن لا يطوي الإنسان صفحة المؤتمر الإسلامي دون أن يعترف بالموقف الوطني الرائع الذي وقفه النجم ضد سياسات الاندماج . التجنيس . الالحاق .. وقد أبلى في ذلك بلاء عظيما ، وتقبل التضحيات الجسيمة ، كما لا يليق أن لا نستعرض النداء التّاريخي الذي وجّهه مصالي الحاج إلى الشعب الجزائري في شهر نوفمبر عام 1936 ، والذي أورده الدكتور محفوظ قدّاش في كتابه « تاريخ الحركة الوطنية » .. ومن أهم ما جاء في هذا النداء :

« المساكين الجزائريين !.. الاندماج !. الإلحاق !. الإتباع !. الانضمام !. المزج !. وكثير من الكلمات المترادفة من محْوٍ إلى بعثرة .. تُرَدَّدُ دون إدراك المعنى لكل كلمة !. يتباهون حين يتذرَّعون بأن الحكومة من الجبهة الشعبية ، ولا يُدركون ماذا تعني هذه الكلماتُ من خزي وعار وسخرية ، وفي نفس الوقت من مأساة !.

« كم يجري في الجزائر من أشياء مُضحكة في حين يجب أن تكون حزينة !.

« فهل يتواصل نومنا ؟ وهل تتوقف هذه التردادات ؟ أما لهذا من نهاية ؟ بعد مائة وست سنوات تحت الاستعمار نطلب الاندماج ؟ أي عار ؟ وأية فضيحة ؟

« الإدماج » الإلحاق كلمات فظيعة مخيفة !

« هل تعرفون هذا العمل الذي لا معْنى له ، إنَّه في نظر الإلـه عظيم الخطورة .

« إن الشعب الـدي يطلب أن ينـدمج في شعب آخر يقطع العلاقـة التي تربطـه بربِّـه !. ويقطـع صلتـه أيضـا بتـاريخـه .. بـأجـداده .. وبذريته .. في حين أن لنا معاشر الجزائريين تاريخا مجيدا ولغـة نبيلـة ، وشخصية مقدّسة ، وضميرا حيًّا .. كل هذه الصفات تمنعُنـا من أن نطلب اندماجا يتطلَّبُ منا التنكُّر لهذه الصفات الرائعة .

« إن هذه الصفات تحذّرنا بأننا إذا طلبْنـا الانـدمـاج سيكون طلبنـا « قبرا محفورا ، وكفَناً مُعدًّا » ، وفي ذلك اليوم نَتوسل بالزبور ، فلا يأتي أحد لإغاثتنا .

« البعض يتَّخـذ السينغـاليين نموذِجـاً بمَـا أنَّهم طلبوا إلحـاقهم .. هـل شخصيتهم شبيهـة بشخصيتنـا ؟ لا .. ألف لا .. نحن شرفـاء .. سلالـة شرفاء .. ويجب أن نبقى شرفاء ..

« بكل تـأكيـد ، نفضـل أن نبقى جـزائريين مضطهـدين ، على أن نتحـول إلى فرنسيين أحرارا .. هـذه الكلمـات التي لا يستطيـع أحـد أن يقول إنها جارحة هي تعبير عن الحقيقة نقولها بدون تردد !.

« ليس هنـاك إلا موقفـان .. إمـا أن تكـون وطنيـا حـارا .. أو أن تكون خائناً مجرما !. نحن لا نسمحُ أبـدا بـأن تخـاطروا بـأدنى حق لهـذا الشعب التعيس في التحرير الذي قرَّرنا أن نضحي من أجله .. أي أحمق هذا الـذي يعتقـد بـأنـه يقوم بتجربـة !. كما يقول المثل : « يُحب يتعلم الحجامة ، في روس اليتامى » هذه التجربة التي يريد أعداؤنا أن يقوموا

بها ليستْ إلا مقامرة .. إنهم يضعون أنفسهم في وضع ذلـك الـذي يشرب كأساً من الخمر ليعرف هل الخمرة تسكر ؟ أو كذلـك المجنون الـذي يحـاول أن يضع الشمس تحت الأرض .. لا يجب أن نرتجل مـع الشعب ، ولا أن نعبث بحقوقه ، لا يمكن أن نستخلص من الحنظل عسلا ، ولا يُمكن أن نحول الزفْتَ حليبا خالصا .

« لا يستطيـع أحـدٌ أن يـدّعي بـأننـا متطرفـون حين نطـالب بالاستقلال .. حقيقة نحن نطـالب بـالاستقلال ونطلبـه بشرف ، بـاذلين للوصول إليه جهودنا ، نحن لا نطلبه في الحين ، بالعكس نحن نعلِن بـأن برنامجنا إلى تحرير الجزائر بوسائل عادية ، وبـدون تحـديـد أجل ، وإنّما نواصل فقط طريق التحرير ، لا طريق الاندماج والتجنيس » .

بهذا النداء الذي تضمن من الصراحة والحماسة مـا لم يتضمنـه أيٌّ مقـال أو خطـاب في تلـك الفترة الحرِجـة ، نختم الحـديث عن المؤتمر الاسـلامي الذي انتهى بعد المحاولات إلى فشل .



جمعية العلماء المسلمين
الجزائريين
من المؤتمر إلى الحرب
العالمية الثانية

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من المؤتمر إلى الحرب العالمية الثانية

رغم الفترة القصيرة بين تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وانعقاد المؤتمر الإسلامي استطاعت الجمعية كسْب أنصار متحمسين ، واستطاعت أن تفرض نفسها على السّاحة الدينية ، وإذا ركّزنا على الساحة الدينية ، فذلك لأن الجزائري في ذلك العهد لا يفرق بين الدين والسياسة ، ولو أن الجمعية استبعدتْ في قانونها الأساسي كل نشاط سياسي .. واشتراكُها في المؤتمر أكّد على أن الجمعية لا يُمكن لها أن تظل - في ظل استعمار غاشم - منكمشة في إطار ديني محض . بعيدة عن الجماهير ومطامحها ، لا سيما وأنها التنظيم الوطني المسموح له قانونيا بمزاولة نشاطه في البلاد ، ويتوفر لديْه جهاز يمكنه من الاتصال بأوسع قاعدة شعبية ، ولولا ذلك لما استطاعت أن تفرض نفسَها في المؤتمر .

ولعل نشاطها في المؤتمر ، ونفوذها لدى الأوساط الشعبية هو الذي جعل مديرية الشؤون الأهلية تتخوف ، فدبَّرت مؤامرة الاغتيال ، وألقت القبض على الشيخ الطيب العقبي وعلى السيد عباس التركي ، وأطلقت سراحهما بعد أن ثبتت براءتهما ، وأبقت على عكاشة داخل السجن بوصفه المنفذ للاغتيال . ولم يطلق سراحه إلا في أواخر الخمسينات أي قبيل وفاة الشيخ الطيب العقبي بقليل .

وقد نالت المؤامرة فعلاً من معنويات العقبي دون أن تنال من أعضاء الجمعية الآخرين بدليل أن لهْجة صحافة الجمعية ، وخطب رجالها تغيرت منذ عام 1937 نحو « الجذرية » أو « التطرف » .. وبما أنه لا يمكن التعرض لكل الخطب والمقالات التي تُؤكد هذا الاتّجاه ، فإنه على الأقل لا يمكن إغفال بعض ما كتبه أو قاله ابن باديس ، باعتباره رئيس الجمعية ، والناطق باسمها .

وقبل استعراض مواقف ابن باديس ، من الأفضل التوقف عند بعض الأحداث التي كانت لها انعكاساتها على الجمعية :

1 ـ اغتيال مفتي الجزائر ، وسجن الطيب العقبي ، ووجود جمعية العلماء في قفص الاتهام ، الشيء الذي جعلها تدافع عن نفسها كجمعية ، وعلى العقبي لتبرئة ساحته من التهمة الملفّقة .

2 ـ تخلّي بعض النواب عن تأييد الجمعية ، وعن الدفاع عنها لدى الإدارة الفرنسية بصفاتهم النيابية ، بل بلغ الأمر بابن جلول أن يتحامل على الجمعية ، وأن يوجه الاتهام إليها ، ويندد بالعنف الذي تمارسه .. مع أن ابن جلول كان الشخص المرِن في مواقفه مع الجمعية في الماضي ، بحكم علاقته وقرابته لابن باديس .

3 ـ صدور قرار 8 مارس 1938 وهو قرار يضع قيودا ثقيلة تحُول دون ممارسة التعليم العربي الحر .. مما أجبر ابن باديس على توجيه مناشير ورسائل إلى عدة هيآت ومنظمات للقيام بتحركات احتجاج ..

4 ـ زيارة ابن باديس لتونس وقيامه بنشاط واسع ، وباتصالات مكثفة بالعناصر الوطنية التونسية ، ولهذه الاتصالات آثارها ونتائجها في حياة ابن باديس ، وفي مسار الجمعية أيضا .

5 ـ إلقاء السلطات الإدارية الفرنسية القبض على بعض رجال جمعية العلماء أمثال : عبد القادر الياجوري ، علي بن سعد ، عبد العزيز الهاشمي ، عبد الكامل ..

6 ـ مضايقة المدارس ، ومراكز التثقيف والتعليم ، وملاحقة بعض القائمين بالتعليم والوعظ والإرشاد .

7 ـ خلاف ابن باديس مع العقبي .. وهو خلاف بدأ يظهر منذ المحنة التي مرَّ بها العقبي ، وبعد خروجه من السجن ، فقد أصابه فشل ، وظهرت عليه علامات التخاذل التي لم يتقبلها أعضاء الجمعية الآخرون .. ولم ينكشف الخلاف بصفة علانية إلا حين تقدّم العقبي إلى الجمعية باقتراح يقتضي تقديم شواهد الولاء والإخلاص لفرنسا حين ظهرت بوادر الحرب العالمية الثانية ، فهل صدر هذا الاقتراح من العقبي نفسه ، أم صدر بإيحاء من جهات فرنسية ؟

8 ـ مُحاولةُ اغتيال الشيخ أحمد الحبيباتني بقسنطينة ضِمن خُطةٍ مدبَّرةٍ ضد ابْن باديس ..ولا يُستبعَد أن يكون للإدارة الفرنسية مخطط واسع في عدة أماكن .. المحاولة الأولى في الجزائر .. والثانية في قسنطينة .. ومن يدري فقد تكون الثالثة بتلمسان .. والرابعة بتبسة ..

هذه الأحداث جميعها اضطرت الجمعية إلى تعديل مواقفها .. وتطوير لهجتها .. وإلى الابتعاد نوعاً ما عن كتلة النواب التي انغمستْ في تأييد السياسة الفرنسية .. وأدتْ بالجمعية إلى التقارب مع العناصر الأشدّ وطنية ، وخاصة مع حزب الشعب الجزائري الذي يلتقي مع الجمعية في أن مبادئَ الوطنية الأصيلة لا تتعارض مع مبدأي الإسلام والعروبة ، وقد وصل التقارب غير المخطط بين الجمعية والحزب إلى وجود

أعضاء في شعب جمعية العلماء يمارسون النضال في داخل حزب الشعب دون أن يشعر هؤلاء الأعضاء بوجود تناقض بين الإسلام والعربية والاستقلال .

الآن نستعرض كتابات ابن باديس حسب الأحداث :

الحدث الأول : الذي تأثر له ابن باديس ، واهتزت له جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هو إلقاء القبض على الشيخ الطيب العقبي ، للمكانة المعتبرة التي كان العقبي يحتلها ، فقد كان مصلحا متشددا ، وخطيبا بليغا ، وواعظا مؤثّرا ، وصاحب شخصية جذّابة ، مكّنته من فرض نَفسه على الأوساط العاصمية ..

وما إن وقعتْ حادثة مقتل ابن دالي كحول ، وألقي القبض على العقبي حتى بادر ابن باديس بتوجيه نداء باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، جاء فيه :

« أيها الشعب الكريم !

كبُر على أعدائك أن يروْك فرِحاً مسرورا بمؤتمرك العظيم ، ووفدِك إلى باريز ، وبلوغ صوتك إلى الحكومة الفرنسية وأحزاب الجبهة الشعبية ، ورجوع وفدك يحمل الآمال الصادقة والثقة التامة من تلك الحكومة ، وتلك الأحزاب .

كبُر على أعدائك كل هذا ، فأخذوا يُدبّرون لك المكائد ، وينصبون لك الأشراك ، فكانت تلك الجناية المنكرة على الإمام « ابن دالي » ثم كانت تلك التهمة الشنيعة على الاستاذ « الطيب العقبي » ، كل ذلك لأجل أن يُثيروك فيخرجونك عن النظام والسكينة ليصوّروك بالصورة التي يريدونها لك من القبح والفساد ، ولأجل أن يزيدوا ثقتك بالجبهة

الشعبية حكومتها وأحزابها ، ويوهمونك أنه لم يصبْك في أيامِهم ما أصابك في أيامها فيفصلونك عنها لتقع فريسة بين أيديهم .

أيها الشعب الكريم !. ارفع صوتك بالاحتجاج ضِدَّ كل إجرام ، وكلِّ كيد ، أعلن مقْتك للكائدين والمكّارين .

دُمْ على ثقتك بالجبهة الشعبية حكومتها وأحزابها ، ثِقْ بأن عين العدالة الفرنسية ستفضح الكائدين » (البصائر . 28 أوت 1936) .

اعتبر ابن باديس حادثة الاعتقال محنة لم تنل من عزم الجمعية .. ونعمة من ناحية أخرى لأنها « أحدثت في العالم المتصل بالجزائر روحا جديدة من العطف على الجمعية والتنبه لمكانتها والتأييد لها » .

فعلا ، تحوّلت قضية اعتقال العقبي إلى قضية وطنية بما أحدثته من صدى ، خاصة في العاصمة .. اهتمت بها الأحزاب والتنظيمات الجزائرية ، وغير الجزائرية ، وأخذت بعدا أوسع مما كانت تتوقعه الإدارة الاستعمارية - ماذا استفادت الإدارة الفرنسية باغتيال كحول واعتقال العقبي ؟ مديرية الشؤون الأهلية تعرف الجواب ، بحكم اتصالها الوثيق بالمفتي كحول ، ومراقبتها لتحركات ونشاط العقبي ، والشيء الأكيد هو أنها تمكّنتْ من التأثير في العقبي ، واستطاعتْ فصله عن الجمعية ، آملةً أن الفصل يُضعِف الجمعية إن لم يُحطمها نهائيا ، وهو ما لم يحدث ، بل خرجت الجمعية من محنتها أقوى ، وتجاوزتها بشجاعة .. لأن الإيقاف والمحاكمة في ذلك العهد ليسا بالأمر الهيِّن .. لا يستطيع الثبات فيهما إلا من كان صادق الإيمان والوطنية .. ولهذا بدل أن تهتز الجمعية وتنهار ، اهتزت مكانة العقبي ، وانهارت سمعته ، كما قال الدكتور سعد الله : « إن هذه المحاكمة وإن انتهتْ بإطلاق سراح العقبي قد نجحتْ في القضاء عليه ، ذلك أنه عندما اجتمعتْ جمعية العلماء للتداول في النقطة

المطروحة عندئذ على جدول الأعمال ، وهي الإعلان عن تأييد فرنسا في الحرب ، كانت الأغلبية مع الشيخ ابن باديس الذي اختار الصمت ، أما العقبي فلم يرَ رأي إخوانه ، فاختار الخروج من الجمعية حفاظا لها ، مقدِّماً نفسَه كبش الفداء » .

الحدث الثاني : محاولة اغتيال الشيخ أحمد الحبيباتني ، وهو من العلماء التقاة الزهاد ، الذين كرَّسوا حياتهم للوعظ والإرشاد ، لم ينخرط في جمعية ، ولا في أي تنظيم ، كان محبوبا ومحترماً من طرف سكان قسنطينة .. فما هو الهدف من محاولة الاغتيال ؟ هل هو الرغبة في التخلص من هذا الشخص الطاهر النظيف العفيف الذي لم يتورط ،. والذي ارتفع عن الإغراآت المادية التي عرضتها عليه مديرية الشؤون الأهلية ؟ أم أن محاولة الاغتيال هي مؤامرة ثانية تهدف إلى التخلص من ابن باديس نفسه ، بإلقاء القبض عليه متّهماً بمحاولة الاغتيال ؟ كيفما كان الهدف ، فإن العملية لم تنجح ، ونجا الشيخ أحمد الحبيباتني الذي أطلقت عليه عدة رصاصات ..

وصف عبد الحميد بن باديس هذه المحاولة بأنها « حادث مريع » في مقال له بالشهاب تحت عنوان « حادث مريع » استهلّه بالآية الكريمة : « واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » مواصلا استعراض الحادث : « مساء يوم الاثنين 10 من شهر أوت الجاري على الساعة السابعة والنصف تقريبا بينما كان الأستاذ الشيخ الحبيباتني بنهج الزواف في طريقه إلى منزله الكائن بهذا النهج ، إذ بأربع طلقات نارية من مسدّس يقع رصاصها حوله من دون أن يمسه بأذى ، الأمر الذي حيّر العقول في تحليل هذه المداعبة الوحشية وبيان أسبابها ومسبباتها .

« ونحن بدورنا نقول كلمتنا في هذه الحادثة قبل أن نهنيء الأستاذ بسلامته ، مستندين فيا نقوله على ما نعرفه من سيرته - وسيرة المرء أصدق شاهد له أو عليه - فهو الرجل السليم الذي لم يؤثر عنه أنه مدَّ يدَه لمحرَّم ، أو أطلق لسانه بوشاية أو فتنة ، فمِن أين جاءته هذه المصيبة ؟ ومن الذي تولّى كبرها ؟

« ثم إن الحادث وقع في آخر النهار ، وفي وسط آهل بالسكان ، فكيف استطاع المجرم أن ينجو من أيدي الناس ، وحتّى من أعيُنهم ، فلمْ ترَه عينُ أحد ؟

« إنَّنا نعَدُّ بلهاء إذا صدقْنا بأن الحادث بسيط إلى هذا الحدّ ، فنكتفي بسلامة الأستاذ ، وبسلامة الجاني عليه على السواء ، وندَّعِي أننا حصَّلنا على نتيجة حاسمة .

« إن الحوادث التي وقعتْ حول المؤتمر الإسلامي الجزائري قد أثارت المخاوف ، وقوّى الشّعور في سائر طبقات الأمة الجزائرية بأن هناك سلسلة من المؤامرات السرية دبِّرت لإحباط مساعي المؤتمر ، وقتلِ آمال الأمة في مهدها ، وما هذه المحاولة الجديدة التي انتهتْ بسلامة الأستاذ الحبيباتني من نتائجها إلا حلقة من تلك السلسلة الرائعة » (مجلة الشهاب . ج 6 . م 12 . أوت - سبتمبر 1936) .

المحاولات في نظر ابن باديس هي مكائد مدبَّرة .. وقد تخوّف منها ومن عواقبها على سير الحركة الإصلاحية .. لكنّها من ناحية أخرى نبّهت إلى أن ميدان العمل واسع ، لا يقتصر على العلم فقط ، فقد قال بمناسبة تجديد انتخابه رئيسا للجمعية في مؤتمر 1936 : « إخواني . قدّمتموني للرئاسة ، وهذا اعتراف منكم بأني أبقى على ما كنتُ عليه ،

فأنا رجل مسلم ، ورجل وطني ، كلّ حواسّي وكلّ عقلي هو لخدمة وطني ، نعم أخدمه وأدرجه حتى لا يكون هناك اندحار ولا انهيار .

إن ميدان العلم في هذه الجمعية لميدان واسِع ، وهنالك للعمل ميادين أخرى ، لا أدخلها باسمها ، ولكن (إن كان فيها منفعة) أدخلها باسمي - إن كان عند قومي قيمة لِاسمي - وأرجو أن يعينني الله عليها » .

ولعله بهذه الإشارة كان يتأهب لخوض المعمعة السياسية ، ولكن باسمِه ، حتى لا يجُرَّ على الجمعية متاعب .. ومواقفه التي جاءت بعد هذا الخطاب ، تدل على أنه فعلا تحمَّل بعض المسؤوليات باسمه الشخْصيّ ، سواء من المؤتمر الاسلامي منذ عام 1937 . أو من الاحتفال الفرنسي بمرور قرن على احتلال قَسنطِينة .. وإن كانتْ فرنسا لا تفرّق بين المواقف الشخصية ، ومواقف الهيآت .

الحدث الثالث : موقف ابن جلول من الجمعية أثناء المحنة .. وقد تأثر ابن باديس ومعه الجمعية بانقلاب ابن جلول ضد الجمعية وتنديده بها ، واعتبار اغتيال كحول عنفا ، لا مبرِّر للجمعية أن تقوم به .. ولذلك كان رد ابن باديس عليه قاسيا ، فانتقده بمقال تحت عنوان : « ليست الزردة وحدها .. ولكن وراء الأكمة ما وراءها .. » ويقول فيه تحت عنوان فرعي :

« طعنة من الخلف في أخطر الأوقات :

في الوقت الذي أدخل فيه السجن الأستاذ العقبي ، ونجمتْ قرون الشرِّ من كل جهة تنضنض بألسنة الباطل إلى الجمعية ، يصرح الدكتور ابن جلول تلك التصريحات التي نعرف نحن وأمثالنا مِّن تعوَّدوا البهت

الإداري أنه لا يُحسن نسجها ، ولا يُتْقِن وضعَها ، ولا يحويها ذهنه ، وإنما هي صنع معامل شيطانية تقدِّمُها لِمَن يرضى لنفسه باستعمالها ، فيستعملها ، فيكون عليه عزمها ، ولها هي غنْمُها » .

وختم ابن باديس مقاله الطويل بقوله :

« فهل أدرك الدكتور حقيقة أمره ، وشعر بغضب الأمّة عليه ، فأخذ يتراجع عن غيه ، ويتدارك من خطئه ، ليعود إلى بعض مقامه عند قومه ؟ أم هو ما يزال جادا في سيره حتى يصل من منحدره إلى النهاية ؟ » .

ورغم المقالات .. والوساطات .. فإن ابن جلول لم يتراجع عما قاله ، ولم يكذب ما نشرته صحيفة « مرسيليا » على لسانه .. وكان يعتقد أنه يصحّح مركزه بهذا الموقف المتصلّب ، إلا أن الظروف أثبتت تقديره الخاطيء ، فتضعضع مركزه ، وتدهورت سمعتُه ، وانهارت زعامته .. ولم يتمكن أبدا من استعادتها ، لأنه من ناحية أخرى بالغ في انغماسه وتواطئه مع الإدارة الاستعمارية ..

بينما نجد أن عبد الحميد بن باديس - رغم الهزات ، وخاصة بعد المؤتمر الاسلامي - احتدّتْ لهجته ، وصارت تعبّر بصراحة عن مشاعر الجماهير الجزائرية ، مجيبة عن بعض التساؤلات ، ومندّدة في الوقت نفسه ببعض التيارات التي تقلص من أهمية المشكل الجزائري كالتيار الذي حاول حصر القضية الجزائرية في الخبز واعتبارها مشكلا اجتماعيا لا أكثر ولا أقل .

وقد أجاب هؤلاء الخبزيين بمقال رائع في مجلة الشهاب الصادرة في شهر ديسمبر 1936 بعنوان « ليس الخبز كل ما نريد » ، جاء فيه :

« نحن ـ المسلمين ـ ربينـا تربيـة إسلاميـة على ألفـة الجوع ، والتقلل من الأكل ، والاقتصار على قدر الحاجـة ، والمواسـاة في المطعم والمشرب ، فطعام الواحد عنـدنـا يكفي الاثنين ، وطعـام الاثنين يكفي الأربعـة ، وطعام الثلاثة يكفي الستة ، وطعام الأربعة يكفي الثمانية ، ونعتقد عن تجربة أن الرجل لا يهلك عن نصف قوته .

« بهـذه التربيـة استطعنـا أن نبقى ونعيش في مثل مـا عليـه حـالـة معظم الأمـة الجزائريـة من الفـاقـة والعوز والجوع والمسغبـة ، بينمـا هي تنظر إلى ما ينعم فيه غيرهـا من النعمـة والرخـاء ، ممـا لو أصـاب أمة أخرى لاجتاحَها وأفناها ، أو لأثارها ودفعَها إلى موارد العذاب والردى .

« وكما ربَّانا الإسلام على هذه التربية من ناحية الغذاء ، فقـد ربَّـانـا تربيـة أخرى من نواح أخرى ، ربـانـا على محبـة العلم والمعرفـة والرغبـة حـظٌّ فيهما ، والتلهف على مـا فـات منهما ، والاحترام لمن كان لـه حـظ فيهما .

« وبهذه التربية استطعنا ـ رغم الفاقـة ، ورغم الجوع ، ورغم التّثبيـط والمعاكسة ـ أن نحافظ على قرآننا ، وخطِّنا ، وبقايا علوم لغتنا وديانتنـا وجملة معارفنا » .

ويواصل مجيبا :

« جهل قوم من ذوي السلطة هذا الخلق منا فحسبوا ـ وهم عالمون بما فيه الأمة من جوع وفاقة ـ أننا قوم لا نريد إلا الخبز ، وأن الخبز عندنـا هو كل شيء ، وأننا إذا ملِئت بطوننا مهَّدْنـا ظهورنـا ، وأنَّهم إذا أعطونـا الخبز فقد أعطونا كل ما نطلب .. » .

ويختم مقاله بالرد الصارم ، والروح الوطنية الجزائرية الأبية :« لا .. يا قوم .. إننا أحياء ، وإننا نريد الحياة ، وللحياة خُلِقنـا ، وإن الحيـاة

لا تكون بالخبز وحده ، فهنالك ما علِمتم من مطالبنا العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وكلها ضروريات في الحيـاة ، ونحن نفهم جيـدا ضروريتها للحياة ، وقد بذلنا فيهـا لكم ما كان ـ يوما ـ سببـا قويـا في حيـاتكم ، فـلا تبخلـوا علينـا اليوم بمـا فيـه حيـاتنـا إن كنتم منْصفين ، ولـلأيـام والأمم مقـدرين ، وإلاَّ فـالله يحكم بيننـا وبينكم وهـو خير الحاكمين » .

وعلى العموم ، فقد هاجم من خلال ابن جلول النواب المائعين الذين يغيّرون مواقفهم حسب المناسبات والظروف ..

أما موقفه من المؤتمر الاسلامي ، فقدْ تخلّى عن حماسه الأول ، وبـدأ الفتور يتسرَّب إليه .. وما كاد العـام ينقضي على انعقـاد المؤتمر حتى شعر باليأس يدب إليه ، وتأكد لديه أن فرنسا لا تتجاوز في وعودهـا حـدود التسويف والمماطلة ، وقال في ذلك : « فزيادة على ما في هـذا التسويف والمماطلة ، فـإنـه دليل قطعي على أن مطـالب المؤتمر لا عبرة بهـا »،وعبَّر عن يـأسـه من سيـاسـة فرنسـا بمقـال مثير تحت عنوان : « هـل آن أوان اليأس من فرنسا ؟ » ومنْ ضمن ماجاء فيه : « إن الذين كانوا معنـا يوم قابلنا رئيس الوزارة « بلوم » بـاسم المؤتمر في جوليت من السنـة المـاضيـة يعلمون تصريحه بِأننا لا نرجع بأيـدينـا فـارغـة ، وأنـه سيشرع في الحين القريب في تحضير مطـالبنـا المستعجلـة ، ويعلمون قول م فيـوليت وهـو بجنبه :ستحضَّر قبل يوم الأحد ، ورجال ذلك الوفـد يعلمون أنهم رجعوا بأيديهم فارغة ، ولم يصدق لا الرئيس ولا الوزير ..

« فماذا فهم الناس من هذا كله ؟ »

« أما الذين ينظرون إلينا من الخارج نظر الحاكم على الأمم بما يبـدو من أعمالها وسيرها ، فإنهم يقولون : إن فرنسـا تعِـد وتُخلِف ، لأنها رأتْ

مصْلحتها في الإخلاف ، ولا يُرجَى منها إقلاع ، ما دامت تعتقد مصلحتها فيه ، والجزائر تنخدع وتطمع ، ويمكن أن يطول انخِدَاعها ، ويستمِرَّ طمَعها ، ويمكن أن ينجلي لها سراب الغرور ، فتنقطع عن الانخداع ، وتقطع حبل الطمع ، وتتصل باليأس ، وما يُثمره اليأس ويقتضيه .

وأما نحن الجزائريين ، فإننا نعلم من أنفسنا أننا أدركنا هذا الإخلاف العرقوبي ، وأدركنا مغزاه ، وأخذ اليأس بتلابيب كثير منا ، وهو يكاد يعم ، ولا نتردد في أنه قد آن أوانه ، ودقتْ ساعته ..

« ماذا تريد فرنسا من مماطلتنا ؟ »

« كذب رأي السياسة ، وساء فألُها ، كلاًّ والله لا تُسلِمُنا المماطلة إلى الضجر الذي يُقعدنا عن العمل ، وإنما تدفعُنا إلى اليأس الذي يدفعنا إلى المغامرة والتضحية .

« أيها الشعب الجزائري !. أيها الشعب المسلم !. أيها الشعب العربي الأبي !. حذار من الذين يمنّونك ويخدعونك ، حذار من الذين ينوِّمُونك ويخدِّرونك ، حذار من الذين يأتونك بوحي من غير نفسك وضميرك ، ومن غير تاريخك وقوميتك ، ومن غير دينك وملّتك ، وأبطال دينك وملتك ..

« استوح الإسلام ، ثم استوح تاريخك ، ثم استوح قلبك ، اعتمد على الله ثم على نفسك ، وسلام الله عليك » .

وبدءاً من هذا المقال يستشف الجزائري الانقلاب الذي حدث في حياة ابن باديس السياسية ، والذي أكدته المقالات التي كتبها فيما بعد .. وقد ضاقت الإدارة الاستعمارية بهذه اللّهْجة الجديدة الصريحة المعبِّرة عن

مشاعر الأمة ، وإستيائها من سياسات التسويف والمماطلة .. فشرعت الإدارة في مضايقة الجمعية ، ومراقبة شُعبها ، وخلق المتاعب لرجالها .. وما كاد الاجتماع العام للجمعية ينعقد عام 1938 حتى كان عدد كبير من رجالها في السجون والمنافي .. وقد وصف ابن باديس ذلك في خطاب افتتاحه للاجتماع المذكور بقوله :

« أما بعد : فسلام عليكم يا أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أجمعين ، وسلام على مساجينكم في المساجين ، وسلام على متّهميكم في المتّهمين ، وسلام على منكوبيكم في المنكوبين !. سجون ، واتهامات ، ونكبات .. ثلاث لا تُبنى الحياة إلا عليها ، ولا تُشادُ الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقّةِ إلا على أسسها » .

ثم استعرض المضايقات والمحاكمات التي تعرض لها الطيب العقبي ، والبشير الابراهيمي ، وعمر دردور ، وعبد الحفيظ الجنان ، وعبد العزيز الهاشمي ، وعلي بن سعد ، وعبد القادر الياجوري ، وعبد الكامل .. ورجال التعليم في بجاية وباتنة .

ويواصل :

« أيها الإخوان ، قد اعتدْنا في كل اجتماع عام من اجتماعاتنا أن نرفع شكوانا واحتجاجنا إلى الولاية العامة ، وإلى الحكومة العليا ، ولم يَرِدْ لنا جوابٌ مرّةً واحدةً ، بل يكون الجواب بزيادة الإرهاق ، وتضييق الخناق » .

ويختم خطابه :

« أيها الإخوان : فنحن مع بقائنا على جميع ما قلنا وبيّنا ، واستمرارنا في موقفنا كما كنّا ، لا نريدُ اليوم أن نرفع شكوانا ، ولا أن

نقدّم احتجاجنا ، وحسبُنا في هذه السنة السكوت ، وكفى بالسكوت احتجاجا عند من عرف وأنصف ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

ومن الطبيعي أن لا تتغاضى الإدارة الفرنسية الاستعمارية على هذه اللهجة الحادة .. فضاعفت من قمعها وزجرها للجمعية ، ولم تتردد في نفي البشير الابراهيمي الذي كان نائب رئيس الجمعية إلى آفلو بالقرب من تيارت ، ومعاملته معاملة سيئة ، وفي فرض الإقامة الجبرية على عبد الحميد بن باديس رئيس الجمعية .. بعد أن أوقفت عددا من رجال الجمعية ..

وبهذه الوضعية واجهت الجمعية إعلان الحرب العالمية الثانية .



من
نجم شمال إفريقيا
إلى
حزب الشعب الجزائري

حزب الشعب الجزائري

ـ بين المؤتمر الإسلامي والحرب العالمية الثانية ـ

باشر نجم شمال إفريقيا نشاطه الحزبي بوضعه قانونه الأساسي عام 1926 الذي أقره المجلس العام ، ويتكون من 18 مَادة ، وضم النجم في البداية كلاً من عمّال تونس ، والجزائر ، والمغرب ، لكن نشاط الجزائريين كان طاغيا ، وتضحيتهم من أجل النجم والمبدإ لا تنكر ، وحماستهم الوطنية كانت فياضة .. استمروا في النشاط بينما تخلى التونسيون والمغاربة عن حماستهم الأولى . ولعل هذا يعود إلى وضعية كل من تونس والمغرب ، وإلى كونهما محميتين ، لا مستعمرتين كما هو حال الجزائر ،. وذلك ما دفع الجزائريين إلى الاعتماد على أنفسهم ، وإلى الظهور بمظهر قوي ثابت في كل الظروف .. وبدأت شخصيتهم الوطنية تتبلور وتأخذ أبعادها في مؤتمر بروكسل عام 1927 الذي ألقى فيه مصالي الحاج خطابا هاما ، لعل من الأفيد إيراده بتمامه كما نقله الأستاذ محمد قنانش :

« تمركزت الامبريالية الفرنسية على أرض الجزائر بقوة السلاح والتهديد ، والوعود الخلابة ، واستولت على الثروات الطبيعية وعلى الأرض ، وذلك بواسطة اغتصاب عشرات الآلاف من العائلات من الذين كانوا يعيشون من إنتاج أعمالهم ، أراضيهمُ المغتصبة ، قدسُلِّمَتْ إلى

المعمرين الأوروبيين وإلى الأهالي عملاء الامبريالية ، وإلى الجمعيات الرأسمالية والذين اغتُصِبت أراضيهم قد أُجبروا على بيع قوة سواعدهم للملاّكين الجُدد إن أرادوا أن يعيشوا ، والسكّان الذين كانوا يعيشون في نعمة لم يبقَ لهم شيء ، وقد جعلتْ منهم الأمبريالية جياعا وعبيدا ، والاغتصاب قد نُفِّذ كما هي العادة تحت شعار « المدنية » ، وباسم هذه المدنية المزعومة فقد دِيست بالأرجل جميع التقاليد والعادات ، وجميع التطلعات للسكان الأهليين ، وعوض أن تقدِّم العوْن لهذا البلد ليتمكّن من التطور ، فالامبريالية الفرنسية زادت على الاغتصاب وعلى الاستغلال التسلط السياسي الأكثر رجعية ، وذلك بحرمان الأهالي من كل حرية لظروفهم ولتنظيمهم ، ولجميع حقوقهم السياسية والتشريعية أو هي لا تسمح بالحقوق إلا لقلة من الأهالي الخواص .

وزيادة على هذا : إفساد العقول المنظم بنشر الخمور وإدخال دين جديد ، وقفل المدارس العربية التي كانت موجودة قبل الاحتلال ، ولتتويج أعمالها أجبرت الأهالي على التجنيد في جيشها لمتابعة الاستعمار ، وللعمل في حروب أمبريالية ، ولقمع المنظمات الثورية في المستعمرات وفي فرنسا .

« مائة سنة من الاستعمار .. والجماهير الجزائرية المستغلة والمضغوط عليها في كفاح مستمر ضد الامبريالية الفرنسية ، لتحريرها من ربقته ، وللتوصل إلى الاستقلال .

« مطالب الجزائريين :

إن نجم الشمال الإفريقي الممثل لمصالح الجماهير العمالية لسكّان الشمال الإفريقي يطالب للجزائريين بتحقيق المطالب الآتية ، ويطلب من المؤتمر أن يتبنّاها :

- استقلال الجزائر .
- جلاء قوات الاحتلال الفرنسية .
- تأسيس جيش وطني .
- حجز الأملاك الفلاحية الكبيرة التي استولى عليها الإقطاعيون عملاء الأمبريالية والمعمِّرون والجمعيات الرأسمالية الخاصة ، وإرجاع الأراضي المحجوزة إلى الفلاحين الذين سُلِبتْ منهم .
- احترام الأملاك الصغيرة والمتوسطة .
- إرجاع الأراضي والغابات التي استولتْ عليها الحكومة الفرنسية إلى الحكومة الجزائرية .

هذه المطالب الأساسية التي نحارب من أجلها لا تَنْفي أعمالاً جريئة فورية لانتزاع المطالب الآتية من الامبريالية الفرنسية .

- الإلغاء الفوري لقانون الأنديجينا والقوانين الاستثنائية .
- العفو لِمَن هم في السجون ، أو تحت الإقامة الجبرية أو المبعدون .
- حرية الصحافة ، والجمعيات ، والاجتماعات .
- التمتُّع بالحقوق السياسية والنقابية المُعادِلة لما يتمتع بها الفرنسي في الجزائر .
- تحويل المجلس الحالي المنتخب بأقلية ، إلى برلمان جزائري منتخب بالاقتراع العام .
- انتخاب المجالس البلدية والعمالية بالاقتراع العام أيضا .
- التمتع بحق التعليم في جميع المراحل .
- إنشاء مدارس للعربية .
- تطبيق القوانين الاجتماعية .
- إعانة صِغار الفلاحين بقروض واسعة .

هذه المطالب لا يُمكن أن تتحقق إلا إذا توصل الجزائريون إلى الوعي بحقوقهم ، وبقوّتهم لفرْضها على الحكومة الفرنسية ، وذلك باتِّحادِهِم والتفافِهِم حول منظَّمتهم » .

انحصر نشاط النجم في فرنسا .. أما في الجزائر فقد كان نشاطه ضئيلا جدا ، لأسباب عديدة .. إلى أن سنحتْ فرصة انعقاد المؤتمر الإسلامي عام 1936 ، وألقى مصالي خطابه التاريخي في 2 أوت 1936 بالْملعب البلدي ، وكانت أصداء الخطاب مشجّعة لمصالي على القيام بجولات في المدن والقرى الجزائرية ، وأحدثت هذه الجولات حركة جديدة ، دفعت برجال النجم إلى عقد تجمُّع نظمته شعبة النجم بالعاصمة ، ضم حوالي ثلاثة آلاف مناضل بسينما « الموندياال » ، وخلالَه شهّر الحاضرون بالوضعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي يسلُكها الاستعمار منذ قرن ، والتي قسمت السكان الجزائريِّين إلى قسمين : قسم دخيل يتمتع بجميع الحقوق .. وقسم وطني محروم من جميع الحقوق ، يعيش تحت قانون « الأنديجينا » .

وطالب الحاضرون باحترام معاهدة 5 جوليت 1830 التي تعهّد فيها دو بورمون (De Bourmont) باسم شرف فرنسا بأنه يحترم الإسلام ، والتجارة ، والأخلاق ، وتقاليد الشعب الجزائري .. كما طالبوا بفصل الدين عن الدولة ، وبتسليم الأوقاف إلى المسلمين .. كما احتجُّوا على تماطل وتسويف الإدارة الفرنسية في تنفيذ الإصلاحات الطفيفة ..

كل هذه العوامل : المؤتمر الاسلامي . الاتِّصال المباشر بالجماهير . اللقاآت المتعدِّدة .. شجّعت رجال النجم على إعادة تكوين منظمتهم من جديد على أساس أن تكون الأرضية الحقيقية والأساسية التراب

الجزائري ، فأسسوا « حزب الشعب الجزائري » بدل النجم الذي حُلَّ مِرارا من طرف السلطات الفرنسية .. ووضع له قانون صادق عليه المناضلون في اجتماع عام ، وجعل شعاره : « لا اندماج . لا انفصال . لكن تحرر » .

أمَّا برنامجه فقد نشرته جريدة « الأمة » لِسان حال حزب الشّعب الجزائري ، في عددها الصادر في شهر جانفي 1938 ، وهو كما يلي :

« برنامجنا :

الميدان السياسي :

1) إلغاء قانون الأنديجينا ، ونظام الغابات ، وكل القوانين الاستثنائية .
2) منح الحريات الديمقراطية : حرية الصحافة . الجمعيات . التفكير . النقابة . الاجتماعات . مساواة الفرنسيين والجزائريين أمام الخدمة العسكرية . احترام الديانة الإسلامية مع إعادة الأوقاف التابعة لها ، وكذلك إدارتها .
3) إلغاء الإعانات المقررة للديانة الكاثوليكية والبروتستانية من طرف الحكومة .
4) حرية السفر إلى فرنسا وإلى الخارج .
5) تحويل النيابات المالية إلى مجلس جزائري منتخب انتخابا عاما بدون تمييز في العِرق أو في الدين .
6) فصل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية .

الميدان الاجتماعي :

1) تدعيم الثقافة باللغتين العربية والفرنسية .
2) تعليم اللغة العربية إجباريا لكل المواطنين في كل المستويات .

3) التطبيق بالجزائر لكل القوانين الاجتماعية والعمالية المعمول بها في فرنسا .

4) العناية الصحية والحضور الاجتماعي .

5) حماية الطفولة .

الميدان الاقتصادي :

1) تخفيف الضرائب .

2) الضريبة التصاعدية حسب الدخل .

3) تأميم القرض ، والصناعات الأساسية ، والاحتكارات القائمة .

4) محاربة البطالة بالاهتمام بمشاكل الري.

5) إلغاء « التعمير » ، وتثبيت المواطنين في الأرض ومساعدتهم على استغلالها .

6) إلغاء الربا في القرض للفلاحين والتجار .

7) إنشاء نظام جمركي حامٍ للصناعات وللإنتاج المحلي ضد الإنتاج المشابه .

الميدان الإداري :

1) قبول كل الجزائريين بدون تميز في كل الوظائف مع تطبيق مبدإ : عمل متساو . وأجر متساو .

2) إلغاء كل المكافآت ذات الصبغة العنصرية أو السياسية .

3) إلغاء المناطق العسكرية ، والبلديات المختلطة » .

ويختلف حزب الشعب الجزائري عن نجم شمال إفريقيا في عدة نواح :

أولا : النجم ـ في الأساس ـ عبارة عن جمعية ، هدفها الأصلي الدفاع عن حقوق العمال المغاربة من جزائريين وتونسيين ومغاربة ..

أما حزب الشعب ، فهو حزب بالمعنى العصري للكلمة الذي يؤدي مفهوم التنظيم من ناحيةٍ ، ومفهوم النضال من ناحية أخرى ، فضلا عن التعبئة والتوجيه والمباديء ..

ثانيا : إذا كان النجم في أساسه تجَمعا يضم العناصر الوطنية التونسية والجزائرية والمغربية ، فإن الحزب يضم العناصر الجزائرية وحدها .

ثالثا : تضمين « الشعب الجزائري » في عنوان التنظيم له معنى كبير في تلك الظروف .. لأنها الظروف التي تكاثرت فيها الجهات التي تنكر وجود شعب جزائري .. منها من ينكر تماما وجود شعب فوق الأرض الجزائرية .. والأخرى تدعي « بأن الجزائريين شعب في طريق التكوين » .. والثالثة ترى أنه من الأصلح للفئات الموجودة فوق التراب الجزائري أن تندمج في الشعب الفرنْسي إذا أرادت حقا أن تحيا ..

رابعا : من تأمل الشعارات الجديدة التي تبناها حزب الشعب الجزائري نلاحظ أنه اضاف « لا انفصال » إلى جانب تحرر ، فكيف يمكن التوفيق بينهما ؟. تولّت صحيفة « الأمة » توضيح هذه النقطة بقولها :

« الجزائر قوية بستة ملايين سكانها ، يتحدثون لغة واحدة ، ولهم دين واحد ، وماضي واحد ، يبقى الشعب مرتبطا ، ولا يستطيع أن يندمج أو أن ينْمَحِيَ ، لكنه يستطيع التحالف ، الحزب ليس انفصاليا ، ما دام حرًّا داخليا ، طبيعة الأشياء ، المصالح ترغم الشعوب على أن تتحد وأن تتحالف كي تضمن لنفسها الأمن المتبادل ، وتسمح بتبادل إنتاجها واقتصادها » .

الحزب راعى نوعا من الاعتدال في الشعارات ، وفي اللهجة ، بهدف التمكن من وضع أقدامه في الجزائر ، والتحرك في إطار قانوني مسموح

به .. لكن الإدارة الفرنسية لا يمكن أن تسمح لمنظمة تنادي بالاستقلال في برنامجها . أن تمارس نشاطها .. وأيضا بغرض كسب أنصار جدد ». وإن كانت الأحداث التي توالت فيما بعد ، دلت على أن الحزب وإن تظاهر بالاعتدال ، لم يتخل عن مبدئه الاستقلالي ، ولا عن الاتجاه التحريري .

خامسا : أول هدف وضعه حزب الشعب الجزائري في مقدمة اهتماماته ، هو التصدي لسياسة الاندماج والتجنيس ، ومحاربة الداعين لهما ، حتى أن صحيفة « الأمة » كتبت بمناسبة انعقاد المؤتمر الاسلامي الثاني عام 1937 ما يلي : « إنه من المستحيل تغيير الجنسية كما تُغيَّر ربطة عنق ، جنسيتنا قبل كل شيء هي ماضينا .. تاريخنا .. أخلاقنا .. ذكريات شبابنا .. عادات تفكيرنا .. كل ما يدخُل في تكوين « أنا » الجماعية ، ولا يمكن تفريغ الشخصية من محتواها بِمجرَّد فعل إرادي » .

لم يكن نشاط حزب الشعب الجزائري فوق التراب الجزائري بالنشاط السهل ، فقد خاض المعارك العديدة ، وواجه خصومه في عدة جبهات .. وخاض لأول مرة ميدان الانتخابات ، حيث رشّح أحد مناضليه في بلدية قالمة ، والغرض من اشتراكه في الانتخابات هو جسٌ النبض من ناحية ، والقيام بحملة دعائية لفائدة الحزب والفكرة الوطنية .

ومن أجل النشاط المكثف الذي مارسه الحزب ، تصدَّرت الإدارة الاستعمارية للحزب بالمضايقات والقمع والملاحقات .. وفي 27 أوت 1937 اعتقلت ـ بتهمة المسِّ بأمن الدولة ، وإعادةِ منظمة منحلَّةٍ ـ كلا من : مصالي الحاج ، مفدي زكرياء ، خليفة بن عمار ، غرافة إبراهيم ،

مسطول محمد ، حسين الأحول ، رابح موساوي ، محمد بالأمين .. وبذلك بقي الحزب في الجزائر بدون قيادة ، واقتضى الموقف تعيين مسؤول جديد هو رزقي كحال ، فعاد هذا من فرنسا ، وتولّى تسيير شؤون الحزب إلى أن اعتقل أيضا رفقة مجموعة من مناضلي الحزب مثل : فيلالي مبارك ، الاخضر حيواني ، محمد قنانش ، فيلالي علي ، جلول أحمد ، بوجريدة عمار ، محمد بو البرهان ، علاوة بومعزة ، عبد الرحيم الطاهر ، عبد القادر حرقة . أحمد مزغنه ، مصطفى دشوك ، محمد العساكر ، عبد الكريم بن عصمان ، عمار بن دحمان ، سي الجيلالي محمد السعيد .

ولئن دلت الإيقافات الكثيرة لمناضلي الحزب على تخوف الإدارة الفرنسية من نشاط الحزب ، وانتشار أفكاره الوطنية ، فإنها تقدم من ناحية أخرى دليلا على ما كان يتحلى به مناضلو الحزب من شجاعة وتصميم ، أدى بهم إلى الحصول على حقوقهم داخل السجن « كمساجين سياسيين » ، لا كمجرمين عاديين ، بعد إضراب جوع دام ثمانية أيام ، وهو أول إضراب جوع سياسي عرفته البلاد .

ومن تحديات الحزب للإدارة الاستعمارية الفرنسية أنّه رشّح لانتخابات المجالس العمالية مساجينَه .. فقدْ رشّح مصالي الحاج بالعاصمة ، ومحمد مسطول بالبليدة ، والأحول حسين بالمدية ، وموساوي رابح بتيزي وزو ، ومفدي زكرياء بقسنطينة ، وخليفة بن عمار بسكيكدة ، ومعروف بومدين بوهران ، ومصطفى بن رزوق بسيدي بلعباس .

ومن تحدياته أيضا أن مساجين الحزب بسجن الحراش أصدروا داخل السجن الصحيفة المعروفة « البرلمان الجزائري » ، كانت تحرَّرُ وتُدار ، وتُسيَّر من داخل السجن ، وتُطبع وتُوزَّع خارجه .

لقد تحول حزب الشعب الجزائري إلى مدرسة شعبية لغرس الأفكار الوطنية الاستقلالية الثورية ، وترسيخ روح التضحية في المناضلين .. وبهذه الروح كان هؤلاء المناضلون يستقبلون التعسف الإداري الفرنسي بشجاعة فائقة ، واستشهد عدد كبير منهم .. أمثال رزقي كحال الذي توفي داخل السجن ، وشُيّعتْ جنازته إلى مقبرة سيدي مُحمد في موكب عظيم ضم حوالي 15000 مشيع ، عبّر عن طريقه الشعب على إعجابه وتقديره لأبنائه الذين يدافعون عن الوطن ويموتون في سبيله .. واستُشهد أيضا محمد دوار .. محمد بلوزداد فيما بعد ، وعسلة حسين ، وغرافة إبراهيم .

والذي أكسب الحزب قوة في نظر الجماهير التي كانت تتعاطف معه ، هو ثباته وإصراره بحيث أنه كلما أُلقي القبض على مناضليه ، إلا وحلّ محلّهم مناضلون آخرون ، يواصلون المسيرة ، دون خلل ولا خوف .. وعندما يطلق سراح مناضل ، يعود حينا إلى الميدان ، دون أن تترك فيه فترة الاعتقال أثرا للفشل أو الاستسلام ، وقد يُلقى عليه القبض من جديد ، فيواجه أيضا بنفس الثبات مؤمنا بأن النصر في النهاية للثبات على المبدإ .. وهكذا تعوّد مناضلو حزب الشعب النضال اليومي وحوّلوه إلى ممارسة يومية في البيت والشارع والحي والقرية والسجن وفي كل مكان .. الشيء الذي أزعج الإدارة الفرنسية فضاعفت من ملاحقاتها وإيقافاتها لأعضاء حزب الشعب ، وأوقفت في ظرف ثلاث سنوات ما يزيد على الخمسين من المسؤولين والمناضلين ..

ومن المحاكمات الشهيرة تلك التي اشتهرت « بمحاكمة مصالي » وهي في الحقيقة ليست بمحاكمة خاصة بمصالي وحده ، بل خُصّصت لعدد من مسؤولي الحزب ومناضليه الموقوفين .. وامتازت بتصريح زعيم الحزب

مصـالي الـذي اعتبره المعلقـون تصريحـا معتـدلا بـالنسبـة للمعهـود لـدى الحزب ، فقد قال زعيم الحزب : « مـاذا يتمنّى حزب الشعب الجزائري ؟ المساواة المطلقـة .. احترام تقـاليـدنـا .. ولغتنـا وديننـا .. نحن لا نريـد انفصالا ، لكن تحررا مع فرنسا ، في إطـار السيـادة الفرنسيـة ، إذا وافق الفرنسيـون على ذلـك نَمـوت من أجلهم ، إنهم أغفلـوا ـ حتى الآن ـ أن يجعلوا أنفسهم محبوبين في هـذا البلـد ، لكن أتمنّى بـأن هنـاك أشيـاء في التغير ، بأن هناك علاقات جديـدة تنتظم .. إنـه تعـاون حقيقي ذلـك الذي نريده » .

أما الأحكام التي انتهت بها المحاكمة الشهيرة ، فقد كانت قاسية جـدا ، وقد انتهت كما يلي :

مصالي الحاج ـ تلمسان ـ أشغال شاقة 16 عاما
قاسمي صالح ـ القرقور ـ أشغال شاقة 16 عاما
قاسمي صالح ـ باتنة ـ أشغال شاقة 16 عاما
الاعماري محمد ـ القرقور ـ أشغال شاقة 16 عاما
حيْواني الاخضر ـ شتْمه ـ أشغال شاقة 16 عاما
مَمْشاوي محمد ـ تلمسان ـ أشغال شاقة 16 عاما
معروف بومدين ـ تلمسان ـ أشغال شاقة 16 عاما
فرحات محمد ـ أربعاء بني إيراثن ـ أشغال شاقة 16 عاما
بورماش مقران ـ القرقور ـ 9 سنوات سجنا
بومعزة علاوه ـ ميلة ـ 9 سنوات سجنا
بن نانون علي ـ الاخضرية ـ 9 سنوات سجنا
حرقه عبد القادر ـ قالمة ـ 9 سنوات سجنا
خيضر محمد ـ العاصمة ـ 8 سنوات سجنا

بوجريدة عمار ـ قالمة ـ 8 سنوات سجنا

فيلالي مبارك ـ القل ـ 5 سنوات سجنا

غالي أحمد ـ سعيدة ـ (هارب) 5 سنوات سجنا

بلعيد محمد ـ ميزرانا ـ 5 سنوات سجنا

آوشيش محمد ـ ذراع الميزان ـ 5 سنوات سجنا

فيلالي علي ـ القل ـ 5 سنوات سجنا

جلول أحمد ـ قالمة ـ 5 سنوات سجنا

تركي عبد القادر ـ وهران ـ 5 سنوات سجنا

صيغي عيسى ـ الميلية ـ 5 سنوات سجنا

عمروش أحمد ـ مايو ـ 5 سنوات سجنا

لازلي أحمد ـ بوفاريك ـ 5 سنوات سجنا

بغريش الهاشمي ـ قسنطينة ـ 4 سنوات سجنا

مناد ـ بوفاريك ـ 4 سنوات سجنا

فليتح أحمد ـ المدية ـ 4 سنوات سجنا

بن عمار ـ بسكرة ـ 4 سنوات سجنا

(محفوظ قداش : تاريخ الوطنية الجزائرية . ج 2 . ص 611)

وحكم على كل واحد من هؤلاء ـ إضافة إلى الأحكام المذكورة ـ بالحرمان من الإقامة ببلده مدة 20 سنة ، وبحرمانه من الحقوق المدنية ، وفُرِض على الجميع دفع غرامة تقدر بـ 160,000 فرنكا .

الملاحظة المستخلصة من تتبع نشاط حزب الشعب الجزائري منذ إنشائه عام 1937 حتى الحرب العالمية الثانية ، أنه اكتسح الساحة السياسية ، بفضل مواقفه التي تمثلَت في أنه :

أولا : وقف في وجـه المـؤتمر الإسـلامي ، وقضى على الاتجـاه الاندماجي ..

ثـانيـا : وضح فكرة التحرير للجماهير .. واعتبر الاستقلال أصـلا ، وما عداه محاولات ومطالب متواضعة دون المستوى .

ثالثا : خلَقَ مناخا جديدا في الحياة السياسية ، لم يكن مألوفـا من قبل .

رابعـا : رسّخ مبـدأ التضحيـة في نفـوس منـاضليـه على أسـاس أن « الحرية تؤخذ ولا تُعطى » .

خـامسـا : استعمـل أسـاليب جـديـدة في التعبير عن أفكاره : الصحافة . المناشير السرية . الحملات الانتخابية . الخطب والاتصالات في المناسبات العامة والخاصة . الكتابة على الجدران .



الجزائريون
والحرب العالمية الثانية

الجزائريون والحرب العالمية الثانية

منذ أن عرف الجزائريون النضال السياسي ، وشرعوا في استخدامه اعتقادا منهم بأنه يقوم - بدل السلاح - بمهمة الحصول على الحقوق المهضومة .. اعتمدوا عليه ، وعلقوا عليه الآمال ، ومارسوه في الجزائر وفي فرنسا لدى الجهات المسؤولة ، ولم يتجاوز نشاطهم السياسي هذين البلدين إلا نادرا .

اذن كان النشاط السياسي داخليا ، يتمثل في الوفود والشخصيات الجزائرية التي تتردد من حين لحين على الولاية العامة ، أو على الجهات الرسمية بفرنسا ، تَحمِل عرائض ومطالب صورية ، وتُعرِب في أغلب اتصالاتها عن شواهد الولاء والإخلاص والثقة في الإدارة ، وفي الحكومة الفرَنسية ، عساها تستجيب للمطالب المتواضعة .. إلا أن كل الجهود التي قام بها الجزائريون سواء على مستوى الوفود أو الشخصيات ، كانت لا تلاقي الصدى الذي كانوا ينتظرونه منْها ، لأن فرنسا لم تتجاوز حدود التناور والمُمَاطلة .. تُشكّل اللجان إثر اللجان ، وتبعث بالواحدة تلو الأخرى ، ولكل واحدة مهمة وعنوان دون أن تسفر هذه اللجان ، ولا تحقيقاتُها واتصالاتها عن شيء إيجابي ملموس ، وحتى إذا صدرت وعود .. فإن الوعود لا يتم الوفاء بها .. وهو أمر ليس بالغريب ، ففرنسا 1830 هي فرنسا الثلاثينات في القرن العشرين !. فرنسا وعدت الأمير عبد القادر .. فإذا بها تسجنه لمدة خمس سنوات !. ووعدت أحمد باي .. لكنها احتجزته لمدة عامين بالعاصمة إلى أن توفي في ظروف غامضة ..

من هنا كانت مساعي الجزائريين فاشلة ، والشيء الذي شجع فرنسا على التمادي في سياسة اللامبالاة تجاه الجزائريين هو مركزها الدولي القوي ، والظروف الدولية كلها كانت في صالحها ، بينما لم يجد الجزائريون أي ملجإ أو سند يعتمدون عليه في تحركاتهم السياسية .. إلى أن ظهرت بوادر الحرب العالمية الثانية سنة 1939 ، والجزائريون يعرفون معنى الحرب ، وأبعادها ، ونتائجها .. فقد كانوا يدفعون الثمن ولا يستفيدون !. ويعلمون بأن الحرب حين تقوم فإنما تقوم بين الأقوياء ، فتتحطم رؤوس ، وتهوى دول ، والشعوب الضعيفة هي التي تدفع الثمن ..

الحرب في هذه المرة بين ألمانيا وفرنسا .. فهل يكونون بجانب هذه أو في جانب تلك ؟ هذه فرنسا وقد ذاقوا مُرّها .. وتلك ألمانيا ويعرفون طموحها وأطماعها ، ولكنها عدوّة فرنسا ، و « عدو العدو صديق » ، ومن هذا التفكير انطلق كثير من الجزائريين يتفاءلون بالحرب ، اعتقادا منهم بأن التنافس بين الأقوياء ، يتيح الفرصة للضعفاء لأن يتنفّسوا ، وأن يَجِدوا منفذا لتحقيق بعض الرغبات الوطنية على الأقل .. وقد شعرت فرنسا بهذه الروح التي بدأت تسود في الأوساط الجزائرية ، وبدل أن تسير في اتجاه عملي يتجاوب مع الآمال الوطنية للجماهير الجزائرية ، لجأت إلى الطريقة القديمة التي تعتمد على تحريك البيادق من أئمة ، ورجال إفتاء رسميين ، ممّن كانتْ تشرف عليهم مديرية الشؤون الأهلية كي يَحثُّوا السكان على التجند والتطوع في سبيل الله (في سبيل فرنسا) ، وعلى الجهاد بجانب الدولة الفرنسية حامية الاسلام ، وعلى الدعاء لها في المساجد بالنصر على الألمانيين !. وكانت الإدارة الفرنسية تعتقد أنها بهذه الطريقة تكتسب عطف الجزائريين ، والتفافهم حول دعوتها إلى التطوع في الجيش الفرنسي .

أما الشعور الشعبي السائد ، فكان يبدو في تصرفات التنظيمات الوطنية بالبلاد ، وكانت تصرفات تتّسم بالحذر والحيطة بحكم التجربة التي عاشتْها مع فرنسا ، وبحكم الوعود الكثيرة التي لم يتحقق أي وعد منها في الماضي .. ولم يَندفع في تأييد فرنسا والوقوف في جانبها ضد الألمان إلا بعض العناصر التي كانت تثق في فرنسا ثقة تامة .

ويمكن تحديد مواقف الجزائريّين منْ فرنسا في الحرب العالمية الثانية كما يلي :

أولا : موقف المنتخبين : فقد أعلن المنتخبون أو زعماؤهم الوقوف بجانب فرنسا في كل الظروف ، وتطوّعوا في الجيش الفرنسي ، ادّعاءً بأن الوقوف بجانب فرنسا في مِحنتها يسمَحُ لها بمراجعة سياستها نحو الجزائريين ، والنظر إلى مطالبهم بعين العطف والاتّزان .. وبهذه الروح ، وهذا الأمل وجّه فرحات عباس مذكّرة إلى الماريشال پيتان بعد سقوط فرنسا في أيدي الألمان ، يعرض عليه بعض المطالب ، ويرجوه الوفاء بالوعود الفرنسية السابقة ..

ثانيا : موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين : لقد اتصلت الإدارة الفرنسية بجمعية العلماء أولا كهيئة ، ولمّا لم تتحصل على ما كانت ترغب فيه استعملت طريقة الاتصالات الفردية بأعضاء الجمعية ، وتمكنت من التأثير على بعض الأشخاص في الجمعية واستمالتهم إليها ، وكانت تعتقد أن باستطاعتهم إقناع رئيس الجمعية وبقية الأعضاء ، إلا أن هؤلاء رفضوا كل العروض والمساومات ، وامتنعوا عن توجيه برقيات الولاء والتأييد لفرنسا في حربها ضد الألمان ، كما رفضوا توجيه نداء إلى الشعب

الجزائري يدعوه إلى الوقوف بجانب فرنسا، و « الجهاد » في سبيلها .. واتخذت الجمعية من جراء هذا الموقف بعض الاحتياطات ، فقلّلتْ من نَشاطها ، وأوقفتْ صحافتها بمحض إرادتها ، حتى لا تتعرض للرقابة المفروضة أو للتوجيه الإجباري الذي تقتضيه ظروف الحرب ،. ورغم ذلك لم تنجُ الجمعية من التعرض لهزّةٍ أثّرت فيها ، إذ انتقل رئيسها عبد الحميد بن باديس إلى الرفيق الأعلى عام 1940 ، وقبل وفاته أُوقِف نائبه البشير الإبراهيمي وأبعد إلى آفلو ، وتعرّض باقي الأعضاء ومنهم الشيخ العربي التبسي إلى ضغوط ، وإلى فرض الإقامة الجبرية على بعضهم .

ثالثا : موقف حزب الشعب الجزائري : وهو موقف واضح منذ تأسيس هذا الحزب ،. يتمثل في رفض التجند في الجيش الفرنسي ، والتعاون بأية صفة مع الإدارة الفرنسية ، وحين اندلعت الحرب كانت أغلبية قيادته في السجون .. وفي السجون حاولت فرنسا مساومة زعماء الحزب وإغراءهم بدون جدوى ، وكانت نتيجة صلابة قادة الحزب إلقاء القبض على العناصر الباقية من الحزب خارج السجن ..

رابعا : موقف الحزب الشيوعي : وقف الحزب الشيوعي في الجانب الفرنسي بمجرد إعلان الحرب .. ولكن بعد احتلال الألمانيين لفرنسا ، حلّت الحكومة الفرنسية آنذاك الحزب الشيوعي ، وزجّتْ بأعضائه في المعتقلات ، من أجل ارتباطهم بالحزب الشيوعي الفرنسي الذي أعلن حملته ومقاومته للنازية الألمانية .

إذن لم يبق في مجال التحرك العلني إلا المنتخبون ، وفي هذا الإطار تحرّك فرحات عباس ، وتقدّم بمذكرة للماريشال پيتان ، ثم بوثيقة سمّاها « البيان » أضاف إليها فيما بعد « ملحقا » بعد أن تم الاتفاق بينه وبين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وحزب الشعب الجزائري ،

واعتبرت الوثيقة برنامج عمل ، تجسّمت في حركة تجمُّع ، كما سيأتي الحديث عنها فيما بعد .

وهناك التحرك السرّي الذي كان يقوم به حزب الشعب الجزائري .. كان لا يَني ولا يقصّر في اغتنام المناسبات للدعوة إلى الفكرة الاستقلالية ، وبث الروح الوطنية ، رغم أنه حزب منحل قانونيا ، ورغم أن أغلبية قادته في السجن أو في الاعتقال ، ويدخلُ ضِمْن هذا النشاط السري نشاط قام به شبان من الحزب متحمسون ، رأوا في الْحَرْب وفي انهزام الجيش الفرنسي بادرةَ تفاؤل ، تُخوِّلهم حقَّ المبادرة بالتمرد على فرنسا ، وإعلان الثورة والاستقلال ، وكانوا قبل ذلك ينتظرون من قيادة الحزب السماح لهم بعمل عسكري .. غير أن القيادة لم تتجاوب مع هؤلاء الشبان المتحمسين ، لأن الوقت في رأيها غيرُ مناسب ، ولأن الاستعداد غير كاف ، كما أن الظروف لا تُؤتَمن ، ولا يؤتَمن جانب الألمان بحكم نزعته الاستعمارية الأوروبية المعروفة عنه .. لم يتقبل الشبان هذه التبريرات ، وقام بعضهم بنشاط خارج إطار الحزب ، وأجرى اتّصالات مع الجهات الأجنبية خاصة الألمانية للحصول على السلاح ، وللتدرب على استعمالِه ، واعتبرهم الحزب متمردين ، ففصَلهم ، ولم يُعِدْهم إلى الحزب إلا بعد مدة ، ثبت فيها إخلاصهم ، وحسن نواياهم ، كما أن هؤلاء الشبان تأكّدوا بأنه لا خَيْر في الاستعماريين سواء كانوا فرنسيين أو ألمانيين أو إيطاليين .. وكان من بين الشبان الوطنيين المتحمسين الذين وثّقوا الصلة بالجيش الألماني الشاب ـ بوراس قائد الكشافة الإسلامية الجزائرية ، الذي اكتشفت السلطات الفرنسية اتصالاته بالألمان فاعْدمته حينا ،. ومن بين الشبان المتحمسين للعمل الثوري آنذاك صالح بوذراع بقسنطينة ، وقد تمكّن من تأسيس حزب

ثوري قام بتهريب الأسلحة من ثكنة « القصبة » بقسنطينة ، ومن توزيع مناشير ثورية ، وكاد يقع في أيدي الشرطة الفرنسية ، لولا أنّه فرّ ، واختفى لعدة سنوات ، امتهن بعدها التعليم لحين اندلاع الثورة ، فالتحق بها ، وأدّى واجبه إلى أن استشهد .. وهناك شبان آخرون ، ومحاولاتٌ كثيرة من هذا النوع جرتْ في مختلف أنحاء الوطن .

والذي يهم من استعراض هذه المحاولات هو التدليل على وجود روح وطنية تميل وتتحمس للعمل الثوري العسكري ، بعد أن اعتراها فتور بعامل الاتجاه النضالي السياسي منذ عام 1919 .. واندلاع الحرب ثانية هو الذي سمح بظهور الروح الثورية .

ولم تقتصر هذه المحاولات على داخل البلاد ، بل امتدتْ إلى خارجها ، ذلك أن الجنود الجزائريين الذين جُنّدوا في الجيش الفرنسي ، وكذلك العمال الجزائريين الموجودين بالمهجر ، فروا من فرنسا ، وانضمُّوا إلى اللفيف العربي ، وهو جيش تدعمه ألمانيا ماليا وعسكريا ، ويتشكل من سوريين وعراقيين وفلسطينيين ومغاربة ، ويقوده عسكريا رشيد عالي الكيلاني العراقي .

حينما حلّ الجيش الألماني عام 1942 بتونس ومعه اللفيف العربي ، قرر الجزائريون الموجودون ضمن اللفيف العربي أن يكوّنوا جيشا جزائريا بحكم وجودهم قريبا من الحدود الجزائرية .. وفعلا تكوّن هذا الجيش ، واعتمد في نشاطه وقيادته على عناصر من الطلبة الجزائريين بجامع الزيتونة ، وانضمّ إليه المجنّدون الجزائريون في الجيش الفرنسي ، والذين أسرهم الألمان ، وكوّن هذا الجيش قيادة جزائرية ، وفتح واجهة خاصة به على الحدود التونسية الجزائرية ، حقق فيها انتصارات على

الحلفاء .. وبعد انسحاب الجيش الألماني من تونس وقع العديد من قادة وجنود الجيش الجزائري في قبضة الفرنسيين ، وحوكموا ، وصدرت ضدهم أحكام قاسية ..

هذه المحاولات وإن لم تنجح تعتبر مؤشرا ، ومنعطفا جديدا في تاريخ الحركة الوطنية ، خاصة عندما نجد بأن بعض العناصر التي عاشت أو شاركت في هذه المحاولات كانت في أول نوفمبر 1954 مستعدة من الناحية النفسية والعسكرية .

الحرب العالمية الأولى عرّفت الجزائريين بنوع من المقاومة هي المقاومة السياسية .. أما الحرب العالمية الثانية فقد فجّرت في الجزائريين الطاقة الثورية بعد استنفاد الوسائل السلمية السياسية .



في طريق البيان

في طريق البيان

إذا كان حـزب الشعب الجـزائري قـد اضطرتـه ظروف القمـع والاضطهـاد والسجـون والمنـافي إلى العمـل السّري ، وإذا كان منـاضلـوه الشبـان كانوا يطمحون إلى عمل ثـوري عسكري ، فـإن فرحـات عبـاس اختار ـ كعادته ـ الاعتماد على الأسلوب البياني ، والقلم الحاد ، حيث قام بتقديم العرائض والبيانات ، واكتسى نشاطـه طوال فترة الحرب العـالميـة الثانية أهمية خاصة بوصفه المنتخب الوحيد الذي تتوفر لـديـه إمكانيـات التحرك السيـاسي ، بـالإضـافـة إلى شجـاعتـه الأدبيـة التي لا تتـوفر في المنتخبين الآخرين .

افتتح الحرب العالمية الثانية بتوجيه تقرير إلى المـاريشـال بيتـان في 10 أبريل 1941 عن طريق عـامل عمـالـة قسنطينـة مـاكس بونـافـوس (Maxe Bounafosse) وقـد علل هو بنفسـه سبب تقـديمـه هـذا التقرير بقوله : « لماذا هذا التقرير عـام 1941 ؟ أُذكّر بـأن فرنسـا كانتْ تخوض ثورةً وطنية ، والوقت ـ يبدو لي ـ مناسبا لسياسة تغيير .. في مثل هذه الظروف وُضع عـام 1870 مرسـوم كريميـو لصـالـح يهود الجـزائر بعـد الامبراطورية ، وقبل الجمهورية الثالثة » .

وقـد افتتـح التقرير بقـولـه : « مصير بلـدنـا يعتمـد على الله ، وعلى حكومتكم ، أنتم الحكَم في نزاع اشتدتْ وطأتُه على الجزائر ، نزاع لا تملكُ أية حكومة الشجاعة والحرية لتواجهه وتحلّه » .

وبعد هذه الافتتاحية يقدّم تقريره الذي عنْونَه بـ « تصميم لتجديد الجزائر المسلمة » ، ويبتدىء في استعراض المشاكل بدءاً من المشكل الأخلاقي الذي يُقدّم له : « قبل التطرق إلى المشاكل الأساسية نقول حينا بأنه في الجزائر كما في كل المستعمرات ، المشكل الذي يطغى على كل المشاكل هو الاحترام اللائق بالشعوب المغلوبة والعلاقات بين الغالب والمغلوب .. الأوروبي عموما بحكم تفكيره الخاطيء نتيجة مركزه الاجتماعي القوي يعتقد بأنه من النوع الممتاز الذي لا يوجد ما يربطه بالأهلي .. » ثم ينتقل إلى المشاكل الفلاحية والاجتماعية والإدارية ، ومشكل اليد العاملة والقضية العسكرية .

ويعتبر عمله هذا عملا فرديا .. ومبادرة شخصية .. ولذلك تجوهلت هذه المبادرة أو تنوسيت حتى أن فرحات عباس نفسه لم يتعرض لها في كتابه « ليل الاستعمار » ، ونبّه إلى ذلك حين أصدر كتابه « الشاب الجزائري » عام 1981 « بأن هذا العمل المتواضع (أي توجيه التقرير) بقي غير معروف لدى الجمهور في الجزائر ، وأيضا في فرنسا » .

ما عدا هذه المحاولة السياسية التي قام بها فرحات عباس ، لا يوجد أي نشاط سياسي ، خاصة وأنه حلت بالبلاد عِدّة نكبات من مجاعة ، وفقر ، وأمراض ، كما أن كل العناصر السياسية النشيطة بعيدة عن الميدان ، إما في السجون أو في المعتقلات .. إلى حين حلول شهر نوفمبر 1942 ، وهو الشهر الذي نزلتْ فيه قوات الحلفاء بالشمال الإفريقي ، وبنزولها ظهرت قيادة فرنسية جديدة باسم « فرنسا الحرة » .. وأطلق سراح الكثير من المناضلين في حزب الشعب الجزائري من السُجون والمعتقلات مع فرض الإقامة الجبرية عليهم ،. وتمّ العفو عن مناضلي الحزب الشيوعي .

استعادت الحياة بعض الأنفاس ، وأتيحت الفرصة لتَحرُّك بعض العناصر السياسية المسموح لها بالتحرك ، وعلى رأسها فرحات عباس ، فقام باتصالات .. وانتهى من هذه الاتصالات إلى تقديم عريضة باسم المنتخبين إلى ممثلي أنجلترا وأمريكيا وفرنسا ، دون أن تحظى هذه العريضة بعناية ، لا من طرف ممثلي أمريكيا وأنجلترا ، ولا من طرف الوالي العام ، لأن الشغل الشاغل لهؤلاء - كما يدّعون - هو ملاحقة القوات النازية ، وتحقيق الانتصار عليها .

وبعد شهر من الانتظار .. اضطر بعض المسؤولين السياسيين إلى مراجعة الوضعية ، ودراسة الموقف ، فاجتمعوا من جديد بالعاصمة ، واتفقوا على بعض النقاط التي يُمكن أن تشكّل حدًّا أدنى للمطالب الجزائرية في مثل هذه الظروف .. واشترك في هذا الاجتماع : فرحات عباس . بومنجل . الدكتور تامزالي . قاضي عبد القادر . الدكتور الامين دباغين . عسلة الحسين . الشيخ العربي التبسي . الشيخ خير الدين . أحمد توفيق المدني . غرسي أحمد . الدكتور ابن جلول . الهادي جمّام . الدكتور سعدان ..

ومن تأمل عناصر التشكيلة يبْدو أنّها مثّلت كل التشكيلات . من النوب . وحزب الشعب الجزائري ، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين .. وقد كلّف الحاضرون فرحات عباس بتحرير « الميثاق الجديد » .. يحدثنا فرحات عباس عن مهمته التي كُلّف بها ، فيقول : « فعُدْتُ إلى مدينتي سطيف ، وهناك حرَّرْتُ بيان الشعب الجزائري ، إن هذا البيان كان بمثابة فذلكة لخصْت فيها بصفة موضوعية ونزيهة حصيلة 112 سنة من الاحتلال الاستعماري ، فاستقرأتُ فيه تاريخ الاستعمار ، وعبَّرتُ فيه عن

مطامح شعبنا الوطنية ، وصُغْنَا بلا حقد ولا عنف المشكل الجزائري في إطاره الحقيقي غداة نزول القوات الأمريكية والانجليزية في بلادنا » .

ومن خلال صيغة البيان وفحواه يتطور موقف فرحات عباس ، وتتغير لهجته نحو التشدد .. فهو في مقدمة « البيان » ينتقد الاستعمار انتقادا شديدا ، ويُندِّد بأنانيته التي « لا تقبل المساواة مع الجزائر المسلمة إلا في مخطط واحد ، وهو التضحيات في ميادين القتال ، وحتى هنا ، فإن الأهلي يسقط ويموت « بعنوان أهلي » (à titre d'indigène) بمرتب ومنحة مرتزق ، حتى ولو كان صاحب شهادة واختصاص » .

وفي البيان أيضا يبدو أنه بدأ يتخلص من الاتّجاه الاندماجي ، ويعترف بأن المزج ، أو بأن امتزاج الشعبين في شعب واحد غيرُ ممكن ، ويقول : « إن هوية وتكوين شعب واحد تحت حكومة واحدة أبوية ، أظهرت فشلها .. الكتلة الأوروبية والكتلة المسلمة تبقى متباينة ، الواحدة مع الأخرى بدون روح مشتركة ، من الآن فصاعدا ، المسلم الجزائري لا يطلب إلا شيئا واحدا هو أن يكون جزائريا مسلما » .

وتخلّى فرحات عباس عن أشياء كثيرة ، دون أن يغير رغبته في الحوار ، وفي البحث عن وسائل للوفاق .

ولهذا يعتبر المؤرخون البيان الذي كتبه فرحات عباس ، ووقّع عليه العديد من الشخصيات الاندماجية في ماضيها تحولاً كبيراً ، ويعتبرون وثيقة « البيان » فاتحة عهد جديد في النشاط السياسي الذي مرَّ بأزمات أو بجمود منذ عام 1939 .

وصادف أن البيان ظهر على إثر الاتصالات المتعددة بممثلي الحلفاء في الجزائر ، اعتقادا من الجزائريين أن دول الحلفاء ستَفي بوعدها في تحرير

الشعوب ، ومساعدتها على تقرير مصيرها بنفسها ، ولذلك جاء في البيان : « إن الرئيس روزفلت الذي أدلى به باسم الحلفاء عقد العهْدَ بأن جميع حقوق الشعوب الكبيرة منها والصغيرة ، تكون محترمة في العهد الجديد ، وبناء على هذا التصريح وهذا التعهد ، فإن الشعب الجزائري يطالب من الآن ، وذلك تبريرا لكل سوء تفاهم ، وتداركا للمطامع والمطامح التي قد تكشّر أنيابها في المستقبل » .

ثم يذكر البيان المطالب التي تم الاتفاق عليها ، وهي :

1) إدانة الاستعمار والقضاء عليه ، أي تحريم استغلال شعب من طرف شعب آخر ، وتحريم إدماجه وضمه عنوة ، إن هذا النوع من الاستعمار ما هو إلا نوع جماعي من الاستعباد الفَرْدي الذي كان شائعا في التاريخ القديم ، وفي القرون الوسطى ، وهو علاوة على ذلك مصدر النزاع القائم بين الدول الكبرى ، ومن ثم مصدر الحروب الناشبة بينها .

2) تطبيق تقرير المصير لجميع الشعوب الصغيرة منها والكبيرة .

3) منح الجزائر دستورا خاصا بها يضمن لها :

أ » حرية جميع السكان والمساواة بينهم بدون ميز جنسي ولا ديني .

ب » إلغاء الإقطاعية الفلاحية وذلك بإصلاح زراعي واسع النطاق يضمن الرفاهية والرخاء لسواد الجماهير الفلاحية .

جـ » الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية بجانب اللغة الفرنسية .

د » حرية الصحافة وحق الاجتماع .

هـ » التعليم المجاني والاجباري لجميع الاطفال ذكورا وإناثا .

و » حرية الدين لجميع السكان ، وتطبيق قانون فصل الدين عن الحكومة على الديانة الإسلامية .

ز » مشاركة المسلمين في حكم بلادهم مشاركة عاجلة وفعلية اقتداءً بِمَا فعلَتْه أنجلترا والجنرال كاترو في سوريا ، وتستطيع هذه الحكومة وحدها أن تحمل الشعب الجزائري على الكفاح المشترك ، وذلك في جو من الوئام والوفاق .

ن » إطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين من جميع الأحزاب .

وقد وقَّع على هذا البيان كل من حزب الشعب الجزائري وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بدون صعوبة ، كما وقَّع عليه المنتخبون بدون إقناع ومناقشة .

وفي 31 مارس 1943 تمَّ تبليغ البيان وتسليمُه إلى الوالي العام آنذاك مارسال پيروتون .. وسلمت نسخ منه إلى ممثلي الولايات المتحدة وأنجلترا ، وروسيا ، وإلى الجنرال دوغول في لندن ، وإلى الحكومة المصرية بالقاهرة .

في الحين شكَّل الوالي العام لجنةً سميت « لجنة البحث الاقتصادي والاجتماعي الإسلامي » ، واجتمعتْ عدة مرات ..

ولعل الترحيب الذي لقيه البيان هو الذي شجَّع فرحات عباس على إضافة « ملحق » بعد الملاحظات والشروط التي تقدم بها حزب الشعب الجزائري .. ومهمة « الملحق » أنه يوضح بعض المطالب من ناحية ، ويدعم الاتجاه الوطني من ناحية ثانية ، كما أنه يسجِّل رغبة مسؤولي حزب الشعب الجزائري في النص على دولة جزائرية ..

يقول فرحات عباس بخصوص « الملحق » :

« وكان هذا الملحق يتضمّن فصلين : الفصل الأول متعلق بإصلاحات آجلة لن يتمّ إنجازها إلا بعد نهاية الحرب ، وكان هذا الفصل يقول : « عند نهاية الحرب ، تُصبح الجزائر دولة جزائرية ، لها دستور خاص يضعه مجلس تأسيسي جزائري منتخب من طرف الجزائريين قاطبة » .

وتضمّن الفصل الثاني الإصلاحات العاجلة ، وهي :

أولا : تحويل الولاية العامة إلى حكومة جزائرية مكوّنة من وزراء مسلمين ووزراء فرنسيين ـ تحويل الإدارات الحالية إلى وزارات ـ تقليد الوالي العام رئاسة الحكومة ، ويكون بمثابة سفير فرنسا في الجزائر ومندوبها السامي .

ثانيا : تمثيل المسلمين والفرنسيين في الجمعيات المنتخبة ، وفي كل المجالس (المجلس الأعلى للحكومة . النيابات المالية . المجالس الإقليمية والبلدية . الغرف التجارية والفلاحية وجميع المصالح الإدارية ، واللجان ، والنقابات ، وهلم جرا) ولهذه الغاية نطالب بمشاركة جميع النواب المسلمين ، وحتى القدماء منهم ، من النواب الماليين إلى ممثلي النقابات .

ثالثا : الإدارة الذاتية للدواوير والقرى طبقا لقانون 1884 المتعلق بالبلديات ، وتصبح الجماعة مجلسا بلديا ، وشيخهاهو رئيس الدوار .

رابعا : منح المسلمين جميع الوظائف ، وفي ضمنها وظائف السلطة ويطبق عليهم ما يطبّق على الفرنسيين من شروط الانخراط في سلكِ الوظيفة العمومية والترقية والرواتب والتقاعد ..إلخ ..

خامسا : إلغاء جميع القوانين والاجرآت الاستثنائية ، وتطبيق القانون العام في نطاق التشريع الجزائري .

سادسا : إلغاء التجنيد الأهلي (أنديجان) والخدمة العسكرية (الانديجانية) ، ونطالب بنفس وسائل التجنيد والمساواة في الرواتب والارتقاء والتقاعد والتعويضات العائلية والارتقاء إلى جميع الرتب .

سابعا : إعطاء الراية الجزائرية للجيوش الجزائرية التي تحارب في جيش الحلفاء ، إن كانت الراية الجزائرية تخفق بجانب الراية الفرنسية ، فلا بدأن ترتفع معنوية جنودنا » .

وإذا لوحظ في « البيان » تطور سياسي ملموس ، فإن « الملحق » أضاف تطورا آخرا بنصه وتأكيده على الدولة الجزائرية ، وعلى بعض مظاهر السيادة .. لكن ما هي النتيجة .. سواء حين تقديم « البيان » أو بعد إضافة « الملحق ؟ » .

إنه رغم ما أبداه رجال البيان وملحقِه من مرونة ، ومن استعداد ، وما قاموا به من مساع ، ومن نشر لوثائقهم ، فإن جزءاً واحدامن المطالب أو من الوعود لم يكتب له أن يرى النور .. بل تعقّد الوضع ، وتوترت القضايا السياسية حين تولّى الأمور الفرنسية الجنرال دوغول الذي رفض بشدة وبكل صراحة أي تعديل في دستور الجزائر القديم ، وأبدى ممثّله الجنرال كاترو صلابة وتعنّتا ، لم يَلْمَسْهُمَا الجزائريون في عهد سلفه بيروتون ، وأجاب رجال البيان بقوله : « إنه لا يرى نفسه متقيّدا بتعهدات سلفه ولا بالتزاماته » .

وأدت صلابةُ الجنرالَين ، وروح اليأس التي خيّمت في الأجواء الجزائرية ، إلى دفع رجال البيان نحو تغيير التكتيك ، ومحاولة الظهور

بمظهر قويّ ، يُفهم المسؤولين الفرنسيين بأن البيان وملحقه ليس مجرّد تحرير ، وكتابة قامت به فئة ، أو هو مجرد مطالب تقدمتْ بها جماعة محدودة ، بل هو رغبة جماهيرية ، ومطالب شعبية ، لا تتوقف أو تخفتُ بإلقاء القبض على فرحات عباس وعبد القادر السايح وسجنهما لبضعة أشهر ، بتهمة « استفزازات لعدم الطاعة في وقت الحرب » .

« أحباب الحرية والبيان » .

ولهذا وجد الجزائريون أنفسهم مضطرين لتكوين تشكيلة سياسية قوية تُدعّم المطالب التي قدّمها « البيان » و « ملحقه » في الميدان .. تمّ الوصول إلى إنشاء تجمّع يُحدّثنا عنه فرحات عباس : « اتصلت بمختلف المنظمات .. جمعية العلماء لم تتأخر عن الانخراط فيها (أي أحباب الحرية والبيان) ، وجرت بيني وبين زعيم حزب الشعب الجزائري مصالي الحاج اتصالات مشجعة ومُثمِرةً أيضا ، وأما الشيوعيون فأبوا الانخراط في حركتنا ، وآخذوا عليّ سرعتي وعجلتي ، وأسّسوا حركة « أصحاب الديمقراطيات والحريات » مناصرة لسياسة الاندماج » (فرحات عباس . ليل الاستعمار . ص 182) .

ورغم تباين اتجاهات أعضاء التجمع في الماضي ، فإنه تمّ التوفيق بين مختلف النزعات باتفاق حول مباديء هامة ، إذ تقبل حزب الشعب الجزائري فكرة الجمهورية الفيديرالية .. وتخلّى دعاة الاندماج في السابق عن فكرتهم الاندماجية .. وألحت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على مراعاة أهدافها ومبادئها .. لا سيا وأن التوفيق كان على أساس تجمُّع لا يُمثّل حزبا سياسيا ، وقد حدّدت نوعية هذا التجمّع صحيفة « المساواة » قائلة : « إن أحباب الحرية والبيان ليسوا حزبا سياسيا ،

وإنما تجمُّع يضمُّ أشخاصا من مختلف الاتجاهات ، وينتمون لأحزاب سياسية ، ولكنّهم في نظرتهم للمشكل الاستعماري ، وفي نوع الحل لهذا المشكل متفقون ، كما أنهم يؤمنون بأنه يجب تطوير المستعمرات والشعوب المستعمرة نحو شخصيتهم » .

وقد حدّد فرحات عباس في كتابه « ليل الاستعمار » ص 181 المهمة من إنشاء هذا التجمع والأهداف ، وهي :

- المهمة العاجلة والأكيدة لهذه الحركة هي الدفاع عن البيان .
- نشر الأفكار الجديدة التي هي روح حركتنا .
- استنكار الاستبداد والتنديد بالعنصرية وجبروتها » . ووضع وسائل نشاط الحركة لـ :

- إسعاف كل ضحايا القوانين الاستثنائية ، وضحايا القمع والاضطهاد .

- إقناع الجماهير بمشروعية حركتنا ، وخلق تيار مؤازر للبيان .

ومن أهم المواد التي وردتْ في القانون الأساسي لحركة « أحباب الحرية والبيان » المادة الرابعة التي جاء فيها :

« ترويج فكرة إنشاء دولة جزائرية ، وتأسيس جمهورية مستقلة مترابطة بروابط فيديرالية مع جمهورية فرنسية جديدة ، مناوئة للاستعمار ، وخلق روح التضامن في الجزائريين الاسرائيليين والمسلمين والمسيحيين ، وبث شعور المساواة ، ورغبة التعايش في السرّاء والضراء ، تلك الروح التي هي حسب رأينا « أساس تكوين كل أمة » (فرحات عباس . ليل الاستعمار . ص 182) .

وبتأسيس هذه الحركة تَركّز موقف الزعماء الجزائريين ، بما أظهروه من حرص وإخلاص ، وبما أبدوه من استعداد للتنازل عن الاختلافات والنزعات الشخصية مراعين مصلحة البلاد قبل كل شيء ، ومقدرين الظروف التي كانت تمرُّ بها البلاد ، وهي ظروف صعبة صعوبة المواقف الفرنسية المتشددة .

سجل إقبال الجماهير على الحركة الجديدة رقما قياسيا ، يدل على تحمُّسها ورغبتها الأكيدة في التحرر والاستقلال .. وللاقبال الجماهيري أسباب :

أولا : إنها حركة توحيد ، جمعتْ كل التيارات والأحزاب ، ما عدا الحزب الشيوعي الذي لم تكن مواقفه أثناء الأزمات متجاوبة مع المطامح الوطنية .

ثانيا : إن ظروف ذلك العهد كانتْ تفرض على الجزائريين وحدة متينة ، وتكتلا صلبا ، لا يسمح بأي تهاون أو تمزق .. فالحرب على وشك الانتهاء ، وبانتهائها ينتهي التواجد الدولي بالجزائر ، ويبقى المجال خاليا لفرنسا وحدها .

ثالثا : كان الجو مهيأ لنشر الفكرة الاستقلالية ، ولترسيخها ، إن لم نقل بأن الجو كان صالحا جدا لنشر الفكرة الثورية .. خاصة وأنه يوجد داخل الحركة حزب وطني مهيْكل منظم ، اكتسب خبرة في ميدان النضال ، واستغل خبرته ، وعناصره الشابة المتحمسة في العديد من المناسبات ، وأخيرا استفاد من وجوده ضمن الإطار الشرعي الذي يسمح له بحرية التحرك : عقد الاجتماعات . حرية التنقل . القيام بمظاهرات طبع المناشير . إلقاء الخطب ، تكثيف الاتصالات .

وصل الاعتقاد ببعض الناس أنه بمجرد انخراطهم في حركة « أحباب الحرية والبيان » وحصولهم على بطاقة الانخراط ، سيتحصلون على الاستقلال .

رابعا : يعود الفضل في تمتين روابط الوحدة الوطنية إلى الموقف الإداري الفرنسي غير القارّ ، لتعدد مراكز القوى في اتّخاذه .. فهناك موقف بيروتون الذي كان يتظاهر باستعداده للتعاون مع ممثلي البيان ، وهناك موقف كاترو الذي أصمّ أذنيه عن مطالب الجزائريين ، وواجهها بالتهديد وإلقاء القبض على فرحات والسايح .. وهناك فرنسا .. وفرنسا الحرة .. والجنرال دوغول ، والجنرال جيرو .. وإلى جانب كل هؤلاء هناك جيش فرنسي بضباطه ، ومعمرون فرنسيون بزعمائهم ، ولذلك كانت المواقف الفرنسية متناقضة مضطربة ..

إلا أن الحماس الجماهيري كانت تواجهه استفزازات من عدة جهات .. وقد كانت تزداد كلما اقتربت الحرب من النهاية .. لأن تخوف الفرنسيين ـ على اختلاف أنواعهم ومراكزهم ـ من تزايد الشعور الوطني جعلهم يعبّؤون النفسيات والقوات العسكرية ، ويحدّدون حتى مناطق الانفجار المتوقعة .. ولم تظهر نواياهم وتصرفاتهم إلا بعد أن حققوا النصر النهائي على النازية في شهر ماي 1945 .



حوادث ماي 1945

حوادث ماي 1945

تحتل حوادث ماي مكانة في تاريخ الحركة الوطنية ، وتختلف بأسبابها وطبيعتها ونتائجها عن الحوادث التي عرفتها البلاد ، منذ الاحتلال الفرنسي لها .. ولحوادث ماي هذه يعود الفضل في خلق جيل مؤمن بالعمل الثوري المسلح ، إذ بعد هذه الحوادث مباشرة تأكد الجزائريون :

- بأن الكفاح السياسي السلمي الذي مارسوه منذ عام 1919 لا يُجدي مع استعمار متعنت .

- أن الوعود الفرنسية منذ الاحتلال حتى عام 1945 لم يتحقق منها وعد ، ولا يمكن أن يتحقق في ظل استعمار استيطاني .

- أن الجزائري جزائري ، لا قيمة له ، سواء كان من دعاة الاندماج ، أو الإصلاح ، أو الاستقلال .. وسواء ارتدى البذلة العسكرية الفرنسية أو رفض ارتداءها ..

لذلك اعتبرت حوادث ماي تمهيدا لثورة نوفمبر 1954 ، والبعض من المؤرخين يكاد يحصر أسباب ثورة 1954 في حوادث ماي ، ومنهم روبير آرون في كتابه « أصول حرب الجزائر » .

الوضع العام قبل ماي 1945 امتاز بتحرك سياسي واسع لجميع الفئات الجزائرية .. وأهمّ حركة علّقت عليها الآمال حينذاك هي

« حركة أحباب الحرية والبيان » التي تمكنتّ من خلق وحدة وطنية جعلت الإدارة الفرنسية تتخوف من عواقبها ، وجعلتِ المعمِّرين والمتطرفين الفرنسيين يشتدون في التحامل عليها ، ومحاولة تحطيمها . إذن كان هناك حماس جماهيري عام ، وعداء متعصب يواجه الحماس الوطني .. ومن الطبيعي أن ينفجر البركان بمجرد اشتعال الفتيلة .

البعض يتحدث عن حوادث الثامن ماي ، بينما شهر ماي كله حوادث ، منذ بدئه إلى نهايته ، فقد أصدر حزب الشعب الجزائري أوامره لمناضليه بالتظاهر في كل أنحاء القطر بمناسبة أول ماي عيد العمال ، فما هو القصد من هذه المظاهرات ؟ هل القصد هو التعرف على مدى ما يتمتع به الحزب من شعبية ونفوذ ؟ أم هو تعويد المناضلين على مجابهة القوات الاستعمارية والتغلب على عقدة الخوف ؟ أم هو حث الجماهير على انتفاضة عامة عارمة ، قبل أن تنتهي الحرب العالمية الثانية ؟

الأكيد هو أن مظاهرات أول ماي تمّت حسب الأوامر التي أصدرها حزب الشعب الجزائري ، وحسب الطريقة التي رسمها ، لأن المناضلين طبقوا كل التعليمات بصدق وإخلاص وتضحية .. استشهد اثنان بالعاصمة ، وجُرح ما يزيد على 23 شخص ،. وما أبداه هؤلاء المناضلون من بسالة واستعداد للتضحية دليل على نجاح الأوامر بالتظاهر .. وأهميتها في أنها شملت كل التراب الجزائري تقريبا .

وهذا هو الذي دعا « حركة أحباب الحرية والبيان » ، أو دعا أغلب أجنحتها إلى دعوة مناضلي الحركة بالقيام بمظاهرات أخرى في الثامن ماي ، بمناسبة انتصار الحلفاء على النازية الألمانية ، مع التأكيد على المناضلين بأن تتم المظاهرات في جو سلمي ، وفي الإطار القانوني المسموح

به ، لكِن هل يمكن تحديد الجو السلمي في نظر الجزائريين أولا ، ثم في نظر الفرنسيين ثانيا ؟ وما هو الإطار القانوني المسموح به ؟

بالنسبة للجزائريين ، حانت ساعة التعبير عن المشاعر الوطنية ، وعن تعلقهم بالحرية كغيرهم من شعوب الدنيا .. وهذا النوع من التعبير كاف وحده في تفجير الموقف ، لأن الفرنسيين لا يتقبلونه ، خاصة وأن هؤلاء كانوا يتربصون بالجزائريين من مدة طويلة ، وكانوا ينتظرون بشوق ساعة انتقامهم من الجزائريين .. وها هي في نظرهم قد حانت ..

ولم تمر الساعات الأولى من الثامن ماي حتى حدث الاصطدام ، إثر اعتداء محافظ الشرطة الفرنسية في مدينة سطيف ، وإطلاقه الرصاص على الشاب شعال بوزيد الذي كان يحمل العلم الجزائري ، ويتقدم المظاهرة ، فأرداه قتيلا .. أدى إلى انفجار الجماهير الجزائرية التي أقبلتْ متظاهرة مُعربةً عن فرحتها !. وانقلب الفرح إلى مأتم ، حين هاجمتِ الشرطة المتظاهرين ومعها الأوروبيون المدنيون .. ولم يجد الجزائريون من وسيلة للدفاع عن أنفسهم إلا الالتجاء إلى العصي والمُدَى وإلى أي سلاح عثروا عليه ..

فهل كان العلَم الجزائري استفزازا لممثل الإدارة الاستعمارية ؟ أم هي الرغبة في الانتقام وفي تفجير الوضع ؟ كي تجد الشرطة والجندرمة والجيش الفرنسي ذريعة للتدخل ، وقمْع الحماس المتفجّر لدى الجماهير .

لأن المرء يتساءل : لماذا اختيرت مدينة سطيف من طرف الإدارة ؟ ولماذا اختير الشاب الكشاف الشجاع ؟ ولماذا تمسّك محافظ الشرطة بطلبه إنزال العلم الجزائري ؟ إن أي جواب ، يحمل - بدون شكٍّ - في طياته خلفية تنِمُّ عن حقد دفين ، ومكيدة مدبَّرة ، يدل على هذا ما قاله أحد

المسؤولين الجزائريين من أن نائب عامل عمالة سطيف استدعاه في الصباح الباكر من الثامن ماي ، وقال له : « لا شك وأنه مرخَّص لكم بالذهاب إلى نصب الأموات ، لكنّي أحذِّركم بأن السيادة الفرنسية لا يَجب أن تُمسّ ، لقد أعطيْتُ أوامري بإطلاق الرصاص » (جاك جيركي . الثورة الوطنية الجزائرية والحزب الشيوعي الفرنسي . ج 3 . ص 297) ، ومن الواضح أن نائب عامل العمالة اعتبر التظاهر بحمل العلم الوطني مساسا بالسيادة الفرنسية ، ولهذا أصدر أوامره بإطلاق الرصاص بعد محاولة لإنزال العلم وافْتِكاكِه من الشاب الذي كان محاطاً بمجموعة من الشبان أَعَدّتْ نفسها للدفاع عنِ العلَم .

لم تقتصر الاستفزازات على مدينة سطيف وحدها ، بل امتدّتْ إلى أكثرِ مدن وقرى ودواوير القطر ، خاصة في قالمة ونواحيها ، وخراطة ودواويرها ، كما أن الفرنسيين بدون استثناء اشتركوا في الاستفزازات وعمليات القمع ، بما في ذلك العناصر اليسارية التي تجنّد بعضها في مليشيات تقوم بإلقاء القبض ، واغتيال العناصر الوطنية بدون محاكمة ، ولا مراقبة .. كما اشتركت القوات العسكرية الفرنسية جميعها في عمليات الإبادة ، القوات البرية والجوية والبحرية ، فضلا عن الشرطة والجندرمة والمليشيات ،. وأسفرت العمليات على استشهاد ما يزيد على 45000 من الجزائريين ، واقتياد عشرات الآلاف إلى السجون والمحتشدات ، وإعدام العشرات عن طريق المحاكم .

أورد شارل أندري جوليان في كتابه « إفريقيا الشمالية تسير » نقلا عن هـ . بينازي : « لقد كان القمع ضاريا لا يرحم ، وفي الحقيقة خاليا من الإنسانية ، لأنه فاقد للتميز ، فكل عربي لا يَحمل الساعِدة القانونية ، كان مقتولا بسطيف ، حيث أُعلن القانون العُرفي ، وفي

الريف كان الجنود السينغاليون وجنود اللفيف ينهبون ، ويحرقون ، ويغتصبون النساء ، وقصف الطراد « ديفو لاتروان » أرباض خراطة بدون أي فائدة ، ودمّرت الطائرات 44 مشتى ، وهي مجموعة من المساكن تعد من 50 إلى 1000 ساكن ، ولما علِم سكان قالمة الأوروبيون بنهب القرى المجاورة انتابتْهم حُمّى المحاصرة ، فنظّموا حراسة مدنية لإعانة الجيش على الدفاع عن المدينة ضدّ جموع الآلاف العديدة من الأهالي المحيطين بها ، وأرسلوا بعثات انتقامية ، وصرعوا رميا بالرصاص ، وبدون محاكمة عشرات من الأهالي أخذوهم على غرّة ، وشاركتْ في القمع عناصر من أقصى « اليسار » ومن « الفاشية » على حدٍّ سواء » .

وأورد صحافي آخر ما يلي :« أبدا .. في الحقيقة .. منذ عام 1842 ، ومنذ الماريشال سانت آرنو ، لم تعرف الجزائر حتى في أيامها السوداء في تاريخها قمْعا أكثر ضراوة ضد شعب لا يَملك وسائل الدفاع .. في الطرقات .. في الدروب .. في الحقول .. في الشعاب .. في الأودية ، ليس هناك إلا جثث مبقورة ، أمعنتْ فيها الأفواه المُدمّاة للكلاب الجائعة تحتَ التجمّع المُحزِن للنسور التي كوّنَتْ دائرة .. هنا وهناك قرى بكاملها سُحِقَتْ ، مباديء الإنسانية انهارت تحت الرصاصات القاتلة من طرف المتمدنين .. آكام وأكداس من الموتى » (نقلاعن محفوظ قداش . مرّت ثلاثون سنة على 8 ماي 1945 . ص 30) .

نعم لقد بدأت الحوادث بمظاهرات سلمية ، أراد الجزائريون التعبير فيها عن فرحتهم بانتصار الديمقراطية على الفاشية والنازية ، وعن رغبتهم في الاستقلال ، إلا أن الإدارة الاستعمارية حوّلتْ هذه المظاهرات بتعسّفها إلى لهيب أشعل في نفوس الجزائريين نوعا من الغضب ، تحوّل إلى ثورة غير منظمة ولا مهيأة من قبل ، لأنهم وجدوا

أنفسهم في حالة دفاع عن النفس ، لم يعودوا يفرقون بين فرنسي وفرنسي ، لأن الاعتداء عليهم لم تقم به طائفة دون طائفة .. والعواطف عندما تهيج يعجز العقل والقانون عن التحكم فيها .

وأكثر ما أثار الجزائريين بصفة خاصة هو التّكاتُف المتين الذي ظهر به الفرنسيون عموما ، لا فرق بين يساري ويميني ، وجندي ومدني ، ومثقف ومعمر ، وعامل ورأسمالي .. حتى أنه بعد الحوادث مباشرة وجّه عميد المحامين ڤروزلبير إلى محامي محكمة الاستئناف الرسالة التالية : « زملائي الأعزاء .. في جلسة 9 جوان 1945 درس مجلس التنظيم (le conseil d'ordre) الوضعية الحالية للمحامين في القضايا الحالية الاستثنائية التي تهمُّ المتّهمين بمسّ أمن الدولة ، وإحداثِ الشغَب والقتل بعد حوادث قسنطينة .

« التشريع الحالي يسمحُ للمتهمين باختيار محاميهم بكل حرية ، غير أنه بحكم طبيعة هذه القضايا ، وبالتأثيرات المعتبرة التي أحدثتها ، والحوادث التي يُمكن أن تثيرها ، فإن المجلس يقدر غاية التقدير المرغوب ، بأن لا يقبل زملاء سلك المحاماة تعيينهم إلا بأمر من المحكمة » (روبيرآرون . أصول حرب الجزائر . ص 141) .

الخلاصة هي أن حوادث ماي كانت لها انعكاسات إيجابية على الحركة الوطنية بالجزائر ، وإن تباينت هذه الانعكاسات من تنظيم لآخر ، ومن شخصية لأخرى لأن آثار هذه الحوادث عدّلت الكثير من المفاهيم والاتجاهات .. إلا أن الذي اتفق عليه المؤرخون والمحللون هو أن حوادث ماي 1945 نواة لتعبئة ثورية تفجرت عام 1954 ، كما قال شارل هانري فافرو : « ملف 8 ماي يبقى مفتوحا .. كل الرؤساء

الوطنيين (أي الجزائريين) متفقون حول هـذا الموضوع ، وهو آن ثـورة 1954 تقرّرتْ سـاعـة حوادث 1945 ، كلٌّ هـؤلاء الـذين التقيتُ بهم في القـاهرة ، في تونس ، في بون ، في رومـة ، في جنيف ، رَووْا لي القصـة المرعبة لأيام وليالِيَ ماي » (شـارل هـانري فـافرو . الثورة الجزائريـة . ص 76) .

فعلا .. بقيت حوادث ماي راسخة في أذهان الأجيـال التي عـاشتهـا من بعـد أو قرب .. وقـد قـال الشيـخ البشير الابراهيمي بمنـاسبـة ذكرى الثامن ماي :

« يا يوم .. لك في نفوسنـا السِّمـة التي لا تُمْحَى ، والـذكرى التي لا تُنسى ، فكُنْ من أيِّ سنةٍ شئتَ ، فأنتَ يوم 8 ماي وكفَى ، وكلٌّ مالك علينـا من دَيْن أن نحيِي ذكراك ، وكل مـا علينـا من واجب أن نـدوِّن تاريخَك في الطروس ، لئلا يمسحه النسيان من النفوس » .



من الانتخابات
إلى
العمل الثوري

من الانتخابات إلى العمل الثوري

خلّفتْ حوادث ماي 1945 جروحاً لاَ تَنْدمِل في قلوب الجزائريين جميعا ، وحطمتْ فيهم آمالا كانتْ معلّقةً على الحرب العالمية الثانية ، وعلى وعود الحلفاء السخية (في التصريحات فقط) بأن للشعوب المستعْمرة الحق في تقرير مصيرها بعد الانتهاء من الحرب والانتصار على النازية .. وأقْسى نكبة أصابت وجدان الشعب الجزائري كانت تصدُّع الوحدة الوطنية التي عرفتها البلاد متينة جبارة في تجمعه « حركة أحباب الحرية والبيان » .

ولهذا وجد الجزائريون أنفسهم في مرحلة جديدة تختلف عن المراحل السابقة ،. وعليهم أن يواجهوا الأوضاع الجديدة بعد أن اجتازوا محنة ماي القاسية .. لا سيما وأنه جدتْ أوضاع على المستويين العالمي والداخلي :

ففي المستوى العالمي :

1 ـ بعد انتصار الحلفاء ، وانهزام ألمانيا وإيطاليا واليابان .. وبعد استتباب السلم ، ظهرت حرب تختلف عن الحروب التقليدية هي« الحرب الباردة » بين الكتلتين الشرقية والغربية .. وهي حرب بدأت تظهر بوادرها منذ مؤتمر يالطا الذي انعقد في الفترة 4 ـ 11 فبراير 1945 ، والذي ضم القوات الرئيسية في العالم وهي :ـ الولايات المتحدة الأمريكية . الاتحاد السوفياتي . بريطانيا العظمى . ويؤكد

المحللون السياسيون بأن فكرة تقاسم النفوذ أو مناطق النفوذ في العالم ظهرت في مؤتمر يالطا ، وهي التي تطورت بعد الحرب إلى حرب باردة بين المعسكرين الشرقي والغربي ، رغم أن المؤتمر أوصى بعقد اجتماع في سان فرانسيسكو بغرض إنشاء هيئة للأمم تحافظ على السّلام العالمي ، وتحلّ محلّ « عصبة الأمم » .

2 ـ خلال الحرب العالمية الثانية ، جرت اتصالات بين الدول العربية التي لم تكن في أغلبيتها مستقلة ، واتفقت بعد الاتصالات والمشاورات على إنشاء جامعة للدول العربية ، وقد قامت هذه الجامعة بعد إنشائها بنشاط عربي ودولي واسع بعد عام 1945 ، ساعد كثيرا على توضيح وتدعيم القضايا العربية المطروحة على الساحة الدولية .

3 ـ استفادت عدة أقطار مستعمرة من الحرب العالمية الثانية ، واستغلت الظروف ، واستطاعت الحصول على استقلالها بعد أن كانت خاضعة لأنجلترا أو هولندا ، مثل : الهند . الباكستان . سيلان . برمانيا . أندونيسيا .. وشجّع استقلالها بلدانا أخرى على الرغبة والسعي للتحرر والاستقلال .

4 ـ استلمت فرنسا من الولايات المتحدة إعانات مالية ومساعدات عسكرية ضخمة استغلّتها في تحديث جيشها ، وفي تطويره لمواجهة حرب الهند الصينية .

5 ـ مساعدات الولايات المتحدة ، ووقوف الدول الغربية إلى جانب فرنسا شجّعها على التصدّي للحركات الوطنية في مستعمراتها بالقمع والزجر ، وخاصة في جزيرة مدغشقر ، حيث تم إعدام عدد كبير من الوطنيين .

6 ـ وقّعت 12 دولـة على معـاهـدة الحلف الأطلسي ، وكان من بين هـذه الـدول فرنسـا التي قـامت بـإقحـام الجزائر في الحلف الأطلسي واعتبـارهـا إحـدى عمالات فرنسـا ،. الشيء الـذي دفع « حزب الشعب الجزائري » إلى الاحتجاج ، وإلى الدفـاع عن الـذاتيـة الجزائريـة التي لا تربطها بفرنسا علاقة التبعية المفروضة بالقوة .

أما على المستوى الداخلي :

أسفرت حوادث ماي على انهيار الوحدة الوطنية التي عـاشتهـا البلاد في « حركة أحباب الحرية والبيان » :

1 ـ فحزب الشعب الجزائري بقادته ومنـاضليـه تـأكـد بعـد حوادث ماي بأن « الحرية تؤخذ ولا تعطى » وبـأنـه لا يُمكن في أي حـال من الأحـوال الاعتاد على وعـود الـدولـة الفرنسيـة المستعمرة ، أو على وعـود الدول الأخرى التي تنافسها ، وتتنـافس فيما بينهـا على استعمار واستعبـاد الشعوب الضعيفة .. وفرنسا غير مستعـدة للتنـازل عن الجزائر مهما كانت الظروف ، حتى ولـو اقتضـاهـا ذلـك تجنيـد وتجميـع قـواتهـا العسكريـة الموزعة في المستعمرات الأخرى .. ولا تتورّع أيضـا عن القيام بـأي عمل ضد التحركات والمطالب الوطنية ، والدليل : أنها سخرت في ماي 1945 قواتها البرية والبحرية والجوية لقنبلـة القرى والمـداشِر ، وإبـادة السكان العزّل .

ومع تأكيداته .. وجد الحزب نفسه مترددا .. يتـأرجح بين مواصلـة العمـل السري الـذي نشأ عليـه ، وتمرس فيـه ، وبين النزول إلى الميـدان عـلانيـة ، ككل الأحـزاب الشرعيـة التي مكّنهـا غطـاؤهـا الشرعي من التحرك على نطـاق واسـع ،. وأخيرا قرّر في شهر نـوفمبر 1946 إبقـاء

« حزب الشعب الجزائري » المنحل من طرف الإدارة الفرنسية منذ عام 1939 يواصل عمله السري ، وإنشاء حزب شرعي يُعْلن عنه لدى الإدارة الفرنسية ، فأسس « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » (M.T.L.D.) كغطاء شرعي يسمح له بتحرك واسع ، ويخوّل له حق الترشح لمختلف المجالس ، واستطاع بهذه الواجهة الجديدة أن يصدر صحافة معبّرة عن مبادئه الاستقلالية وعن اختياراته الوطنية ، وأن يوسّع دائرة نضاله بالتوغّل في صفوف النساء والشّبان والطلبة والعمّال ، وتنظيم هذه الفئات ضمن اتحادات وجمعيات قانونية .

2 ـ أما فرحات عباس وأنصاره ممّن لا يؤمنون بالعنف ، أو ممّن يعتبرون المطالبة بالاستقلال تطرفا أو « نوعا من التهور » فقد اعتبروا حوادث ماي مغامرة قامت بها عناصر من « حزب الشعب الجزائري » اتخذتْها الإدارة الفرنسية ذريعة لضرب الحركة الوطنية ، ولحَلّ « حركة أحباب الحرية والبيان » ، وعليه لا يمكن التمادي في العمل جنبا إلى جنب مع مناضلي « حزب الشعب الجزائري » داخل حركة واحدة .. واستخلص عباس من حوادث ماي بأن التطرف لا يُجدي ، ولا يساعد الجزائريين في الحصول على حقوقهم .. والمجالس الشرعية الفرنسية أو المؤسسات الفرنسية هي أفضل وسيلة ـ في نظره ـ لعرض القضية الجزائرية ، وللدفاع عنها ، وتماشيا مع تفكيره وخطه الذي رسّمه لنفسه بعد حوادث ماي ، وبعد خروجه من السجن كوّن حزبا جديدا في أبريل 1946 سماه « الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري » (U.D.M.A.) وعن طريقه خاض المعارك الانتخابية عام 1946 ، وتحصل حزبه على أغلبية المقاعد البرلمانية المخصصة للجزائريين ، وتبلغ 15 مقْعدا .. وهي انتخابات قاطعها « حزب الشعب الجزائري » ، ودعا

الجماهير إلى مقاطعتها ، لأنها تتعارض وخطه في عدم الاعتراف بشرعية المؤسسات الفرنسية وقوانينها ، لكنه عدَل عن رأيه ، وترشَّح بدوره للمجالس .. في حين أيدتها « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » ووقفت بجانب مرشحي حزب « الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري » بدعوى أن رجال الاتحاد أفضل من مرشحي الإدارة الفرنسية من « بني وي .. وي .. » كما كان يطلق عليهم في ذلك العهد .

3 ـ بينما عادت « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » بعد الحرب العالمية الثانية ، وبعد حوادث ماي إلى نشاطها برئاسة جديدة تولاها الشيخ البشير الابراهيمي ، وقد ركزت نشاطها على تأسيس شبكة واسعة من المدارس الحرة في المدن والقرى والمداشر .. وعلى بناء المساجد الحرة التي عرفت إقبالا شعبيا واسعا .. وتوّجت نشاطها الثقافي والديني بتأسيس « معهد عبد الحميد بن باديس » بقسنطينة ، ويعتبر مفخرة ، وإنجازا هاما ، لأنه استعاد الازدهار الثقافي للمغرب الأوسط ، باستقباله للطلاب الجزائريين الذين كانوا في الماضي يهاجرون إلى تونس وإلى المغرب للدراسة بالزيتونة أو القرويين .. وقد قام بدور في تكوين أجيال ، وفي بعث حيوية أعادت للجمعية أمجادها التي غطت عليها ظروف الحرب .. وشرعت في إصدار السلسلة الثانية من صحيفة « البصائر » التي أوقفتها في بداية الحرب .. وعلى العموم اهتمت بالجانبين الثقافي والديني وعن طريقهما استطاعت أن تفرض نفسها على الساحة السياسية والشعبية .

4 ـ وهناك الحزب الشيوعي الجزائري ، وقد مرَّ منذ تكوينه بمراحل :

الأولى : محاولة إيجاد أرضية جزائرية مع المحافظة على ارتباطه والتزامه بخط الحزب الشيوعي الفرنسي ، ولم يتمكن من تحقيق غرضه إلا بعد اشتراكه في المؤتمر الإسلامي ، إذ استطاع من خلاله التسلُّل والاتصال بالأوساط الشعبية ، وقد ساعدته ظروف تشكيل « الجبهة الشعبية » بفرنسا ، بَعْدَ أَنْ كانت الأوساط الشعبية ترى فيه حزبا عدوًّا للإسلام ، استنادا إلَى المقولة الشيوعية الشهيرة « الدين أفيون الشعوب » .

الثانية : مرحلة ظروف الحرب العالمية الثانية : وتعرض الحزب الشيوعي في بدايتها للحل وللإيقافات في كل من فرنسا والجزائر ، لكنه استعاد مكانته بالجزائر أولا بمناسبة نزول الحلفاء بها .. وخلالها لم يتجاوب مع المطالب الشعبية الجزائرية ، ولم ينسجم مع مواقف التنظيمات الوطنية ، ولم ينخرط في تجمع « حركة أحباب الحرية والبيان » ، بل أنشأ تجمّعا آخر دعا إليه ، لم تكتب له الحياة .. وانتهتْ به مواقفه خلال الحرب ، وخلال حوادث ماي إلى اعتبار الحركات الوطنية الجزائرية حركات فاشية ، يجب القضاء عليها وعلى زعمائها .. وبذلك ابتعد عن الساحة الشعبية .. واستنكر الجزائريون بصفة خاصة اشتراك بعض مسؤوليه الشيوعيين في حوادث القمع والإبادة في شهر ماي 1945 إلى جانب المعمّرين والمتطرفين والإدارة الفرنسية .

الثالثة : تغيير التكتيك بعد عام 1947 : استمر النفوذ الشيوعي في فرنسا والجزائر فترة تقارب العامين ، مُني بعدها الحزب بتدهور على جميع الأصعدة ، حتى أنه فقد في الجزائر كل شعبية .. ودفعه ذلك لمراجعة سياسته ، وإلى محاولة التقرب من الجماهير باحترام مشاعرها ، والنظر إلى مطالبها بروح جديدة وسياسة جديدة ، لا تستبعد فكرة

« الجمهورية الجزائرية » .. وسعى إلى تنقية الأجواء بإبعاد العناصر الشيوعية التي اتُّهمتْ برفع الشعارات المعادية للحركات الوطنية ورجالها ، وفي هذا الإطار أُبعد عمار وزقان الأمين العام للحزب الشيوعي الجزائري ، بقصْد التقرب إلى الحركات الوطنية والجماهير الشعبية ، ونشّط نقابته « الكونفيديرالية العامة للعمال » (C.G.T.) التابعة له ، وقد تمكنت هذه من التغلغل في الأوساط العمالية بوضعها التنظيم النقابي المسموح به للدفاع عن حقوق العمال في كل من فرنسا والجزائر .

5 ـ الإدارة الفرنسية : ولهذه مخططات ومشاريع متناقضة ، تعبر عنها التصرفات الصادرة عن الإدارة من حين لحين :

ـ فهي أولا غير مستعدة للاستماع إلى المطالب الجزائرية سواء كانت هذه المطالب هامة أو تافهة .

ـ وهي ثانيا : ترى بأن القمع الذي مارسته ضد الجزائريين في حوادث ماي وما بعد ماي هو قمع مشروع ، وضروري لإنقاذ سمعة فرنسا ، ولاستعادة مجدها وهيبتها كدولة عظيمة ، لا سيما وأن موضوع « المجد الفرنسي » لم يفارق ذهن الجنرال دوغول منذ انعقاد مؤتمر يالطا الذي لم تُستدع لحضوره فرنسا ..

ـ وهي ثالثا تعتقد بأن القمع هو أحسن وسيلة لردع الوطنيين ولإثنائهم عن نشاطهم الوطني ، وعن أفكارهم الوطنية .

إلا أن الظروف والأحداث التي توالت فيما بعد ، أثبتت بأن التصامم عن المطالب .. والغطرسة الاستعمارية .. والقمع الوحشي .. أسلحة مفْلولَةٌ ، لأنها ضاعفت من إرادة الجزائريين وتصميمهم على مواصلة

معركة التحرير .. وهنا وجدت الإدارة الفرنسية نفسها مضطرة لمحاولة تلطيف الأجواء ، واكتساب الجانب الجزائري ، فلوّحت بسياسة فتح باب الترشيح للبرلمان الفرنسي أمام الجزائريين .. في حين عارض المعمّرون والمتطرفون الفرنسيون فكرة السماح للجزائريين بالترشح للبرلمان الفرنسي ، لأن هؤلاء لم يبلغوا بعد درجة من الوعي والتطور ، تؤهلهم للجلوس في برلمان واحد مع الفرنسيين ..

سياسة فتح باب الترشح .. وتَرَشُّحِ الجزائريين .. والحملات الانتخابية .. وإن أفادت في بعض الأمور ، فقد ساهمت إلى حد كبير في تغذية الخلافات ، واحتداد الصراعات بين الأحزاب ، لم تنفع في التخفيف منها الدعوات التي وجهتها عدة أطراف ، والتي تدعو إلى اتحاد وطني ، يضمّ جميع الأحزاب ، لأن كل حزب تصلّب في موقفه ، وتقدم بشروط لا تساعد على تحقيق الوحدة .. وكل ما هنالك ، أنه تمّ الوصول إلى صيغة توفيقية تدور حول الدفاع عن الحريات العامة بعد أن اشتدت حملات القمع الإدارية الاستعمارية ، تمثلت هذه الصيغة في إنشاء « جبهة الدفاع عن الحريات الديمقراطية » التي تأسست عام 1951 ، ولم تعمّر طويلا ، لعدة أسباب ، منها العوامل الشخصية ، والتباين في التفكير والاتجاه ، والتخوف من عواقب الاتحاد في ظل المنافسات العقائدية التي برزت بكيفية واضحة ما بين 1947 و 1954 ، وقد قال الشهيد قاسم رزيق عن هذه الجبهة : « ومن المؤسف جدا أن الجبهة ماتت قبل أن تحقق ولو بندا واحدا من بنودها الضيقة ، ذلك لأنَّها بُنيتْ على أساس مهلهل ، لا تثق به الأمة ولا أعضاء الجبهة أنفسهم » (من مقال لقاسم رزيق . صحيفة « المنار » العدد 43 ..يونيو 1953) .

الأحزاب وتجربة المجالس :

في البداية تحمّس « الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري » (U.D.M.A.) لفكرة الترشح الجزائري للبرلمان الفرنسي ، فرشح نخبة من خيرة عناصره المثقفة وتحصلت على 11 مقعدا من بين 13 مقعدا ..وقد عارض « حزب الشعب الجزائري » هذه الانتخابات ، ثم عدل عنها ، وخاض بدوره معركة الانتخابات بغطائه الشرعي الجديد « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » ونجح خمسة من مُرشحيه ..

إن تجربة البرلمان الفرنسي ، والخطب المتحمسة التي ألقاها ممثلو الحزبين تحت قبة البرلمان الفرنسي لم تأت بجديد ، ولو أن الحزبَيْن عبَّرا بصوتين مختلفين .. فنواب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري حاولوا في إطار الشرعية والاعتدال التعبير عن مطالب الشعب الجزائري في لهجة معتدلة ، وخطب ذات قيمة تاريخية ، أملا في الوصول إلى تحقيق بعض المطالب ، وإلى تحسين أوضاع الجزائريين .. واعتمدوا في كل تصريحاتهم وخطبهم ونشاطهم على القوانين الفرنسية المسطرة ، واحتجوا بها دائما .. بينما نواب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية سلكوا منهجا آخر ، إذ صرَّحوا منذ البداية بأنهم لا يعترفون بالقوانين الفرنسية ، ورددوا داخل جدران البرلمان مطلب الاستقلال التام ، منددين في الوقت نفسه بالسياسة الفرنسية المتبعة بالجزائر منذ عام 1830 ، ومشهّرين بالممارسات القمعية التي تقوم بها الإدارة الفرنسية بالجزائر .

لم تتوقف التجربة عند حدود البرلمان الفرنسي ، فقد شاركت الأحزاب في انتخابات المجالس البلدية عام 1947 ، وتحصلتْ فيها « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » تقريبا على جميع بلديات

القطر ، وكان نجاحها دليلا على مشاعر الجزائريين ورغبتهم في الحرية والاستقلال ، وكانت مؤشرا أيضا للفرنسيين لم يستفيدوا منها ، لأنهم واجهوا التيار الاستقلالي بالتشدد والزجر .. ولم تكن تجربة المجالس البلدية سهلة بالنسبة « لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية » ، لأنها وجدت نفسها في وضع مُحْرِجٍ إذ واجهتْ صعوبة في التوفيق بين العمل السري الهادف للاستقلال ، والعمل الشرعي الذي يقتصر على تحسين وتسوية مشاكل المواطنين اليومية .

وفي عام 1948 جاء دور الترشح للمجلس الجزائري الذي تقرر تكوينه في الجزائر من 120 نائبا مناصفة بين الجزائريين والفرنسيين في الجزائر .. وفي هذه المرة لم تعد الإدارة الفرنسية تنظر بعين الارتياح إلى الانتخاباتِ ، وصارت تتخوّف من نتائجها ، ومِن ارْتفاع نسبة العناصر الوطنية على حساب العناصر المتواطئة مع الإدارة الفرنسية ، فشرعت بطريقة مكشوفة ووحشية أحيانا في عرقلة الترشيحات الوطنية ، بالإيقافات غير الشرعية ، والمحاكمات غير القانونية ، وسجن وتغريم المرشحين وأنصارهم ، وقامت بعمليات تزييف تاريخية على يد الوالي العام آنذاك إيدموند نيجلان الذي اشتهر بالتزوير ، وقد قام بحبس المرشّحين قبل يوم الانتخاب ، ومنع المناضلين الوطنيين من الإشراف على مكاتب وصناديق الاقتراع ، وكلف رجاله من شرطة وجندرمة وأعوان بملء صناديق الانتخابات بأوراق مرشحي الإدارة من قياد وآغوات ، ومثقفين محسوبين عليها ، ولم يَفُزْ إلا عدد ضئيل من مرشحي « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » و« الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري » و« الحزب الشيوعي الجزائري » وكانت أصواتهم لا تكاد تذكر وسط أكثرية فرنسية ، وذيول فرنسية .

إذا كان للانتخابات محاسنها في خلق جو من التنافس بين الأحزاب ، وفي توعية الرأي العام ، وتنشيط الحياة السياسية ، فإنها من ناحية أخرى عمَّقت هُوى الخلافات بين الأحزاب ، خاصة بين « الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري » و « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » ، وبرز الخلاف إلى الوجود بصورة علانية ومكشوفة عندما هاجم مصالي الحاج مشروع فرحات عباس الذي يطالب « بجمهورية جزائرية فيديرالية ، في إطار الاتحاد الفرنسي » لا تمثل من وجهة نظر مصالي الرغبة الوطنية الجزائرية ، لأنها منقوصة السيادة ، ولا تتحكم في أمر الدفاع الوطني ، ولا في شؤون السياسة الخارجية ، بينما يرى فيها عباس وسيلة لتطوير القضية الجزائرية التي واجهت دائما تَعَنُّتاً من طرف الإدارة الفرنسية ، وتنحصر وجهة نظره في مبدإ « الحصول على القليل ، خير من لا شيء » و « وما لا يدرك كله ، لا يترك جله » .. أدى الاختلاف إلى صراعات حزبية ، وإلى تبادل التهم ، وإلى التراشق بالخيانات ، مما دفع الغيورين على المصلحة الوطنية إلى السعي حثيثا في توحيد الصفوف ، ولكن مساعيهم كلها لم تجد الصّدى المنتظر .. ودفع أيضا صحيفة « المنار » التابعة لحزب « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » إلى أن تفتح ملفا خاصا يتضمن إجابات الشخصيات الجزائرية المتحزّبة وغير المتحزّبة ، حول استفتاء موضوعه « الاتحاد » محددٍ في الأسئلة التالية :

1 ـ هل تعتقدون أن الاتحاد في الجزائر ممكن ؟

2 ـ على أي أساس ؟

3 ـ ما هي وسائل تحقيقه ؟

أجمعت الإجابات على هذه الأسئلة الثلاثة بأن الاتحاد ضروري وأكيد في مثل الظروف التي تجتازها البلاد .. ومن بين الإجابات القيّمة ما كتبه الشيخ محمد بن العابد الجلالي ، وقد استهلّ جوابه بقوله : « أعتقد أن الاتحاد ممكن ، وممكن جدا ، وواجب ، وليس بيننا وبينه إلا أن يتغلب العقل على العاطفة ، وإلا أن تخلص النفوس من شوائب الأنانية ، وإلا أن يظهر القادة والزعماء من الحنكة والرجولة والجدارة وبعد النظر أكثر مما أظهروه حتى الآن » .

لم يتغلب العقل على العاطفة .. ساءت العلاقات بين الاحزاب ، واحتدّ الصراع ، وكاد الوضع يتعفّن ، وأصاب اليأس بعض النفوس . لولا أن الله ادّخر لهذا الشعب جماعة مُخلصة كانتْ تُعِدُّ في سرية تامة ، وجدّية مثالية ، لثورة مسلّحة تتعَدّى المخططات والحسابات السياسية ، وتتجاوز المهاترات الحزبية .. كانت هاته الجماعة تعمل في إطار « المنظمة الخاصة » أو السرية التي توصّلتْ بعد الأزمات التي تعرضتْ لها إلى تفجير ثورة نوفمبر 1954 ، فأنقذت البلاد من تدهور أكيد .. فما هي قصة المنظمة الخاصة ؟

المنظمة الخاصة :

« المنظمة الخاصة » وليدة أزمة داخل « حزب الشعب الجزائري - حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » ظَهرتْ في أواخر عام 1946 بعد أن زجّ مصالي الحاج بحزبه في الانتخابات .

حلّت الإدارة الفرنسية « حزب الشعب الجزائري » عام 1939 بعد أن ألقت القبض على أغلبية قادته ومناضليه .. وبعد الحرب العالمية

الثانية بدا لمصالي أن يشترك كبقية الأحزاب في الانتخابات ، وأن يترشح حزبه للمجالس ، وبما أن الإدارة الفرنسية لا تسمح لحزب منْحلّ - قانونيا - بالترشح ، فقد اضطر الحزب أن يتقدم بعنوان جديد هو « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » كواجهة شرعية له ، وخاض بهذا العنوان المعارك الانتخابية في أواخر 1946 .. ولم يتقبل العديد من المناضلين المتحمسين المتمسكين بالسرية ، والعمل الثوري ، ترشح الحزب للانتخابات ، ورأوا في ذلك انحرافا وانزلاقا نحو الشرعية التي تُبعِد الحزب عن النضال الحقيقي ، والهدف الحقيقي ، وتضطره إلى تنازلات ، وإلى قبول بعض التصرفات والقرارات التي لا تتجاوب والمناداة بالاستقلال .. وتلافيا للانتقادات التي تعرضت لها قيادة الحزب ، تقرر عقد مؤتمر يضم إطارات الحزب يومي 15 - 16 فبراير 1947 .. اجتمعت الإطارات يوم 15 ببوزريعة ، ويوْم 16 ببيلكور لضرورات أمنية ، وقد هاجم التيار المتحمس قيادة الحزب واللجنة المركزية ، لإنشائها حزبا شرعيا بدون استشارة المناضلين ، وأخيرا انتهى المؤتمر بتوصيات تُوفّق بين التيارات .

من بين الذين اشتركوا في المؤتمر : مصالي الحاج . الاحول حسين ، بن يوسف بن خدة . خيضر محمد . مزغنة أحمد . محمد الآمين دباغين . مسعود بوقادوم . حسين آيت أحمد . بلوزداد محمد . عمر أوصديق . سيد علي عبد الحميد . عبد الرحمن طالب . حمّو بوتليليس . هواري سويح . محمد يوسفي . مبارك فيلالي . والي بناي . إبراهيم معيزة . شوقي مصطفاي . سعيد عمراني . أحمد بوده . حسين عسله . عبد المالك تمام . محمد ممشاوي . حاج محمد شرشالي .

أما القرار التوفيقي فكان كما يلي :

1) الإبقاء على « حزب الشعب الجزائري » في إطاره السري القديم ، للعمل على توسيع القاعدة الحزبية ، ونشر الفكرة النضالية الاستقلالية .

2) متابعة « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » - بمظهرها الشرعي ، وإطارها القانوني - لمساعيها ونشاطها في الأوساط الرسمية والشعبية لتوعية الجماهير بصفة عامة ، وللتخفيف من المشاكل اليومية التي تواجه المواطنين في حياتهم اليومية لدى الإدارة الفرنسية .

3) إنشاء منظمة شبه عسكرية سرية ، عُرِفت فيما بعد « بالمنظمة الخاصة » أو « المنظمة السرية » (O.S.) تتولّى الإعداد والتعبئة للعمل الثوري .

وبدل أن ينهار الحزب من جراء الانتقادات التي وُجِّهت إلى قيادته ، عادتْ إليه حيويّته بمجرد صدور قراره الخاص « بالمنظمة الخاصة » التي عُيِّن على رأسها محمد بلوزداد ، وهو شاب من خيرة المناضلين ذكاء ، وتكوينا ، وحيوية ، وإخلاصا ، تولّى مسؤولية شبيبة الحزب ببيلكور ، ومسؤولية الحزب في عمالة قسنطينة ، وقد كان رغم صغر سنه عضوا في المكتب السياسي للحزب ، ونظرا لصفاته وأخلاقه العالية أوْلاه الحزب الثقة المطلقة ، وأسند إليه مهمة تشكيل التنظيم السري العسكري ، وتعهّد له بتقديم المساعدة الكاملة ، وترك الحرية له في اختيار العناصر الوطنية المؤهَّلة للعمل الثوري .

باشر بلوزداد عمله ، بمقتضى مبدأين حدّدهما :

- اختيار أحسن المناضلين في الحزب لتجنيدهم في « المنظمة الخاصة » .

ـ الفصل التام بين « المنظمة الخاصة » والتنظيمات الأخرى التابعة للحزب ، محافظة على السرية التامة .

وبادر بتنصيب أركان حربه من :

1) حسين آيت أحمد ـ رئيس هيئة الأركان .

2) بلحاج الجيلالي عبد القادر ـ المدرب العام .

3) محمد بوضياف ـ مسؤول قسنطينة .

4) جيلالي رقيمي ـ مسؤول الجزائر .

5) محمد مروك ـ مسؤول الشلف والظهرة .

6) عمار ولد حموده ـ مسؤول منطقة القبائل .

7) أحمد بن بله ـ مسؤول وهران .

8) محمد يوسفي ـ مسؤول شبكات الاستعلامات والاتصالات .

استطاعت المنظمة أن تحقق في فترة وجيزة خطوات هامة :

ـ اختارت من داخل الحزب العناصر الشجاعة المخلصة القادرة على التجنّد ، وفصَلتْها عن الحياة الحزبية السياسية ، وعن الحياة العامة للتفرّغ الكامل للعمل الثوري .

ـ تمّ تجنيد المناضلين وفق مقاييس متشدّدة ، وبعد امتحانات صعبة ، وبعد أداء القسَمِ بأن يقدم المناضل في المنظمة جميع إمكاناته لخدمة القضية الوطنية التي ضحّى بحياته من أجلها .

ـ تدريب المناضلين المجندين ، وتزويدهم بمعلومات عسكرية نظرية وتطبيقية ، وخاصة في ميدان حرب العصابات ، وبتوجيهات مكتوبة في الميادين العسكرية والعقائدية والسياسية .

ـ سعت للحصول على الأسلحة بجميع الوسائل .. بجمْعها وشرائها من داخل البلاد ، وبإرسال فدائيين خارج الوطن للحصول عليها بأساليب متنوعة ، وأعدّت لذلك مخابيء ومراكز للتدريب ، ولإخفاء الأسلحة والذخيرة .

ـ أنشِئتْ مراكز لصنع الأسلحة والذخيرة الحربية ، والمتفجرات في عدة مراكز من أنحاء الوطن . وتمّ تدريب إطار خاص للإشراف على هذه المراكز وتسييرها .

ـ تحديد المناطق التي يقع فيها التدريب ، وقد شملت : الجبال . الغابات . الوديان . الشعاب . الصحاري . لأن حرب العصابات تتطلب معرفة طبيعة الأرض .

ـ غرس روح النظام في المناضلين بطريقة صارمة ، وساعد على ترسيخها ، ما يتمتع به المناضلون من استعداد نفسي ، ومن روح معنوية عالية لدى كل فرد منهم .

ـ إنشاء شبكات مدعِّمة للمنظمة ، مثل :شبكة التواطؤ (Réseau de complicité) وشبكة الاتصالات (Réseau de transmission) ، ومهمّة الشبكة الأولى هي اختيار الملاجيء السرية التي يُمكن إخفاء المناضلين ـ الذين تبحث عنهم الشرطة ـ بها ، وإعداد مخابيء للاسلحة والذخيرة .. ومهمّة الشبكة الثانية هي : شراء أجهزة الاتِّصالات ، والتدرب على استعمالها ، ويشرف عليها اختصاصيون في حدود الإمكان .

ـ قُسِّمت البلاد جغرافيا واستراتيجيا إلى مناطق ، ونواحٍ ، كما تمّ تفويجُ المناضلين في خلايا وفِرق على أساس السرية ، واحترام الفَصل بين الأفواج ، وقد كانت المنظمة صارمةً في مبدإ السرية إلى درجة أن

التدريبات يشرف عليها مدربون مقنّعون ، لا تبدو إلا أعينهم ، ولا تعرفُ أسماؤهم الحقيقية ، وإنما يعرفون بأسماء مستعارة . وحتى القادة الذين يراقبون التدريبات ويتنقلون ، يؤدون مهامهم في سرية ، مستعملين الأقنعة .

ـ أولت المنظمة أهمية للاستعلامات ، ولمتابعة الخونة .. فأنشأتْ أجهزة خاصة للتعرف وللاطلاع على تنظيمات وتحركات الأجهزة العسكرية والإدارية والبوليسية الفرنسية .. وأيضا لتعقُّب الخونة . إيمانا بأن الخونة هم الأعين التي يعتمد عليها جهاز الشرطة الفرنسية في كل الأوقات .

وخلال عام ، حققت المنظمة في ميدان الإعداد والاستعداد تقدما هائلا ، وما كاد عام 1948 يوشك على الانتهاء ، حتى تقدم مسؤول المنظمة بتقرير إلى اللجنة المركزية لحزبه « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » وهو تقرير رائع يكتسي أهمية خاصة في ذلك العهد الذي اشتدت فيه وطأة القمع والزجر ، واشتد فيه الصراع الحزبي ، ولا تعلم أكثرية الشعب الجزائري بهذا التنظيم السري .. ويعتبر التقرير وثيقة أساسية من وثائق الثورة الجزائرية ، لأنه :

أولا : يبرهن برهنة قاطعة ـ بمراجعة تاريخ كتابته ـ بأن الثورة الجزائرية التي اندلعت عام 1954 ليست بالثورة المستوردة من الخارج ، ولا هي بالثورة التي أوحَتْ بها عناصر أجنبية ، ولا هي مجرد مغامرة مرتجلة بعيدة عن كل تخطيط وإعداد .

ثانيا : يُجَسِّم الجدِّية التي كان رجال المنظمة الخاصة يتحلّوْن بها ، لا فرقَ في ذلك بين مسؤول ومناضل ، لأن كل مناضل يعتقد بأن

واجب تحرير الجزائر يقع عليه ، وهو بشعوره هذا يعتبر نفسه مسؤولا .

ثالثا : يتضمّن التقرير طريقة جديدة في تحليل القضايا الحزبية الداخلية ، ويجري فيه نقدا ذاتيا جريئا وصريحا ، ويحلّل الظواهر الثورية في العالم بإجراء مقارنة بينها ، ويختم المقارنة بأن الثورة الجزائرية لا يمكن أن تكون إلا جزائرية ، لأسباب استعرضها التقرير ، ويتعرض أيضا لتحديد آفاق الثورة في إطار المغرب العربي كله .

فالمنظمة في التقرير هي : « منظمة النخبة بعددها الذي يجب أن يكون محدودا بسبب طابعها السري جدا ، ويجب عليها بالدرجة الأولى تكوين إطارات معركة التحرير » .

ويُحدِّد التقرير شكل الكفاح الذي تكون عليه معركة التحرير :

1 ـ كفاح التحرير لا يكون بانتفاضة جماهيرية .

2 ـ كفاح التحرير لا يكون بتعميم الإرهاب .

3 ـ كفاحُ التحرير لا يُمكن اختصاره بتكوين منطقة محرَّرة ، وإنّما سيكون الكفاح التحريري حربا ثورية حقيقية » .

لكن هل الثورة ضرورية ؟ تقرير المنظمة يرى بأن الثورة ضرورية وأساسية ، لأن عهود « الاندماج » و « الإصلاح » و « الشرعية » و « الانتخابات » تجاوزها الزمن .

« إن طروحات الاندماج دُفنتْ نهائيا »

« الإصلاح انتهى بإفلاس فعليّ ، وبالأهمية الخاصة الّتي أُعطيت لورقة الانتخابات » .

« الشرعية ماتت من اللاشرعية الوراثية التي أوجدها الاستعمار » ويتعرض التقرير إلى أهمية الجزائر بالنسبة لفرنسا ، وإلى استعداد هذه لاستعمال كل الوسائل للاحتفاظ بها : « نحن نعلم ، ومنذ زمن قلنا بأن بلدنا يشكِّل حجر الزاوية للأمبريالية الفرنسية ، وفرنسا لا تتنازل عنها دون أن تستعمل كل الوسائل الهامة التي في حوزتها » .

وما دام الوضع كذلك .. والتصميم الفرنسي واضحا .. فما هي الإمكانيات الجزائرية لمواجهة القوات الفرنسية الجبارة ؟ يجيب على هذا السؤال : « إن قوتنا قوة معنوية تتمثل في روح المقاومة ، وفي الإيمان الوطني ، وفي التفاني والتصميم الذي يجب أن يهز كل الجزائريين ، ومع ذلك فإن الحرب التحريرية هي الشكل الوحيد للكفاح الملائم لأوضاع بلدنا » .

ولا يُخفي التقرير امتعاضه من وضع حزبه ، ويجري في ذلك نقدا ذاتيا ، فينتقد وجود حزبين لجماعة واحدة « حزب الشعب الجزائري » و « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » بجناحها العسكري « المنظمة السرية » التي تفتقر إلى الوسائل المادية ، والإمكانات الكافية لمواجهة العمل الثوري في الوقت الذي طغت الانتخابات والتحمس لها على كل نشاطات الحزب ، واستنفدَتْ مالية الحزب » ثم يستعرض أقوال المناضلين الذين ضجُّوا من سياسة الانتخابات : « « لا تستدعونا لصناديق الانتخابات » « أعطونا سلاحا » « أنا لا أريد أن أجازف بدون فائدة » « نريد أن نموت مرة واحدة » ، هذه هي التعابير التي يرددها الجزائري العادي تشهد على تذمّر الجماهير من هذا النوع من الكفاح (كفاح الانتخابات) الذي يبدو لها بأنه بغير جدوى .. كما يدل على متانة وهبوب تيّار تاريخي عميق ، علينا أن نعمّق هذا التيار

التاريخي ، بالاضافة إلى هذا معنا بعض أعضاء المكتب السياسي الذين أوقفوا وسُجنوا بوصفهم مترشحين للمجلس الجزائري ، وقد صارحونا عند مغادرتِهِمْ لسجن بربروس بأنه « يجب إعادة النظر في سياستنا ». تحمُّل السّجن مقبول ، لكن على الأقل في قضية هامة » .

ولم تتوقف المنظمة عند حدود أن تكون الرائدة أو الطليعة في الكفاح المسلح على مستوى الجزائر فقط ، بل سَعَتْ إلى حثّ كل من تونس والمغرب على الاتجاه الثوري ، والقيام بعمل موحد ، وأبدت استعدادها ومسؤوليتها لتوحيد المغرب ، وخوض معركة مشتركة « المسؤولية تعود إلينا للشروع في عملية التوحيد (أي توحيد المغرب العربي) لمساعدتها على تنظيم هياكل مشابهة لهياكلنا » « الكفاح المشترك ليس فقط ضمانا للانتصار على القوات الاستعمارية ، بل هو كذلك ضمان لوحدةِ المغرب ». إذ في خضم الكفاح التحريري تنهار الحدود المصطنعة التي تُجزّيء هذه الوحدة » .

ولم ينس التقرير إشعار المسؤولين في اللجنة المركزية لحزبه بأن المناضلين قد استوعبوا مناهج التدريبات المقررة ، وهم في انتظار الأوامر للشروع في التنفيذ .. ولا ينبغي أن يطول انتظارهم حتى لا يتحول أملهم وحماسهم إلى خيبة ويأس .

للتقرير أهميته ، لأن قيادة المنظمة تقدمت به لِاجتماع اللجنة المركزية الذي انعقد في شهر ديسمبر 1948 بزدّين ناحية وادي الورينة أولا ، وانتهى الشطر الثاني منه بالبليدة .. وتعود أهميته إلى الظروف التي كتب فيها ، وإلى ما احتواه .. ورغم ذلك ، فإن اللجنة المركزية للحزب رأت بأن الوقت غير مناسب للقيام بعمل مسلح ، وإن قررت

من ناحية أخرى تدعيم « المنظمة الخاصة » بالرجال والمال والسلاح ، رغم عجز الصندوق المالي للحزب عن تلبية حاجات المنظمة كلها .

ما بين عامي 1948 و 1950 قامت المنظمة ببعض العمليات ، نجحت في أغلبيتها، وفشلتْ في بعضها ، من أشهر العمليات : بريد وهران . منجم الوانزة . محافظ الشرطة ببودواو . تمثال الأمير عبد القادر بباليكاو .

وفي 18 مارس 1950 قام ديدوش مراد . مصطفى بن عودة . عبد الباقي بكوش . حسين بن زعيم . إبراهيم عجامي بعملية تأديبية ضد عبد القادر خياري في تبسة ، إلا أن هذا تمكّن من النجاة ، والهروب وإخبار الشرطة بالعملية وببعض الأسماء .. وتسببت هذه العملية في كارثة للمنظمة ، إذ اكتشف أمرها من قبل السلطة الفرنسية ، ولم تكن على علم بأمرها قبل ذلك ، وتعرفت الشرطة على أعضائها ،.. وألقت القبض على أكثر من ثلاثمائة مناضل موزعين في القطر ، وسيقوا إلى السِّجن ، وصدرت ضدهم أحكام قاسية .. أما بقية المناضلين فقد تفرقت ، واختفى بعضهم ، منهم من اعتصم بالجبال ، وهام بالبوادي ، ومنهم من اختار التنقل بين المدن والقرى وفرنسا بأوراق مزيفة ، وبذلك أصيبت المنظمة الخاصة بنكسة لم تكن تتوقعها ، وتأثر أعضاؤها المسجونون وغير المسجونين ، واتَّهموا إدارة الحزب بأنها تخلت عنهم ، وتبرأت منهم .. ومنذ ذلك الحين والحزب يعاني ويواجه الأزمات ..

وفي عام 1953 ، لم يبق الخلاف بين أعضاء « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » خافيا على أحد ، وتفجر بصفة خطيرة وحادة عام 1954 ، وأدى إلى أنقسام الحزب إلى تيارين : تيار « اللجنة المركزية » أو « المركزيين » .. وكانت له وجهة نظره في سياسة الحزب ،

وفي زعامة مصالي الحاج للحزب .. وتيار « الحركة الوطنية » أو المصاليين ،. وكانت له أيضا وجهة نظره في سياسة الحزب ، وفي أعضاء اللجنة المركزية إلى درجة اتهامهم بالانحراف والانتهازية .. لكن هناك تيار ثالث أنكر على الحزب انقسامه في مثل هذه الظروف ، وفضّل الحياد الذي تحول على يد محمد بوضياف ومراد ديدوش إلى تنظيم « لجنة الثورة والوحدة والعمل » (C.R.U.A.) ، ولم يجدْ هذا التنظيم الصدى الذي كان يأمله ، لأن أغلبية المناضلين الحياديين تجنّبت توسيع شقة الخلاف ، وانضمامهم إلى « لجنة الثورة والوحدة والعمل » يخلق حزبا ثالثا ، رغم أن هذه اللجنة قامت بنشاط حثيث وأصدرت صحيفة ..

وبذلك كانت سنة 1954 سنة الصراعات الحادة والفاصلة بين أجنحة حزب « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » بخّرت آمال العناصر الوطنية المناضلة داخل الحزب ، وخاصة في أوساط الشبيبة .. وهذا ما حدا بنخبة من « المنظمة الخاصة » لأن تدعو إلى عقد اجتماع خاص سري ، لا يحضره إلا إطارات « المنظمة الخاصة » الموزعة داخل البلاد ، وتولى الدعوة للاجتماع مصطفى بن بولعيد ، وتولى الاعداد المادي من استقبال ، وإيواء ، وتعيين مقر الاجتماع مراد ديدوش ، وقام بإعداد التقرير العام محمد بوضياف .. وفعلا انعقد الاجتماع في أواخر شهر جوان 1954 ، وقد اشْتَهَر باجتماع (22) مع أنه لم يشترك فيه إلاّ 21 مناضلا ، وتمّ في دار إلياس دريش بالمدنية بالعاصمة .. استمع الحاضرون في البداية للتقرير العام ، ثم تداولوا الآراء حول الأزمة التي يمرُّ بها الحزب في هذه الظروف العويصة ، وأخيرا اتفقوا على النقاط التالية :

- الحياد أو عدم الدخول في الصراع بين « المركزيين » و « المصاليين »

ـ الغمل على توحيد جناحي الحزب .

ـ تدعيم موقف « لجنة الثورة والوحدة والعمل » في أهدافها الثلاثـة : الثورة والوحدة . والعمل .

ـ تفجير الثورة في تاريخ تحدده لجنة مصغرة .

ـ انتخاب مسؤول يتولى تكوين لجنة مصغرة .

وقبل أن يتفرق الحـاضرون انتخبوا مسؤولا فوضوا إليـه أمر تشكيل اللجنة التي تتولى الإعداد للثورة ، وقد تكونت اللجنة من :

ـ مصطفى بن بولعيد .

ـ مراد ديدوش .

ـ العربي بلمهيدي .

ـ محمد بوضياف

ـ رابح بيطاط .

والتحق بالخمسة فيما بعد ـ كريم بلقاسم .

وخـلال فترة الإعـداد ، ضمت اللجنـة إليهـا لتمثيلها بـالخـارج ممثلي « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » بالقاهرة ، وهم :

محمد خيضر .

ـ حسين آيت أحمد .

ـ أحمد بن بله .

وهكـذا نجـد أنـه منـذ شهر جـوليت 1954 وأعضـاء لجنـة الإعـداد يسـابقون الزمن ، ويكثفون من تحركاتهم واجتماعـاتهم واتصـالاتهم داخـل البلاد وخارجهـا ، مستعينين بخبرتهم السـابقـة في « المنظمـة الخـاصـة » ، ومستفيدين من تجارب المقاومة منذ 1830 .

وفي شهر سبتمبر من نفس السنـــة اجتمعت اللجنـــة لـــدراســـة بعض القضايا :

- نتائج الاتصالات والتّحركات .
- قضية التنظيمين السياسي والعسكري .
- السلاح وكيفية الحصول عليه .
- الأموال الضرورية .
- مواصلة الاتصالات بالأحزاب والهيآت لجس نبضها ، والتعرف على مواقفها فيما إذا انفجرت الثورة .

أما في اجتماع أكتوبر ، فقد تقرر :

1 - تحديد تاريخ إعلان الثورة .

2 - الاتصال بمناضلي « المنظمة الخاصة » وإشعارهم بالاستعداد لساعة الصفر .

3 - إبقاء تاريخ تفجير الثورة سرا .

4 - ضبط ، وصيانة الأسلحـة القديمـة المختزنـة في مخـابيء « المنظمـة الخاصة » التي لم تكتشفها الشرطة الفرنسية عام 1950 .

5 - تقسيم البـلاد إلى خمس منـاطـق ، وتـوزيـع المسـؤولين عنهـا كما يلي :

- الأوراس : مصطفى بن بولعيد
- الشمال القسنطيني : مراد ديدوش
- القبائل : كريم بلقاسم
- الجزائر : رابح بيطاط
- وهران : العربي بلمهيدي

6 ـ تعيين منسق بين المناطق ، وبين الداخل والخارج ، وقد كلف بهذه المهمة : محمد بوضياف .

7 ـ إعداد منشور يعلن الثورة ، ويوضح أهدافها .

وبسرعة فائقة توالت التحضيرات .. وما كاد أول نوفمبر 1954 يحل حتى كانت وكالات الأنباء العالمية تردد أصداء « الأحداث » التي وصَفَتْهَا الجهات الفرنسية الرسمية وغير الرسمية آنذاك بأنها « مُجرد حوادث معزولة » « لا أهمية لها » و « لا تشكل خطرا على أمْنِ وَوحدة العمالات الفرنسية » « ويمكن إخمادها ، والقضاء عليها بسرعة » .. ولما تأكدت هذه الجهات بأن ما وقع في ليلة أول نوفمبر أقوى من « مجرد حوادث معزولة » سارعتْ إلى توجيه الاتهامات ، وإلى تحويل الأنظار خارج البلاد ، لإيهام الرأي العام بأن « هذه الحوادث إنما هي أحداث أوحت بها جهات أجنبية » و « بأنها عدوى انتقلتْ من الحدود التونسية » .

لقد فوجئت الجهات الفرنسية باندلاع الثورة ـ وهذا من عوامل نجاحها ـ فراحت تدلي بتصريحات غير موضوعية ، وتتصرف تصرفات تنوي القضاء بها على الثورة ، فدعّمتها من حيث لا تدري ، وفوجئت من جديد بانتشار الوعي الثوري في البلاد بسرعة مذهلة ، وبالتفاف الجماهير الشعبية حول الثورة .. ومن الطبيعي أن يفاجأ الفرنسيون وأن يصابوا بالذهول ، لأنهم اطمأنوا إلى الجانب الجزائري من زمن بعيد ، ولم يتصوروا أن الجزائريين سيعودون إلى حمل السلاح الذي تركوه جانبا منذ الحرب العالمية الأولى .. وكانوا يعْتقدون بأن حوادث ماي أدَّبت الوطنيين الجزائريين ، ومن المستحيل أن يفكروا ـ بعْد الذي أصابهم ـ في ثورة مسلحة .. وها هم حين عادوا إلى تنظيم عمل مسلح عن طريق « المنظمة الخاصة » يكتشف أمرهم ، وتحل المنظمة ، ويتم القضاء

عليها .. المهمّ هو أن الفرنسيين كانوا متأكدين بأنه لا يمكن أن يحدث أمر خطير بالجزائر ، لا سيا بعد أن انقسم حزب « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » على نفسه ، وتفتتت قوته ، وحدثت الاصطدامات الدموية بين أجنحته المتصارعة .

حتى أن وزير الداخلية الفرنسي آنذاك فرانسوا ميتران الذي كان في جوْلة بالجزائر ، وفي الأسبوع الذي سبق تفجير ثورة نوفمبر أدلى بتصريح قبل مغادرته الجزائر إلى فرنسا ، قال فيه :

« إنّي حريص على أن أقول إنّني وجدت العمالات الفرنسية الثلاث في حالة من الهدوء والازدهار ، وإني أسافر وأنا مفعم أملا » .

أمّا مانديس فرانس رئيس الحكومة الفرنسية في ذلك العهد ، فقد ألقى خطابا في البرلمان الفرنسي بمناسبة اندلاع الثورة ، وقد جاء في خطابه قوله :

« كان الجو هادئاً .. وكل الشر جاء فجأة من إذاعتي بودابيست والقاهرة ، وهذا الوضع مثار قلق دائم لنا .. فمن هذين العالمين أيضا يفد المهرّجون والمشاغبون ، ومنهما أيضا تتسرّب الأسلحة التي بها تجد الحرب الكلامية امتدادها في الحرب الدموية » .

المفاجأة .. والإرادة .. والصمود هي الدعائم التي اعتمد عليها رواد الثورة .. الذين بفضلهم تجاوزت الحركة حدود المقاومة الشكلية التي لا تتعدى حدود الدفاع .. وتجاوزت نطاق الانتفاضات الضيقة مساحة وعددا .. وتحوّلت إلى ثورة حقيقية جبارة ، بما سطرته لنفسها من أبعاد وغايات ، في بيان واضح .. هادف .. وهذا نصه :

« أيها الشعب الجزائري .

أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية .

أنتم الذين ستصدرون حكمكم بشأننا ـ نعني الشعب بصفة عامة والمناضلين بصفة خاصة ـ نعلمكم أن غرضنا من نشر هذا الإعلان هو أن نوضح لكم الأسباب العميقة التي دفعتنا إلى العمل ، بأن نوضح لكم مشروعنا والهدف من عملنا ، ومقومات وجهة نظرنا الأساسية ، التي دفعتنا إلى الاستقلال الوطني في إطار الشمال الإفريقي ، ورغبتنا أيضا هو أن نجنّبكم الالتباس الذي يمكن أن توقعكم فيه الامبريالية وعملاؤها الإداريون ، وبعض محترفي السياسة الانتهازية .

فنحن نعتبر قبل كل شيء أن الحركة الوطنية ـ بعد مراحل الكفاح ـ قد أدركت مرحلة التحقيق النهائية ، فإذا كان هدف أي حركة ثورية ـ في الواقع ـ هو خلق جميع الظروف الثورية للقيام بعملية تحريرية ، فإننا نعتبر أنّ الشعب الجزائري في أوضاعه الداخلية متحد حول قضية الاستقلال والعمل ، أما في الأوضاع الخارجية فإن الانفراج الدولي مُناسب لتسوية بعض المشاكل الثانوية التي من بيْنِها قضيتنا التي تجد سندها الدبلوماسي وخاصة من طرف إخواننا العرب والمسلمين .

إن أحداث المغرب وتونس لها دلالتها في هذا الصدد ، فهي تمثل بعمقٍ مراحل الكفاح التحريري في شمال إفريقيا ، ومما يلاحظ في هذا الميدان أننا منذ مدة طويلة أول الداعين إلى الوحدة في العمل ، هذه الوحدة التي لم يُتح لها مع الأسف التحقيق أبداً بين الأقطار الثلاثة .

إن كل واحد مِنْها قد اندفع اليوم في هذا السبيل ، أما نحن الذين بقينا في مؤخرة الركب فإننا نتعرض إلى مصير من تجاوزته الأحداث ،

وهكذا فإن حركتنا الوطنية قد وجدت نفسها محطّمة نتيجة لسنوات طويلة من الجمود والروتين ، توجيهها سيٍّء محرومة من سند الرأي العام الضروري ، قد تجاوزتها الأحداث ، الأمر الذي جعل الاستعمار يطير فرحا ظنًّا منه أنه قد أحرز أضخم انتصاراته في كفاحه ضد الطليعة الجزائرية .

إن المرحلة خطيرة !

أمام هذه الوضعية التي يخشى أن يصبح علاجها مُستحيلا ، رأت مجموعة من الشباب المسؤولين المناضلين الواعين التي جمعت حولها أغلب العناصر التي لا تزال سليمة ومصممة ، إن الوقت قد حان لإخراج الحركة الوطنية من المأزق الذي أوقعها فيه صراع الأشخاص والتأثيرات لدفعها إلى المعركة الحقيقية الثورية إلى جانب إخواننا المغاربة والتونسيين .

وبهذا الصدد ، فإننا نوضّح بأننا مستقلون عن الطرفين اللذين يتنازعان السلطة ، إن حركتنا قد وضعت المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات التافهة والمغلوطة لقضية الأشخاص والسمعة ، ولذلك فهي موجهة فقط ضد الاستعمار الذي هو العدو الوحيد الأعمى الذي رفض أمام وسائل الكفاح السلمية أن يمنح أدنى حرية .

ونظن أن هذه أسباب كافية لجعل حركتنا التحريرية تظهر تحت اسم « جبهة التحرير الوطني » .

وهكذا نتخلص من جميع التنازلات المحتملة ، ونتيح الفرصة لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية ، وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية أن تنضم إلى الكفاح التحريري دون أدنى اعتبار آخر .

ولكي نبين بوضوح هدفنا فإننا نسطر في ما يلي الخطوط العريضة لبرنامجنا السياسي :

الهدف : الاستقلال الوطني بواسطة :

1) إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادىء الإسلامية .

2) احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني .

الأهداف الداخلية :

1) التطهير السياسي بإعادة الحركة الوطنية إلى نهجها الحقيقي والقضاء على جميع مخلفات الفساد وروح الإصلاح التي كانت عاملا هاما في تخلفنا الحالي .

2) تجميع وتنظيم جميع الطاقات السليمة لدى الشعب الجزائري لتصفية النظام الاستعماري .

الأهداف الخارجية :

- تدويل القضية الجزائرية .

- تحقيق وحدة شمال إفريقيا في داخل إطارها الطبيعي العربي والإسلامي .

- في إطار ميثاق الأمم المتحدة نؤكّد عطفنا الفعّال تجاه جميع الأمم التي تساند قضيتنا التحريرية .

وسائل الكفاح :

انسجاما مع المبادىء الثورية ، واعتبارا للأوضاع الداخلية والخارجية ، فإننا سنواصل الكفاح بجميع الوسائل حتى تحقيق هدفنا .

إن جبهة التحرير الوطني لكي تحقّق هدفها يجب عليها أن تُنْجز مهمتين أساسيتين في وقت واحد ، وهما : العمل الداخلي سواء في الميدان السياسي ، أو في ميدان العمل المحض ، والعمل في الخارج لجعل القضية الجزائرية حقيقة واقعة في العالم كله ، وذلك بمساندة كل حُلَفَائنا الطبيعيين .

إن هذه مهمة شاقة ثقيلة العبء ، وتتطلب كل القوى وتعبئة الموارد الوطنية ، وحقيقة إن الكفاح سيكون طويلا ، ولكن النصر محقّق .

وفي الأخير ، وتحاشيا للتأويلات الخاطئة ، وللتدليل على رغبتنا الحقيقية في السلم ، وتحديدا للخسائر البشرية وإراقة الدماء فقد أعددنا للسلطات الفرنسية وثيقة مشرفة للمناقشة ، إذا كانت هذه السلطات تحدوها النية الطيبة ، وتعترف نهائيا للشعوب التي تستعمرها بحقها في تقرير مصيرها بنفسها .

1) الاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية ورسمية ، ملغية بذلك كل الأقاويل والقرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضا فرنسية رغم التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات للشعب الجزائري .

2) فتح مفاوضات مع الممثلين المفوّضين من طرف الشعب الجزائري على أسس الاعتراف بالسيادة الجزائرية وحدة لا تتجزأ .

3) خلق جو من الثقة وذلك بإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين ورفع كل الإجراآت الخاصة ، وإيقاف كل مطاردة ضد القوات المكافحة .

وفي المقابل :

1) فإن المصالح الفرنسية ، ثقافية كانت أو اقتصادية والمتحصل عليها بنزاهة ، ستحترم ، وكذلك الأمر بالنسبة للأشخاص والعائلات .

2) جميع الفرنسيين الذين يرغبون في البقاء بالجزائر يكون لهم الاختيار بين جنسيتهم الأصلية ، ويعتبرون بذلك كأجانب تجاه القوانين السارية ، أو يختارون الجنسية الجزائرية ، وفي هذه الحالة يعتبرون كجزائريين بما لهم من حقوق ، وما عليهم من واجبات .

3) تحدد الروابط بين فرنسا والجزائر ، وتكون موضوع اتفاق بين القوتين الاثنتين على أساس المساواة والاحترام المتبادل .

أيها الجزائري ، إنّنا ندعوك لتبارك هذه الوثيقة ، وواجبك هو أن تنضم إليها لإنقاذ بلادنا والعمل على أن نسترجع لها حريتها ، إن جبهة التحرير الوطني هي جبهتك ، وانتصارها هو انتصارك .

أما نحن العازمون على مواصلة الكفاح ، الواثقون من مشاعرك ، المناهضة للأمبرياليين ، فإنّنا نقدّم للوطن أنفسَ ما نَملك »

انتهى نص أول بيان ، تعلن به جبهة التحرير الوطني الشروع في العمل الثوري المسلح .

إن الذي يتأمل هذا النص فقرة فقرة يستطيع أن يرد بكل بساطة على من ادعَوا ـ بقصد أو بغير قصد ـ بأن الثورة قد انحرفت .. على أساس أن الانحراف في مثل هذه المواقف والحالات هو التخلي عن المباديء والأهداف لأغراض غير شريفة .. فالثورة قد خططت استراتيجية عملها . وحددت معالم التعامل مع الدولة المستعمِرة . وأكدت

بأن المعركة المسلحة وسيلة لا هدف .. ولكن أهم ما احتواه النص هو تسطير المباديء التي بدونها وبدون تحقيقها ، لا تضع الثورة سلاحها ، وحصرتها في ثلاثة :

1) الاستقلال الكامل .
2) السيادة الوطنية الحقيقية .
3) وحدة التراب الوطني .

فهل تخلت الثورة عن هذه المباديء ؟ نترك الحديث عن ثورة أول نوفمبر إلى فرصة أخرى ـ إن أطال الله الأعمار ـ مكتفين الآن بالقليل الذي استعرضناه ، واستقيناه من المصادر الصحيحة ، مع الاعتراف في الوقت نفسه بأن ما أوردناه لا يكفي ، لأننا قدمناه في مناسبة خاصة ، وفي أحاديث خاصة بالإذاعة .. لا تستطيع أن تحيط بكل موضوع من جميع الجوانب ، لا سيا وأنها مواضيع هامة .. وحساسة .. قد يكون لها مجال آخر ..) ـ إن شاء الله ـ



المراجـع الهامـة

1) المكتوبة باللغة العربية :

- د. أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ج3
- » » : أبحاث وآثار في تاريخ الجزائر
- عبد الحميد زوزو : دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية بين الحربين (1919 ـ 1939)
- » » : ثورة بوعمامـة
- اسماعيل العربي : المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر
- د. محمد ناصـر : المقالة الصحفية في الجزائر ج2
- د. محمد العربي الزبيري : مذكرات أحمد بـاي
- » » : الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر
- الأمير محمد : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر
- عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ج4
- محمد مبارك الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج3
- أحمد توفيق المدني : كتاب الجـزائر
- » » : هذه هي الجـزائـر
- حمدان عثمان خوجة : المرآة ترجمة د. محمد العربي الزبيري
- محمد عبد الكريم : حمدان عثمان خوجة
- علال الفاسي : الحركات الاستقلالية في المغرب
- أحمد الخطيب : الثورة الجزائريـة
- مالك بن نبي : مذكرات شاهد الـقرن
- فرحات عبـاس : ليل الاستعمار ترجمة أبو بكر رحال
- د. يحيى بوعزيز : ثـورة 1871
- » » : ثورات الجزائـر

2) باللغة الفرنسيـة :

- شارل أندري جوليان وشارل روبير آجرون : تاريخ الجزائر المعاصرة ج2
- شارل أندري جوليان : إفريقيا الشمالية تسير
- شارل روبير آجرون : الجزائريون المسلمون وفرنسا (1871 ـ 1919)
- محفوظ قداش : الحياة السياسية في الجزائر 1919 ـ 1939
- » » : تاريخ الوطنية الجزائرية ج2
- أحمد محصاص : الحركة الثورية في الجزائر

- محمد حربي : **وثائق الثورة الجزائرية**
- « » : **إلى أصول جبهة التحرير الوطني**
- فرحات عباس : **الشاب الجزائـري**
- أندري نوشي : **ميلاد الوطنية الجزائرية**
- جـاك بيرك : **المغرب بين حربين**
- شارل هنري تشرشل : **حياة الأمير عبد القادر . ت. د. أبو القاسم سعد الله**
- كلود كولو و روبير هانري : **الحركة الوطنية الجزائرية . وثائق**
- إيف لاكوست وأندري نوشي : **الجزائر ماض وحاضر**
- كلود مارتان : **تاريخ الجزائر الفرنسية 2ج**
- روبير آرون : **الجذور لحرب الجزائر**
- أوكتاف ديپون : **جزائر القــرن**

3) المجلات والنشرات :

- مجلة الشهاب
- « تاريخ وحضارة المغرب
- المجلة التاريخية المغربية
- سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
- النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني
- صحيفة البصائر
- « المنار
- « الأمــة
- « البرلمان
- « المغرب العربي
- « المساواة
- « النصر ـ قسنطينة ـ
- مطبوعات ومناشير « حزب الشعب الجزائري » و « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية »

محتويات الكتاب

طبع بمطابع
« دار البعث »
قسنطينة ـ الجزائر
هـ : 85 65 69

• هـذا الكتـاب •

المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي .. ملحمة .. بطولية .. رائعة .. أصيلة أصالة الشعب الجزائري العريق الذي أثبت وجوده .. ودافع عن شخصيته وكيانه مدة قرن واثنين وثلاثين عاما ، عرف خلالها أساليب من المقاومة ..

لم تحرر هذه الأساليب الأرض الجزائرية من الظلم والطغيان والجبروت ، ولكنها أقرت حقيقة خالدة وهي أن الشعب الجزائري غير قابل للذوبان وللابتلاع ..

والكتاب يغطي فترة 1830 ـ 1954 .. ويركز فيها على الأحداث لا على الأشخاص .. لأن الأشخاص ليسوا بالمقياس الوحيد في ميدان المقاومة والصمود .. ويقود القارىء الى التعرف بموضوعية ونزاهة على تطور الوطنية الجزائرية ، وعلى التضحيات الجسام التي بذلتها في سبيل الحرية والاستقلال .

« الناشر »

45 د. ج.